ما يقوله القرآن
في سورة يس

ما يقوله القرآن في سورة يس

من مفردات ولطائف وتعاليم

الجزء الثاني

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً
فَهِيَ إِلى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ

يس/ ٨

البحث في الآية يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الأغلال)

وهي جمع غل وهو القيد، ومنه حديث شهر رمضان (تغل فيه الشياطين) أي تقيّد وتمنع مما تريد ببركة علو همة العبد الصائم إلى الطاعة، فيتجنب المعاصي، أو هو تكريم إلهي حيث دعاه إلى ضيافته فيمنع الشيطان منه، والقيد أعم من الغل، فإن القيد يطلق على كل ما يكبل الإنسان، أما الغل فهو قيد خاص، وهو ما تجعل الأعضاء في وسطه[1]، وهو قسمان: مادي ومعنوي. الأول معروف يطوق به المجرم والأسير، والثاني ما يطوّق روح الإنسان وقلبه وعقله فيمنعه من البصر والبصيرة، ولذا يطلق الغل بالكسر على الخيانة والعداوة والحقد الكامن في النفوس، وإليه يشير قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾[2] كما يطلق على

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦١٠، (غل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤٣٥، (غلل)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٦٠، (غل)؛ سند الشاميين: ج٤، ص٤٤، ح٢٦٨٧.

(٢) سورة الحجر: الآية ٤٧.

العصبيات الجاهلية والأفكار الخرافية والعادات السيئة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(١).

فإنّ أهم غايات البعثة النبوية الشريفة وأولى مهام النبي المصطفى صلى الله عليه وآله هو فك القيود الفكرية والروحية التي تعشعش في النفوس فتحطها عن المناقب، وتمنعها الكمالات، والآية نصت على أن الغافلين تجعل الأغلال في أعناقهم؛ لأنهم طوّقوا أنفسهم بالغفلة وعدم الإيمان، وصاروا محكومين بها، نظير غسل الأدمغة الذي يمنع أصحابها من الفكر والقرار الصحيح.

المفردة الثانية: ﴿الْأَذْقَانِ﴾

جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين(٢) من أسفلهما(٣).

المفردة الثالثة: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾

مأخوذ من القمح، وهو صفة الشارب عند شرب الماء، وهو رفعه رأسه رياً أو كراهة، وتطلق على الإبل عند الشرب اقتناعاً منها؛ لأنها ترفع رأسها للأعلى، ويقال لها إبل قماح(٤)، ويقال قمح الغل الأسير إذا ضاق على عنقه فاضطره إلى رفع رأسه فهو مقمح(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.
(٢) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٣٥٧، (ذقن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٥٤، (ذقن).
(٣) المعجم الوسيط: ج١، ص٣١٣، (الذقن).
(٤) معجم مقاييس اللغة: ج٥، ص٢٢٤، (قمح).
(٥) المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٥٧، (قمح).

وقد وصفت الآية الأغلال في أعناق المعاندين أنّها تقيّد أعناقهم، وتتسع لتبلغ أذقانهم فترفع رؤوسهم إلى الأعلى فلا يقدرون على تحريكها، ولا يستطيعون النظر إلى أمامهم ولا إلى جوانبهم، وهي بمعناها المادي لوحة كبيرة فيها ثقوب تدخل في العنق واليدين وتكبلهما كما يشير إليه قوله: ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ولم يقل (على أعناقهم) أو (بأعناقهم).

وأما بمعناها المعنوي فهي تشبه الغافلين الذين لا يؤمنون بتأبيهم عن الانقياد للحق بالشموخ برؤوسهم إلى الأعلى، وتكبرهم الذي يقيدهم ويمنعهم من الفهم والتدبر ومعرفة الحق[1]، والآية تشبه غير المحسوس بالمحسوس، وتعطي الصورة الواقعية التي عليها الغافلون والمعاندون.

وهذه الصورة لا تخص الذين لا يؤمنون، بل قد تشمل الذين يؤمنون ولكنهم يغفلون في دنياهم، ومظاهر التغليل والتكبيل كثيرة. منها العادات السيئة، فترى الشخص الذي اعتاد شرب الخمر مقمحاً في أغلاله لا يرى ما حوله إلّا الخمر، والذي اعتاد على الجهاز الجوال ولا يفارقه ليل نهار ترك أهله وأصحابه ونسي مواعيد الصلاة أو غفل عنها. هذا هو الآخر مغلل ومقمح، والأستاذ في الجامعة والطبيب وغيرهما ممن يعملون ليل نهار ولا يلتفتون إلى ما يجب عليهم من واجبات اجتماعية ودينية مغللون مقمحون، حتى إنك تجد البعض يعيش ستين أو سبعين سنة وهو حاصل على شهادة عالية لكنه يجهل أبسط مسائل دينه، وهذا من المعيب جداً؛ لأن الإنسان لا يعيش في الآخرة

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٣ (قمح)

بشهادته ولا بوظيفته ولا بماله بل يعيش بعقله وقلبه وأعماله، فعلى المؤمن أن لا يغفل عن هذه الحقيقة، ويتصور أن الأغلال خاصة بجماعة معينين، كلا، فربما الكثير من أهل الإيمان يعيشون الأغلال وهم لا يعلمون، وأغلالهم تجمع أيديهم ورؤسهم إلى أذقانهم فلا يرون من الحياة شيئاً، ولا يلتفتون إلى ما يجب عليهم من واجبات وحقوق دينية وإنسانية.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: إن الآية تحكي في منطوقها العام الآثار والنتائج العلمية التي تترتب على الغفلة والعناد والمكابرة، فالآية السابقة أشارت إلى الأثر العقيدي وقالت: إنهم يعيشون ويموتون على غير الإيمان، وهذه الآية تشرح أوضاعهم الخاصة وكيف ستكون معيشتهم في الدنيا والآخرة، وقد ذكرت ثلاث حالات يكونون فيها:

الأولى: أنهم مقيدون بالأغلال.

الثانية: أن أغلالهم جامعة تغلل رؤوسهم من الأعناق إلى الأذقان.

الثالثة: أنهم مقمحون، أي لا يبصرون ولا يتبصرون، ولا يستطيعون فعل شيء لنجاتهم.

وهذا هو الجزاء الوفاق لحالتهم النفسية وأعمالهم، فإنهم عاندوا وكابروا في قبول الحق، فقيّدوا عقولهم وقلوبهم وغللوها بإرادتهم، وإذا تغلل عقل الإنسان وقلبه تغلّل جسده أيضاً لأن الجسد أداة العقل والقلب هذا في الدنيا، وفي الآخرة يلاقون ذات المصير؛ لأنّه خيارهم واختيارهم. وهو مقتضى العدل.

اللطيفة الثانية: أن الآية نصت على أن مصيرهم الذي يلاقونه يتم بالجعل الإلهي فهل الجعل عقابي أم جزائي؟

والفرق أن العقابي يكون بحكم من الله سبحانه، عقوبة لهم على عنادهم وعدم إيمانهم، بينما الجزائي فيكون نتيجة طبيعية لأفكارهم وأعمالهم ليس من باب العقاب، بل من باب ترتب النتائج على مقدماتها، نظير الشخص الذي (يشرب) السم فيموت، والذي يلعب بالنار فيحترق.

إن قلت: الجزائي مخالف لمنطوق الآية لأنّها صريحة في أنّ الجعل من الله سبحانه وليس من الآثار الطبيعية.

فالجواب: أنّ الجزائي أيضاً من الله سبحانه باعتبارين:

أحدهما: أنّه جعل موازين الأمور تجري بالأسباب والمسببات؛ لذا يصح أن نقول الله سبحانه أمطرنا، ويصح أن نقول السماء والسحاب، ونقول الوالدان سبب وجود الولد، وكذا الله سبحانه، وكلا الإطلاقين صحيح باعتبار تسلسل العلل الطولية أو المظهرية للفعل الإلهي، ومثله في الاستعمالات العرفية كثير الوقوع.

يقولون الحاكم فتح البلاد، أو منح الحرية للناس، أو قتلهم مع أنه لا يباشر ذلك، ولكنه باعتبار أنه السبب الأقوى ينسب إليه الفعل.

وثانيهما: أنه لا يلطف بهؤلاء المعاندين والغافلين فيدعهم في غيهم، ولا يدفع عنهم الآثار؛ لأن الغفلة والعناد يجران لأهلهما المصائب والويلات، ولو كانوا مؤمنين فإنّ الله سبحانه يلطف بحالهم، ويدفع عنهم الأذى والسوء في كثير من الأحيان بمقتضى رحمته الرحيمية؛ لأن الله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا، ولا يريد لعباده الضر والأذى.

ولكنهم لو كانوا غير مؤمنين يتركهم في طغيانهم يعمهون ليذوقوا نتائج أفعالهم؛ لأنهم أرادوا ذلك، وأوقعوا أنفسهم فيه، فغير المؤمن بسوء اختياره أخرج نفسه من لطف الله ورحمته، والمؤمن بحسن اختياره يدخل نفسه في لطف الله ورحمته.

ويتحصل من ذلك: أن الأثر الجزائي من مراتب العقابي سوى انه يقع بالوسائط والأسباب.

اللطيفة الثالثة: أن الآية المباركة نسبت هذا الجزاء إلى الباري عزّ وجل بصيغة الجمع لا المفرد فقالت: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً**﴾ ولعله يعود لسببين:

السبب الأول: لأجل الإشارة إلى العلل التوسيطية في الأثر فإنّ من سنن الله سبحانه جعل الوسائط والأسباب في تدبير شؤون الخلق ومحاسبتهم ومعاقبهم، فلذا ينسب الكثير من الأفعال إلى الجمع لكي يدل الناس على الوسائط والأسباب، ولا يلغي أثر كل سبب له تأثير في النتيجة.

السبب الثاني: الترفع والتنزه من هؤلاء المكابرين المعاندين؛ لورود صيغة الجمع دون المفرد، فإن الميل بالخطاب من المفرد لأجل الترفع والتسامي عن نواقص الغير، وحيث إن الآية تشرح أحوال أناس تلوثوا بالذنوب والنواقص يعيشون حياتهم غافلين معاندين وغير مؤمنين وهم مكبلون بالأغلال والرذائل لا يليق بمقام الباري أن يعطيهم جزاءهم إلّا بالوسائط والأسباب تنزهاً مما هم عليه من النواقص.

فإن الكامل يتنزه من النقص، وهذا أسلوب عقلائي معهود في تعاملات الكاملين والناقصين.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: سر نجاح العلاقات الأسريّة

بالتعبير بصيغة الجمع بدلاً عن المفرد إقرار بفضل العلل التوسيطية وأثرها في الأحداث، وفي ذلك تعليم وإرشاد لنا في أن لا ننكر فضل أحد سواء كان أثره وفضله عظيماً أو صغيراً، فإن من أخلاق الله سبحانه الإنصاف والإقرار بفضل كل صاحب فضل وأثر، وقد نهانا عن بخس الناس أشياءهم فقال سبحانه: ﴿**لاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾[(1)] وهذه قضية عظيمة لو عمل بها الناس زالت الكثير من المشاكل والأزمات الاجتماعية، واقترب الناس من التواد والتحاب والتآلف، وعدم الالتفات إليها وعدم العمل بها يقود إلى الظلم الفظيع والعدوان، وأمثلته كثيرة تظهر كثيراً لدى تقويم الأفراد وبيان أوصافهم وآثارهم.

ففي العلاقات الزوجية مثلاً لكل من الزوج والزوجة دوره ومكانته وأثره في الحياة الأُسرية، والحياة الأُسرية لا تقوم بدونهما، فالأُسرة بلا رجل ناقصة، وكذا بدون المرأة، والشرع يعتبر الزواج أقدس بناء يبنى، وأحب بناء إلى الله تبارك وتعالى حتى ورد في الأحاديث عن أبي جعفر عليه السلام قال

---

(1) سورة الشعراء: الآية ١٨٣.

رسول الله صلى الله عليه وآله: «مابني بناء في الإسلام أحب إلى الله تعالى من التزويج»(١) ولكن وبسبب جهل البشر وقصورهم أو معاندة بعض الأزواج والزوجات أو بسبب غفلتهما ينتهي هذا البناء المقدس إلى الهدم والطلاق.

وهنا يظهر سمو الأخلاق والإنصاف، فالزوج قد ينسى فضل زوجته ويتصوّرها أو يصوّرها في أنظار الآخرين كأنّها أسوأ مخلوق، والزوجة كذلك حينما تتحدث عن زوجها، مع أن الاثنين ظلم؛ لأن العاقل لو نظر بإنصاف ولاحظ المحاسن والمساوئ قد لا يجد أنساناً خالياً من صفات حسنة تستحق الذكر، ولكن غير المنصف حينما يتحدث يذكر الصفات السيئة فقط وينسى الحسنة، فيكون قد ظلمه وبخس حقه، وتراه يقع في الظلم الذي جاء يشتكي منه؛ لذا يقول الباري عز وجل في وصيته للزوجين لو لم يصلا إلى تفاهم ورضا: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾(٢) أي اما تعيش بالمعروف أو يفكان العلاقة الزوجية ولكن بإحسان.

والسؤال ما معنى الإحسان هنا؟ ولماذا الإحسان ولم يقل أو تسريح بالعدل مثلاً؟

والجواب: للإشارة إلى أن التسريح ينبغي أن يتضمن العفو والسماحة وغض البصر عن العيوب، فلو عفا الزوج عن زلات زوجته يكون محسناً لها، وكذلك لو عفت الزوجة عن أخطاء زوجها، بينما لو غفلا عن ذلك

---

(١) الفقيه: ج٣، ص٣٨٣، ح٤٣٤٣؛ الوسائل: ج٢٠، الباب ١ من أبواب مقدمات النكاح وآدابه، ص١٤، ح٢٤٩٠١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

وذكر كل منهما مساوئ الآخر ونسى محاسنه يكون قد ظلمه، ونتيجة الظلم أنسداد باب الرجعة فتتعذر العودة إلى الحياة الزوجية من جديد، بينما الإحسان يجعل باب العود مفتوحاً.

ولأجل أن يؤكد هذه الأخلاق العالية والأسلوب الرفيع في معالجة المشكلة يقول الباري عز وجل للمطلقين ﴿**وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(١) وعدم نسيان الفضل يشمل مصداقين.

الأول: الفضل الاجتماعي، ويراد به عدم الغفلة عما وقع في الماضي، أي أيام الحياة الزوجية.

والثاني: الفضل الأخلاقي، ويراد به عدم الغفلة عن سمو الأخلاق وما يقتضيه حسن المعاملة مع الآخر في الحال والمستقبل، فإن من سمو أخلاق الرجل أن لا يعضل الزوجة بالطلاق، ويذرها كالمعلقة، ويعطيها حقوقها كاملة لا ينتقصها، أو يتشدد في الحساب ويحسب معها الدينار والدرهم واللباس وغيرها، بل يكون سمحاً عفواً؛ لأن ما يفقده بخسارة زوجته أعظم، فإن كل ما يحصل عليه من مال ولباس بعد خسارة زوجته وانهدام أسرته لا يسوى شيئاً.

ومن سمو أخلاق الزوجة أن لا تنسى فضل زوجها ولا تحاسبه على الصغيرة والكبيرة، وتريد أن تنتزع منه كل ما تقدر، فالفضل في الزوج أن يعطي أكثر مما تستحق الزوجة، والفضل في الزوجة أن ترضى بالأقل منه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٧.

وفي هذا التعليم الرباني العظيم يفتح القرآن باب التفاهم والتسامح لتعود الحياة إلى طبيعتها، ويجعل في خاطر كل من الزوجين الذكرى الحسنة والمواقف النبيلة على فرض الانفصال.

ربما يقول البعض لا يكفي أني أنصف وأحسن؛ لأن الإحسان لابد وأن يكون من الطرفين، والبعض من يفسر إحساني بالضعف، وإنصافي بالعجز.

فالجواب:

أولاً: هذا التصور خاطئ؛ لأن الكمال حسن أينما يكون، وإن رآه الناس ضعفاً لكن الإنسان عند نفسه وعند ربه عظيم، والله سبحانه لا ينظر إلى الصور بل إلى القلوب.

ثانياً: أن المنصف دائماً منصور وغالب، وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام: ﴿ما تدارى اثنان في أمر قط فأعطى أحدهما النصف صاحبه فلم يقبل منه إلّا أديل منه﴾[1] وأديل أي غلب وانتصر، فالمنصف في المعاملة دائماً منصور بمقتضى حكم العقل والواقع الاجتماعي فضلاً عن الحكم الشرعي، وإما منصور بالتوفيق الإلهي والنصرة الغيبية، فلا ينبغي أن يهتم المنصفون لكلام ضعاف الإيمان أو المخطئون في أفكارهم، فإن القيم الحقة تبقى حقه وإن حاول البعض قلبها إلى رذيلة.

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٤٧، ح١٨، وفيه: ((ما تدارأ اثنان في أمر قط))؛ البحار: ج٧٢، ص٤٠، ح٤٠.

ومعلوم أن هذا التعليم الرفيع لا يختص بالزوجين، بل يشمل عموم الناس في مختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية والتجارية، ويؤسس قاعدة عامة يقضي بها العقل والشرع بلزوم الالتفات إلى أمرين:

أحدهما: النظر إلى الإيجابيات في الآخرين وعدم قصر النظر على السلبيات، بل غض النظر عن السلبيات، فإن النظرة الإيجابية تحلي الناس في عيون بعضهم وتجملهم بخلاف النظرة السلبية.

ثانيهما: النظر إلى الفضل الأخلاقي في التعامل وعدم التشدد في معاملة الآخرين.

فلو تفضل المعطي بالزيادة وتفضل المعطى بالنقيصة زادت المحبة والألفة بين الجميع، و هذه أحد أهم أسباب نيل السعادة في الدنيا وفي الآخرة، ومن صفات الله ورحمته وخلقه الرباني أنه يتعامل مع عباده بهذا النهج، فإنه يقبل منهم اليسير، ويعفو عن الكثير، ويجبر القلب الكسير ويستر على المذنبين، ويعفو عن الخاطئين.

بل يحب التوابين ويحب المتطهرين، وأننا لو نأخذ بهذه السياسة الرفيعة ننتزع فتيل الأزمات والانقسامات والمشاكل الأسرية والاجتماعية، وما من خلاف أو نزاع إلّا ويحل برضا الطرفين وبمحبة واحترام سواء على صعيد السياسة أو المؤسسات والمشاريع التجارية، أو على الأصعدة الشخصية وغيرها.

ويتحصل: أن الآية المباركة نسبت الجعل إلى الجمع مع أن الفاعل واحد لأجل الإشارة إلى وجود علل توسيطية في الجزاء قد تكون ملائكة، وقد تكون عللاً توليدية طبيعية، وهذه كلها أشاد بفضلها الباري وبوجودها ولم يهمل ذكرها مع أنه سببها وأصلها ووجودها، وهذا أسلوب أخلاقي مثالي يكشف عن هذه الحقيقة، ويعلم البشر أن يتعاملوا بمثله، وينبههم إلى أنه من ورائهم بصير بما يعملون لا يخفى عليه ظلم أحد، ولا إحسان أحد، ويجازي كلاً بحسب أسلوبه، فالمحسن المتفصل يتفضل عليه، والمتعند المكابر والغافل يجازيه بمثل عمله.

التعليم الثاني: الترفّع عن الجاهلين

تعلّمنا الآية المباركة بالتعبير بصيغة الجمع دون المفرد أنّ الكبير في شأنه العظيم وفي منزلته لا ينبغي أن ينحدر في مستواه لدى التعامل مع الناقصين، فلو تعرض الجاهل للعالم بالإساءة لا ينبغي للعالم أن ينزل إلى مستواه، ولو أساء الصغير للكبير ينبغي أن يترفع الكبير، ولا يبالي بما لاقى، فإن رد العالم على الجاهل ينزله إلى مستوى الجاهل، وتعرض الكبير للصغير ينزله إلى مستوى الصغير.

فلو أراد العالم أن يحتفظ بمكانة العلم والعلماء عليه أن لا يرد على الجاهلين المسيئين، ولو أراد الكبير أن يحفظ مكانته وكبره لا ينبغي أن يتعامل مع الصغير بمثله، وهذا هو ما دعانا القرآن إليه بقوله تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا**

سَلاَماً﴾[1] وفي الحديث الشريف: ﴿ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: شريف من وضيع، وحليم من سفيه، وبر من فاجر﴾[2].

واللا إما نافية في مقام النهي فتكون إرشاداً إلى عدم صحة مطالبة هؤلاء الكبار النصفة من الصغار؛ لأنهم يتنزلون إلى الأدنى، وإما نافية للإرشاد إلى أنّهم حتى إذا طالبوا بالنصفة لا يبلغون المراد حتى وإن أعطوا الحق الذي طالبوا به؛ لأن ما يفقده الكبير في منازعة الصغير أعظم مما يناله بالنصفة، فالكبير لابد وأن يكون كبيراً ولا يكون كذلك إلّا إذا ترفع في نفسه عن الصغائر، وترفع عن الاستصغار بالآخرين.

وفي الرواية عن الإمام الكاظم عليه السلام: ﴿ما تساب اثنان إلّا انحط الأعلى إلى مرتبة الأسفل﴾[3] فالترفع عن النواقص والموبقات لا يحصل بالتنزيه الذاتي بأن لا يفعل الإنسان الناقص فقط، بل يجب أن يترفع عن النواقص أيضاً، ويتجنب الانتقاص، فإن سيرة الكمال الإنساني تحصل بالطريق الذاتي والغيري، أي بإكمال النفس بالفضائل، واكتمالها في المعاملات الفاضلة.

وهذا النهج العظيم نفهمه من الآية المباركة؛ إذ ورد الجعل بصيغة الجمع لا المفرد؛ لأن الفرد الكامل لا يليق به أن يتعامل مع الناقص بغفلته وعناده وعدم إيمانه إلّا عبر الوسائط والأسباب.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٢) الخصال: ص٨٦، ح١٦؛ مشكاة الأنوار: ص٢٦٠؛ البحار: ج٦٨، ص٤١٧، ح٤٢؛ مستدرك سفينة البحار: ج١٠، ص٧٧.

(٣) الدرة الباهرة: ص٧، ح٨؛ البحار: ج٧٥، ص٣٣٣، ح٨؛ مستدرك سفينة البحار: ج٤، ص٤٢٧.

التعليم الثالث: قاعدة تجسّم الأعمال والملكات

تشير الآية إلى قاعدة هامة في الصفات والأعمال وهي قاعدة تجسم الأعمال والملكات النفسية، فإن الآية نصت على أن الغفلة والعناد وعدم الإيمان تتجسّم وتكون أغلالاً، وتطِّوق عنق الإنسان وتمنعه من الرؤية وتجعله مقيداً لا يعرف كيف الخلاص، ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿**جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ**﴾ وهذا الجعل تكويني لا مجرد عقوبة قضائية، بل إن أعمال الإنسان تطوقه إن كانت خيراً فيطوقه الخير، وإن كانت شراً فيطوقه الشر.

ولذا ورد الجعل بصيغة الماضي لا المضارع للإشارة إلى أنّ البشر يحاطون بآثار أعمالهم في حياتهم اليومية، وليس فقط يلاقون آثارها في الآخرة، ولكنه غافل عن هذه الحقيقة وفاقد للحس بها[١]، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[٢] وصيغة المضارع تدل على الحال والاستقبال، والمعنى أن الإنسان يرى عمله في وقته كما يرى آثاره في المستقبل، فلا ينفك الإنسان من الأعمال، ولا يختص ذلك بالعمل، بل حتى الصفات النفسية والملكات الروحية يعيشها الإنسان في يوميات حياته، فالمتفائل الحنون العطوف يعيش الحنان والعطف والمحبة، والحقود الحسود يعيش الحقد والحسد، ولا ينفكان عنه، ولذا قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[٣] وهذه الإحاطة دائمية

---

(١) انظر بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٥.

(٢) سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٩.

ومستمرة معهم في طول حياتهم، وترافقهم في قبرهم وفي أخراهم فتكون بمنزلة الطوق الذي يحاصرهم، وهذا أمر طبيعي تقتضيه طبائع الأشياء، ويقره العقل والشرع.

وتوضيح ذلك: أنّ النار الدنيوية تشتعل بالوقود ولها عين وآثار محيطة يمتد تأثيرها إلى مسافات دائرية حول النار، فالذي يكون في النار يحترق، والذي يكون قريباً منها كذلك، والى أقصى مدى تبلغه حرارة النار تكون حارقة بحسب درجات ومراتب الاحتراق. هذه هي النار الحسية، وأما النار المعنوية فوقودها الأخلاق والصفات النفسية وملكات البشر السيئة، فهي أيضاً لها وقود يشعلها، وهي الأعمال الشريرة، ولها آثار ومدى حولها يطال كل من دنا منها، فهي لا تحرق أهلها فقط بل المحيطين بها.

فالحقود مثلاً يشتعل بنار الحقد، وينعكس ذلك في الغل والضغينة للآخرين، ويؤثر عليهم بسوء الفعل، وكذلك الحسد والغيبة والكذب وغيرها من الصفات الأخلاقية تشتعل في النفوس وتبلغ آثارها الآخرين فتحرقهم؛ لذا ورد أن المغتاب والمستمع للغيبة والسبب للغيبة يشتركون في الأثر.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن يلتفت الإنسان إلى هذه الحقيقة، وهي أن ما يتصف به في الدنيا من صفات نفسانية وملكات أخلاقية هي التي تصنع حياته في الدنيا، وهي التي سيعيش بها في الآخرة، ومنها ما هو ناري، ومنها ما هو نوري، فعليه أن يسعى لتهذيب نفسه وتحليتها بالفضائل والكمالات النورية ليعيش سعيداً وآمناً، فجهاد النفس من أوجب الواجبات؛ لأن به

يبني الإنسان لنفسه الحياة الأبدية، وبهذه الخصائص والفضائل تتشكل هويته وشخصيته في النشأتين.

ويعزّز هذه الحقيقة ما تضافر في الأحاديث الشريفة عن النبيﷺ: ﴿الدنيا مزرعة الآخرة﴾[1] فإنه يشير إلى أن أعمال الإنسان وأفكاره وصفاته الأخلاقية عبارة عن زرع يزرعه، ولكل زرع ثمار من جنسه، وقوله: «مزرعة» يحتمل عدة معان:

الأول: أنّ الدنيا تكون مزرعة للآخرة، والمعنى أنّ دنيا الإنسان تكون على حسب اعتقاده بالآخرة، فإن الإنسان الذي يؤمن بالآخرة يجعل حياته الدنيوية متوافقة مع موازينها، فلأنّه يعلم بأن الظلم في الآخرة مصيره النار لا يظلم في الدنيا، وحيث يعلم بأن البر والإحسان مصيره الجنة في الآخرة يكون باراً محسناً في حياته، فالاعتقاد بالآخرة هو الذي يبني حياة الناس الدنيوية، وإذا لاحظنا بعض الناس يؤمن بالآخرة ولا يجعل حياته موافقة لموازينها فيظلم ويعتدي ويأكل السحت ويفعل الحرام دَلَّ ذلك على الخلل في إيمانه، وأنه ليس على يقين بما يقول، ولذا ورد في الأحاديث: ﴿لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن﴾[2] أي ليس على درجة الإيمان واليقين، وإنما إيمانه مشوب بالشك.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٦٧، ح٦٦؛ تعليقة على الفوائد الرضوية: ص١٤٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٨٥، ح٢١؛ الوسائل: ج٢٠، الباب ١ من أبواب النكاح المحرم وما يناسبه، ص٣١٤، ح٢٥٧٠٨.

فالمعنى الأول يفيد أن الفكر والعقيدة والإيمان الذي يحمله الإنسان عن الآخرة هو الذي يصنع حياته الدنيوية، فالدنيا تكون محل زرع الآخرة.

الثاني: أن تكون الآخرة محل زرع الدنيا، أي أنّ عمل الإنسان في الدنيا يلقاه في آخرته ويحصد آثاره وثماره، فكل ما يعمله الإنسان يزرعه في الآخرة.

الثالث: كل منهما مزرعة للأخرى، وهو الأرجح بشهادة الإطلاق والواقع الخارجي، فإن الإنسان يعيش حياته بحسب عقيدته وإيمانه، فالذي يسوق بعض الناس إلى المسجد وأعمال البر إيمانه، والذي يسوق البعض الآخر إلى الملهى ودار الفجور شكه وعدم إيمانه، فالإنسان يعيش بهويته، وهويته يصنعها إيمانه واعتقاده وما يحمله من صفات وملكات، وبهذه العقيدة تقوم الدول والمجتمعات أيضاً.

فالدولة التي تقوم على سياسة المحبة والحرية والمسالمة وحفظ الحقوق فإن إيمان أصحاب القرار فيها كذلك، والدولة التي تقوم على القمع والاستبداد والعدوان فإنّ إيمان أصحاب القرار فيها هكذا، والمجتمع الذي لو انطفأ الكهرباء فيه ينهب بعضه بعضاً يكشف عن إيمانه، والآخر الذي يصون الجار جاره ويحفظ أمواله وعرضه في غيابه يكشف عن إيمانه.

وعلى هذا الأساس يجب أن يهتم كل إنسان بثلاثة أمور ولايتهاون فيها:

الأول: أن يراجع معتقداته ويثبت الصحيح منها ويصحح غير الصحيح.

الثاني: أن يهذّب أخلاقه وملكاته فيجتهد ليتحلى بالفضائل ويتجنب الرذائل والعادات السيئة.

الثالث: أن يطابق أعماله بواجباته وطاعاته الشرعية ليكتمل ويرتقي فيصنع لنفسه حياة راقية، فإنّ ذلك كله هو أساس حياته الدنيوية والأخروية، وعلى هذا الاهتمام يجب أن يكون المجتمع والدولة.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: أنّ كل عبد يبعث على ما مات عليه، أي فعله ومعتقده الذي كان عليهما، فمن مات شارباً للمسكر يعاين ملك الموت وهو سكران، ويعاين منكراً ونكيراً وهو سكران، ويبعث يوم القيامة سكراناً، ويلقى في خندق في جهنم يسمى السكران فيه عين يجري ماؤها هائماً ليس له طعام ولا شراب إلّا منه، كما أن أكلة الربا يقومون من قبورهم ويسقطون لعظم بطونهم وهم كالمجانين من مس الشيطان(١)، وأهل الدنيا وهم الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وفطنون بأمورها وهم عن الآخرة غافلون لا يبالون من أي جمعوا المال، ولا يشبعون من الحلال، ولا يبالون بالحرام(٢).

وفي حديث آخر يحشر صاحب الغناء من قبره أعمى وأخرس وأبكم، ويحشر صاحب الزنا مثل ذلك، وصاحب المزمار مثل ذلك، وصاحب الدف مثل ذلك(٣).

وفي الأخبار أن سيء الخلق لا يشم رائحة الجنة؛ لأنه أحاط نفسه بنيران سوء الأخلاق وآثارها، والمراد به إما في الحشر الذي يجعل فيه شم رائحة

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٢، ص٢٤٩.

(٢) مقتنيات الدرر: ج٣، ص٤٧.

(٣) جامع الأخبار: ص٤٣٣؛ جامع الشتات (للخواجوئي): ص١٦٧.

الجنة من الأمور المريحة لأهل المحشر، أو كناية عن عدم دخول الجنة؛ لأن سوء الأخلاق يوقع صاحبه من عصيان إلى آخر، وهذا ما يؤكده الواقع، فإن العصبي مثلاً ربما أهان مؤمناً أو اغتابه أو سبه أو ضربه، وعادة يتكرر منه هذا العمل، وربما في كل يوم يقع منه ذلك فيكون ظالماً ومصير الظالم النار.

التعليم الرابع: التعصب للحزب والجماعة من الأغلال

أن الأغلال في الآية من تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، ويراد بها الأغلال التي تقيدّ الغافلين والمعاندين في حياتهم من أمثال العصبية والتعصب للعشيرة أو للقوم أو للحزب وللجماعة. هذه العصبيات قبيحة عقلاً، وفي بعض مراتبها محرمة. هذا من حيث الأثر الديني، وأما من حيث الأثر الدنيوي فهي من أسباب الجهل والضلالة والافتتان والمحاربات.

والمغلول في عنقه رأسه مرفوع للأعلى فلا يقدر أن يرى نفسه، ولا يرى طريقه، ولا يبصر ما حوله، ومن كان كذلك فهو كالأعمى لا يبصر شيئاً، ولا يعرف أين يسير، وكيف يسير، بل الأعمى أفضل منه؛ لأن الأعمى يده طليقة، فربما يدرك الأشياء بواسطة اللمس، لكن المغلول يده مقيدة إلى عنقه فلا يقدر على تلمس الأشياء حتى يدركها، والإنسان إذا فقد البصر وفقد اللمس يكون قد سد على نفسه بابين للمعرفة والتبصر في الأمور، والسبب في ذلك أن المعاند الغافل يشرئب برأسه ويشمخ بأنفه كبراً وغروراً، وهذا نفسه علامة على علوه وتكبره، فيسد الباري منافذه لكيلا يرى ولا يلتفت، ويده التي يجعلها عالية على غيرها يجعلها مغلولة لا تقدر على الأخذ والعطاء.

وفي ذلك تعليم مهم لنا جميعاً، فإن الناس يحبون الحرية ويضحون لأجلها بالكثير من أجل أن يرفعوا عن أبدانهم القيود والأغلال، كما أنهم يبذلون الكثير لأجل أن يتعلموا ويرتقوا في الأفكار والمعارف، ولكنهم قد يهتمون بفك القيود والأغلال المادية أكثر مما يهتمون بفك القيود والأغلال المعنوية والروحية، ولا زالت العصبية والفئوية والقومية تفرّق الناس وتصنّفهم وتباعد بينهم روحياً.

وهذه الحروب الطاحنة التي تعانيها البلاد الإسلامية جزء من وقودها الأغلال الروحية والتعصب الحاكم على عقول أصحاب القرار وأحقادهم ولا نجاة للبشرية من مفاسد الطغيان والجشع والاستعمار والاستغلال والظلم المنتشر على الأرض إلّا بفك والأغلال الروحية والاعتناء الحقيقي بالإنسان وبالقيم الأخلاقية والدينية لا المصالح والمكاسب الاقتصادية والسياسية:

ويتحصل مما تقدم: أن الأغلال قسمان: أغلال أخروية تطوق المذنبين الغافلين وتقودهم إلى النار، وأغلال دنيوية يصنعها الإنسان بنفسه، ويعيش بها معذباً شقياً، ولا مخلص من ذلك إلّا بالتحرر منها، وذلك لا يكون إلّا باتباع العقل والشرع، والاقتداء بسيرة النبيﷺ الذي وصفه الباري عزّ وجل بأنه بعثه ليفك عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

وأما ما يروّج له من الأفكار المادية والعلمانية وما يدعى من قوانين وأنظمة وتعاليم وضعية فهي لا تزيد الإنسان إلّا أغلالاً، وتوقعه أسيراً للشهوات وللسياسات الغاشمة، والشاهد على ذلك الحروب الطاحنة التي

ابتلي بها البشر، والأمراض المستعصية التي يعانيها، والاستغلال القائم بين العالم القوي والعالم الضعيف وانتشار الجهل والأمية، وأنعدام الأمن إلى غير ذلك من المظاهر، كلها تنم عن أن الحضارة الحديثة التي تسمى بالحضارة ماذا صنعت للبشرية؟ قدمت له صناعة ورفاهاً مادياً ولكن غللته بألف قيد وقيد، وصار الإنسان هو الخاسر الأكبر منها.

حتى التقنية والأجهزة الحديثة مثل الجوالات وأنظمة التواصل والقنوات الفضائية هي نوع آخر من الأغلال التي تغل عقول الناس وقلوبهم، ولذا ارتفعت نسبة الطلاق والمشاكل الاجتماعية، وازدادت الجرائم. إذاً أغلال الدنيا مقمحون فيها، وكذا أغلال الآخرة، فعلى الإنسان أن يلتفت إلى ذلك وينجو بنفسه منها بالعودة إلى الضمير والعقل والدين.

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ إِيْدِيهِمْ سَدّاً
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ
فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ

يس/ ٩

الآية المباركة تكمل الصورة التي يكون عليها الغافلون في دنياهم وفي أخراهم، وتؤكد أنهم في قيود وأغلال، وأرواحهم وأبدانهم مسجونة، وفي الآية السابقة ذكر حالتهم بأنهم مصفدون وبالأغلال تخنقهم، وهذه الآية تشير إلى يومياتهم، وذكرت أنهم يعيشون سجناً محيطاً بهم يكون من سدين سد من أمامهم وسد من خلفهم وعيونهم مغشية؛ لتأكد شدة ضيق السجن بحيث تنعدم فيه الرؤية، فالسجن هو ظلام دامس، وغشاء البصر ظلام آخر، والخوف والرعب الذي يعيشونه ظلام آخر، فهم في ظلام فوق ظلام فكيف تكون حالتهم؟

هذا وفي الآية مباحث مهمة نعرضها على التوالي:

المبحث الأول: في مفردات الآية

ذكرت الآية المباركة مفردتين تستدعيان البحث:

المفردة الأولى: ﴿سَدّاً﴾

وقد جعل من بين أيديهم ومن خلفهم، وقد مر أن هذا الجعل نتيجة طبيعية وأثر ملازم لصفاتهم النفسية وأعمالهم.

المفردة الثانية: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾

أي جعل الباري عز وجل أبصارهم مغشية، ولكل واحدة من هاتين المفردتين دلالات هامة.

السد هو الحاجز الذي لا خلل ولا ثغرة فيه. يقال: سد الشيء سداً أي أغلق خلله، وردم ثلمه، وأزال عنه عوامل الفساد، والسداد يقال للرأي والعمل، ويراد به الاستقامة والصواب فيهما بعدم وجود الخلل فيهما وقد ورد في الأدعية المباركة «واجعلني من أهل السداد»(١) أي من أهل الصواب والاستقامة، فلا انحراف ولا إفراط ولا تفريط في آرائي وأعمالي، والرأي السديد وكذا القول الموافق للحق والشرع(٢).

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١١٤؛ رياض السالكين: ص٢٥٨.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ج٣، ص٦٦، (سدّ)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٣، (سدّ)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٢٢، (سدّ)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٦٦، (سدّ).

وقد عبرت الآية بالسد دون الحاجز للإشارة إلى نكتة مهمة وهي أنهم واقعون في حصار لا ثغرة فيه ولا مخرج ولا فرج؛ لأن المخرج والفرج لا يقع إلّا بسبب، ومادام السبب غير موجود فلا فرج ولا مخلص، ووجود السبب أمر اختياري لا قهري راجع إلى اختيارهم أنفسهم، والسبب هو التوبة والاستغفار والرجوع إلى الإيمان والانفكاك من أغلال العناد والغفلة، إلّا أنّ عنادهم وتكبرهم يمنعان من السبب؛ لذا يبقون في هذا السجن المحكم.

والنكتة اللطيفة أن الآية ذكرت أن السد مجعول من بين أيديهم، فمبدؤه من هنا، ولم تحدد مداه كم للإشارة إلى شدة الضيق والخناق عليهم.

فكيف يكون من يحمل سجنه معه وأينما يتحرك فهو مسجون ومكبل؟ وسجنه يبدأ من أقرب شيء إليه ويتسع ولم يبلغ المدى الواسع، وهذه قضية يعاني منها الكثير من الناس الذين يقعون في المشكلات الاجتماعية، أو الأزمات السياسية أو النفسية، فتجد مجتمعاً يعاني من مشكلة الفساد، أو الإرهاب، أو القمع والاستبداد، أو الفقر والجوع. هذه وإن كانت تعود إلى فشل السياسة والتدبير إلّا أن فشل السياسة والتدبير ناشئ من الغفلة والعناد والغرور والمكابرة.

فما دام عقلاء المجتمع وأهل الرأي فيه لا يزيلون اسباب الانحطاط والضعف فإنهم لا يتخلصون من هذه السجون، ويبقون محاصرين خلف الأبواب المغلقة، وكلما تكثر الاجتماعات والمؤتمرات وتصرف الكثير من

الميزانيات وترسم الخطط إلّا أنها تخرج نفسها من فشل لتلقي بها في فشل آخر، وما أن تخرج من حرب إلّا لتدخل في حرب أخرى، وهكذا دوامة من الأزمات والمشاكل تحيط بالناس أفراداً وجماعات في مختلف الأبعاد؛ لأنهم يعالجون الظواهر ولا يعالجون الأسباب، فمثلهم مثل الطبيب الذي يزيل أعراض المرض من الجسم ولا يجتثه من جذوره.

وهكذا الخلاص من الأزمات والمشاكل الفردية والاجتماعية يحتاج إلى معالجة لأسبابها، وأول خطوة في هذا السبيل هو الصحوة من الغفلة وكسر شوكة الغرور والتكبر والمعاندة التخلي عن الأغلال الروحية والفكرية التي تكبّل أهل الرأي والقرار، فحركة تحرر الإنسان وتطوره وارتقائه تبدأ من نفسه ومن روحه وفكره أولاً، ثم تكبر وتنمو لتكون سياسة وثقافة عامة في المجتمع، وأما قوله تعالى: ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾(١) فتشير إلى العمى المطبق الذي يصيب الغافلين، مأخوذة من الغشاوة وهي كل ما يغطى به الشيء(٢)، والغشاء والغطاء يشتركان في المعنى إلّا أن الآية عبرت بالغشاء دون الغطاء فقالت: ﴿**أَغْشَيْنَاهُمْ**﴾ ولم تقل (غطيناهم) لوجود حكمة، والحكمة تعود لأمرين:

أحدهما: أن الغشاء لا يستر ما تحته فهو يغطي الشيء ولكن لا يستره فيظل ما تحته مكشوفاً.

---

(١) سورة يس: الآية ٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ج٤، ص٤٢٥؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣١٦، (غشي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٣١٦ (غشا).

وثانيهما: أن الغشاء يكون من جنس الشيء الذي يغطيه بخلاف الغطاء، ولذا أنسجة البدن يعبر عنها بالأغشية ولا يعبر عنها بالأغطية، هكذا ورد في بعض معاجم اللغة[١].

ونضيف لذلك فرقاً آخر وهو أن الغشاء يقع على الروح والعقل والقلب بينما الغطاء يقع على البدن، فاللباس مثلاً يقال له غطاء ولا يقال له غشاء، إلّا أن الجهل والضلالة والشرك يقال لها غشاء، والشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾[٢] أي أبصار المنافقين، ولم يقل على أعينهم، لأن البصر قوة النظر، والعين آلته، النظر والغشاوة تمنع رؤية الحق وإن كانت العين مفتحة وغير مغطاة، وقوله تعالى: ﴿**إِذْ يُغْشِّيكُمُ النُّعَاسَ**﴾[٣] لأن النعاس يحجب الفكر ويمنع الرؤية والسمع والكلام وإن كان النائم غير مغطى، ومريض الصرع يقال غشي عليه أي أغمي عليه لا غطي عليه، وفي الموت كذلك ﴿**كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[٤] لأن الموت يحجب الروح ويعزلها عن الدنيا لا البدن.

والقيامة تسمى غاشية لأنها تغشي أرواح الخلق وقلوبهم وعقولهم بحقائقها العجيبة وبثوابها وعقابها، والغافلون المعاندون إذا كرهوا أن

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٨٥، (١٥٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٤) سورة الاحزاب: الآية ١٩.

يسمعوا صوت الحق ونفروا منه ﴿اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾[1] ولأنهم ما كانوا يريدون الاستماع تغشوا بثيابهم ولم يتغطوا، لأن الغطاء قد لا يمنع من السماع بينما الغشاء يمنع منه؛ لأن أرواحهم منصرفة عنه، ولأجل أن هذه إرادتهم يقول الباري عز وجل ﴿أَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ وبذلك إشارة إلى حالتهم البدنية والروحية؛ لأن أرواحهم مسجونة في أغشية، ومن كانت روحه مسجونة بدنه يكون كذلك، كما يلاحظ ذلك في الحزين والمصاب بالخوف أو خيبة الأمل. ومن كان هذا حاله لا يهتدي سبيلاً، وتترتب على ذلك آثار:

أحدها: عدم الاهتداء، والموت على الكفر والعناد.

ثانيها: فقدان الحلول للخلاص من المشاكل والأزمات.

ثالثها: الخوف الدائم والقلق المستمر.

لأن الذي لا يبصر ولا يرى الأشياء يصبح كل شيء أمامه مجهولاً، والإنسان بطبعه يخاف من المجهول، ويرتعب منه، وهذه حقيقة تؤكدها العلوم والوقائع؛ لذا اشتهر المثل: (الخوف من المجهول).

وإذا وصل أسماعنا صوت عظيم ونعرف منشأه ومصدره لا أحد من الحاضرين يقلق أو يخاف؛ لأنه يعرف السبب، وأما إذا لم نعرف من أين هذا الصوت؟ وما هو سببه؟ فإن القلق والخوف يصيب الكثير، والذي لا يبصر يكون كالأعمى يقاد إلى المجهول، وهذا من شأنه أن يبقيه خائفاً قلقاً، وهذه

---

(١) سورة نوح: الآية ٧.

حالة الغافلين في الدنيا وفي الآخرة وإن كان بعضهم قد لا يلتفت إليها، أو يحاول أن لا يتظاهر بها، إلّا أنها تلازمه وتعيش معه.

لاحظوا حياة الملوك والسلاطين الظلمة، فهم لا يعيشون الراحة ولا يلتذون بنوم ولا بقرار، وهم دائماً في خوف وقلق مستمر، وأصحاب الأموال التي يكتسبونها من طرق الحرام يعيشون هذا الهاجس، وكذا أهل الذنوب والمعاصي الكبيرة وغيرهم من أهل الغفلة والعناد، فالأولون قلقون على سلطانهم، ويخافون من أقرب الناس منهم خوفاً من أن ينقلبوا عليهم، والثانون قلقون على أموالهم، ويخافون من أن تذهب منهم أو تسرق أو يقتلهم اللصوص لأجل سرقتها، والثالثون قلقون من الناس لأنهم يفقدون الأمل بالله، ويفقدون الثقة بالناس فلا قرار لهم ولا راحة ولا طمأنينة، وهذا الخوف والقلق وانعدام الثقة يلازم حياتهم فيكبلهم، ويجعلهم يعيشون في سدود من أمامهم ومن خلفهم، ويعمي أبصارهم، فلا يبصرون شيئاً يريحهم أو يوفرلهم الطمأنينة والاستقرار.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة، وما يهمنا هنا الإشارة إلى لطيفة واحدة وخلاصتها: أنّ الآية تحدثت عن ثلاثة أصناف من السدود تحيط بالغافلين المعاندين:

الأول: سد مادي فيه مقمحون يمنعهم عن البصر من أمامهم ومن خلفهم، ولم يشر إلى السد عن يمينهم وشمالهم؛ لأن الأغلال في أعناقهم تمنعهم عن ذلك، ومنطوق الآية ينص على أن السد الذي من أمامهم غير السد الذي من خلفهم، لكنهم مسجونون بسدين وليسوا مودعين في صندوق.

الثاني: سد معنوي يمنعهم من البصيرة، وهو أن أبصارهم مغشية لا تهديهم إلى صواب، وقلوبهم معمية لا ترى النور، فلذا تنسد أبواب الحلول أمامهم.

الثالث: سد منهجي، أي منهجهم الذي مشوا عليه وعايشوه في حياتهم هو الآخر سد يعمي بصائرهم، سواء تجسد هذا السد بالعصبية القومية أو حب السلطة أو حب الدنيا أو حب الشهرة.

وهذا السد أصعب وأخطر من الأولين؛ لأنه بمنزلة العلة لهما، فإن المنهج الخاطئ هو الذي يعمي بصر الإنسان وبصيرته؛ لذا يدعو القرآن دائماً إلى الفحص عن المنهج القويم والكون على الصراط المستقيم؛ لأن صحة المنهج تقود إلى السعادة، وفساد المنهج يقود إلى التعاسة، وهذا ينطبق في حياة الناس السياسية والاجتماعية.

واليوم حيث نشاهد أن الأمة منقسمة إلى فئة مؤمنة بأهل البيت عليهم السلام وتقتدي بهم، وفئة تؤمن بغيرهم وتقتدي بهم، هذا الانقسام مبني على اختلاف في المنهج، فإن لكل منهم خصوصياته وآثاره في العقيدة والفكر وأسلوب العمل، والملحوظ في منهج غير أهل البيت الغشاوة على الأبصار، فإن الحقائق جلية أمامهم والكثير منهم لا يبصرونها.

أضرب لهذا مثالاً: لا شك أن معاوية حارب أمير المؤمنين عليه السلام، وسبه على المنابر، وقتل أصحابه وتتبعهم تحت كل حجر ومدر فماذا كان يريد؟

الجواب: كان يريد منهجية الكفر لا منهجيه التوحيد والعدل، كان يريد حكومة بني أمية لا حكومة الله ورسوله، فالمعيار عنده الحكومة فقط، والحكومة عنده ملوكية لا نبوية.

وذكروا أن الناس مكثو بصفين أربعين ليلة يغدون إلى القتال ويروحون، فأما القتال الذي كان فيه الفناء فثلاثة أيام، فلما رأى علي عليه السلام كثرة القتال والقتل في الناس برز يوماً من الأيام ومعاوية فوق التل، فنادى بأعلى صوته: «يا معاوية» فأجابه فقال: ما تشاء يا أبا الحسن؟ قال علي عليه السلام: «علام يقتتل الناس ويذهبون؟ على ملك إن نلته كان لك دونهم؟ وإن نلته أنا كان لي دونهم؟ أبرز إلي ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب» قال عمر وبن العاص: أنصفك الرجل يا معاوية، فضحك معاوية وقال: طمعت فيها يا عمرو، فقال عمرو: والله ما أراه يجمل بك إلّا أن تبارزه، فقال معاوية: ما أراك إلّا مازحاً نلقاه بجمعنا.

وفي رواية أخرى قال لابن العاص: كلا يا عمرو! أردت أن أبرز له فيقتلني وتثبت على الخلافة بعدي، قد علمت قريش أن ابن أبي طالب سيدها وأسدها[١]، وفي هذه الحادثة دلالات كثيرة.

منها: مدى الصدق والإنصاف الذي كان يتعامل به علي عليه السلام حتى مع أعدائه، فإنّ من أبرز صفات القائد الحكيم أن يتحمل هو عن أهله وأتباعه ويجنبهم الأضرار والمخاطر، وهذه صفة ومعيار لو وضعها الناس نصب أعينهم تمكنوا من تمييز قادتهم الشجعان الحكماء من غيرهم.

ومنها: مدى الخوف والخذلان الذي يشعر به معاوية، وخوفه ناشئ من الغشاوة التي كانت على بصره، وأشارت إليه الآية، وشعوره بذلك نشأ من علمه أن أتباعه لم يلتفوا حوله إلّا لأجل الدينار والدرهم، وليس لأجل قيمة معنوية أو أخلاقية أو استحقاق.

ومنها: من جوابه لابن العاص يعرف أن كل همه ونظره محصور بالخلافة فهو يريد الحكم بأي ثمن كان، ولذا رفض المبارزة؛ لأنه على يقين بأنه مقتول؛ والفرق كبير بين صاحب الحق الذي يدافع عن حقه وبين المتطفل والمتقمص، وبين صاحب المبدأ والعقيدة الحقة التي يدافع عنها وبين من يقاتل لأجل الدنيا والمال.

---

(١) الإمامة والسياسة: ج١، ص٩٥، دعاء علي معاوية إلى البراز؛ وانظر المحاسن والمساوئ: ص٧٤.

ومنها: تصريحه الأخير بأحقية أمير المؤمنين عليه السلام بالحكم، وإن هذا الرأي لم يكن عند معاوية فقط، بل كل قريش كانت تعتقد بهذا خصوصاً كبارهم وزعماؤهم، ولكن رغم ذلك عارضوه وقاتلوه لماذا؟

لأجل فساد المنهج الذي مشوا عليه، فإنّه قادهم إلى ارتكاب الجنايات العظيمة التي سالت بسببها الدماء وهتكت الأعراض وضلت فئة كبيرة من الناس منذ تلك العهود والى يومنا هذا، لكنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعلمون الحق مع علي عليه السلام، وأنه الخليفة بلا فصل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد ذكر ذلك النبي صلى الله عليه وآله في مواطن كثيرة جداً، وأكده عليهم، لكنهم يتعامون عن هذه الحقيقة وهذا ما يؤكده قول ابن الأثير في الكامل:

كان بنو أمية يسبون أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فترك ذلك، وكتب إلى العمال في الآفاق بتركه، وفي سبب ذلك قال عمر بن عبد العزيز: كان أبي إذا خطب فنال من علي تلجلج، فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟ قال: أو فطنت لذلك؟ قلت: نعم، فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده[1].

فالسد الذي سجنوا أنفسهم فيه – أي حب السلطة والدنيا – جعلهم يخالفون الحقيقة ويمضون على الباطل، فماذا يكون مصيرهم؟

---

(١) الكامل في التأريخ: ج٥، ص٤٢-٤٣ ذكر أحداث سنة ٩٩ هجرية؛ شرح إحقاق الحق: ج٢٨، ص٤٧٠.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

تشير الآية المباركة إلى تعاليم هامة ينبغي الالتفات إليها.

التعليم الأول: على العاقل أن يبصر ماضيه ومستقبله

ينبغي على العاقل أن يتدبر في طريقه ومشيه ويقومه أعلى صواب هو أم خطأ؟ ويكرر ذلك على نفسه ليكون حراً غير مقيد ولا مسجون في روحه وفكره، ويقوم هذا الطريق بركنين هما: التطلع إلى المستقبل والتعلم من الماضي. نعرف ذلك من باب معرفة الأشياء بأضدادها، فإن الآية وصفت سجن الغافلين وقالت: إنه عبارة عن سدين أحدهما أمامهم والثاني خلفهم، وربما يكون السد الأمامي كناية عن انعدام الرؤية للمستقبل؛ لأن الغافلين لا مستقبل لهم؛ لأنهم لا يستعدون له، وكل ما يهمهم ويهتمون لأجله طعامهم وشرابهم ولباسهم وأنسهم ورفاههم، وهذا كله محدود زائل يفنى، وأما حياتهم الباقية فما أعدوا لها.

والسد الخلفي كناية عن ماضيهم فلا ينظرون إلى الماضي لكي يتدبروا ويتعلموا منه كيف عاش السابقون؟ والى أين صاروا من بنوا القصور وحكموا البلاد والعباد وجمعوا الإموال؟ والى أين وصلوا؟ ومن عاشوا أتقياء صالحين مؤمنين مجاهدين أين صاروا؟ فإن كل من لا يتدبر ولا يفكر لمستقبله ولا يتعلم من ماضيه يكون أعمى يعيش حياة محدودة ضيقة وصغيرة ولا حلَّ له ولا خلاص.

والفاشلون والناجحون والمبدعون والخاملون من الناس يفترقون بهذه الخصوصية، فالناجحون يتعلمون من الماضي وينظرون إلى المستقبل، ويعيشون حياتهم اليومية بعيون ناظرة إلى المستقبل وعيون أخرى ناظرة إلى الماضي لا لأجل اجتراره، بل لأجل التعلم منه، وهذا ما يشير إليه أمير المؤمنين في مقام التفريق بين أهل الدنيا وبين أبناء الدنيا، فأهل الدنيا يتخذونها هدفاً، وأبناء الدنيا يتخذونها طريقاً؛ لذلك يتقيد الأول في الدنيا وسجنه فيها، بينما أبناء الدنيا يتحررون منها وينظرون إلى الحياة الباقية الأفضل في نعمها ومقاماتها وعلومها. يقول عليه السلام: ﴿فمن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته﴾[1].

وبهذه النكتة الفارقة بين (بها) و(إليها) يختلف النهجان والفريقان والمصيران، فالمطلوب من الناس أن يبصروا بالدنيا ويعرفوا أسرارها وأسبابها ليبنوا مستقبلهم، وينظروا إلى ماضي الدنيا وعواقبها ليتعلموا منها، فإذا نظروا إلى الدنيا أغرتهم وخدعتهم وسجنتهم في سجنها المطوق بالسدود المادية والمعنوية، وإذا نظروا بها تحرروا منها وصنعوا لأنفسهم حياة طيبة تسعدهم في دنياهم وأخراهم.

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص١٣١، من كلام له (٨٢).

التعليم الثاني: التخلص من سجون النفس

أنّ خلاص الإنسان من سجونه الفكرية والروحية لا يتم باعتماد الإنسان على نفسه فقط لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وإنما لابد وأن يستعين بربه في ذلك؛ لأنّه سبحانه هو الذي يخلص الإنسان وينقذه من القيود والآفات بشرط أن يلتجئ إليه الإنسان ويستمد عونه ورحمته.

فالذين يثقون بأنفسهم كثيراً يضيعون أو يلجأون إلى من هم مثلهم في العجز والقصور لذا لا يصلون إلى الغاية بخلاف الذين يلجؤون إلى الله سبحانه فإنه ينجي عباده من كل شدة وكرب ﴿**قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ**﴾(١) وهو وعد قطعه الباري عزّ وجل على نفسه أن ينجي كل من لجأ إليه: ﴿**كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢) والالتجاء إليه يتقوم بالعزم والإرادة والثقة بأنه سبحانه يسمع ويرى ويجيب عبده إذا ناداه واستعانه.

التعليم الثالث: يفيد منطوق الآية أنها حرز يمكن أن يتحصن به المؤمن فينجيه من أعين الأعداء ويحميه من مخاطرهم، وقد تعاضدت الوقائع والشواهد على أن من يلجأ إليه في هذا الحال ينجو من أعينهم وشرورهم، وقد ورد في بعض الرويات ما يعزز ذلك:

منها: ما رواه الطبرسي قدس سره في الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: «إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٤.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠٣.

لأمير المؤمنين عليه السلام: فإن إبراهيم عليه السلام حجب عن نمرود بحجب ثلاث؟ قال علي عليه السلام لقد كان كذلك، ومحمد حجب صلى الله عليه وآله عمن أراد قتله بحجب خمس، ثلاث بثلاث واثنان فضل فإن الله عزّ وجل وهو يصف محمداً قال: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا**﴾ فهذا الحجاب الأول: ﴿**وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**﴾ فهذا الحجاب الثاني: ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ فهذا الحجاب الثالث. ثم قال: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا**﴾[1] فهذا الحجاب الرابع، ثم قال: ﴿**فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ**﴾ فهذه الخمس حجب﴾[2] وقد تحجب به صلى الله عليه وآله من أعين المشركين في ليلة خروجه إلى الغار[3] وأمير المؤمنين عليه السلام في ذات الليلة[4].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٥.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٣١٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٦٥، ح٢٠.

(٣) تفسير القمي: ج١، ص٢٧٥.

(٤) مفاتيح الجنان: ص٤٦، تعقيب صلاة الصبح.

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنْذِرْهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ

يس/ ١٠

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿سَوَاءٌ﴾

هو اسم بمعنى الاستواء كناية عن التساوي بين الأمرين وعدم حصول الفرق بين ما قبل الإنذار وبعده.

المفردة الثانية: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾

الإنذار هو الإخبار بالشيء مع تخويف من الإهمال وعدم الاستجابة[1] في مقابل التبشير وهو إخبار فيه سرور[2].

المفردة الثالثة: ﴿أَمْ لَمْ﴾

أم عاطفية تفيد البدلية، ولم نافية تفيد نفي الإيمان عنهم بالنفي المؤبد، وذلك لا يكون إلّا بنوعين من الناس.

الأول: الأموات؛ لأنّهم لا يسمعون ولا يدركون، فسواء عليهم الإنذار وعدم الإنذار.

الثاني: المعاندون، فإنّهم وإن كانوا بحسب ظاهر حالهم أحياء لكنهم في قلوبهم وعقولهم وأرواحهم أموات؛ لأنّ الميت لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يتعاطف مع الوقائع والأحداث والمعاند كذلك يكون ميت

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٩٨٤، (نذر).

(٢) مفردات الراغب: ص٧٩٧، (نذر).

القلب والعقل والضمير يسمع أصواتاً ويرى مناظر ويعيش الأحداث لكنه لا يشعر بها ولا يفهمها فضلاً عن الاتعاظ بها أو التعلّم منها، فكما أن الميت يستحيل أن يؤمن لأنه لا يدرك فكذلك المعاند، فكلاهما ميّت سوى أنّ أحدهما ميت في جسده والثاني ميت في روحه ومداركه. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[١] أي إنّ الذي أدبر في روحه وعقله وقلبه ولم يرد الاصغاء ميت لا يمكن أن ينتبه، وفي ذلك تأكيد على موت النهج الذي اتبعوه في مقابل نهج الحياة القائم بالإيمان، وسنأتي إلى تفصيل ذلك في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً﴾[٢].

هذا وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ على قولين:

فبعضهم ذهب إلى أنه عطف تفسير وتقرير للآيات الثلاث المتقدمة، فتكون الآية مشيرة إلى حالة أخرى من حالات معيشة المعاندين، وهي أن أيديهم مغللة، ورؤوسهم مقمحة، وأبدانهم محبوسة بين سدين، وأبصارهم مغشية، ومن كانت هذه حالته يستحيل أن ينفع معه إنذار أو يصل يوماً إلى إيمان؛ لأن الإيمان يتوقف على حرية الفكر والتبصر والخروج من السجون الروحية المغلقة.

وبعضهم ذهب إلى أنه عطف على الآية الأخيرة أي قوله سبحانه: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[٣] وهذا يؤكد السد المنهجي الذي يمنعهم من الإيمان ولا تنافي بين القولين من حيث النتيجة.

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٠؛ وانظر سورة الروم: الآية ٥٢.
(٢) سورة يس: الآية ٧٠.
(٣) سورة يس: الآية ٩.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: منهج الإيمان ومنهج الإلحاد

قد يرد سؤال يقول: أليس الباري عز وجل أرسل الأنبياء والرسل لأجل هداية البشر إلى الإيمان؟ فلماذا نفى عنهم الإيمان وكشف عن استحالة إيمانهم؟ ولم يعطهم الفرصة ويدعو إلى مزيد الهداية والإقناع علهم يؤمنون؟ إذ قال سبحانه: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ﴾(١).

والجواب: تحدثت عنه الآيات السابقة وأشارت إلى أنّ هؤلاء بإرادتهم أخرجوا أنفسهم من الإيمان حتى صار الكفر طبيعة ثانية لهم ومثلهم لا معنى لاعطائهم الفرصة لأنه لغو، بخلاف غيرهم ممن يريد الإيمان ويذعن لدلائله إن توفرت لديه.

فإنّ غير المؤمنين قسمان: قسم لا يريد أن يؤمن وهم المعاندون وأمثالهم لا يهتدون مهما تحاشدت الأدلة وتواترت الفرص، وقسم يريد أن يؤمن ولكن لا يعرف طريق الإيمان وهم الذين يستحقون الأمهال والسعي لهدايتهم، وهذه قضية هامة جداً ابتلي بها الكثير من الناس،

---

(١) سورة يس: الآية ١٠.

وبعضهم صار ملحداً لأنه لا يعرف كيف يهتدي إلى الإيمان ولهذا النوع من الناس نقول: لقد جعل الباري عزّ وجل العقل ميزان الإعتقاد، وجعل للعقل طريقين للإيمان هما:

التدبر في الآيات الآفاقية والتدبر في الآيات الأنفسية، فكل من يريد أن يؤمن فإنّ أسرع الطرق لوصوله إلى الإيمان هو النظر في آيات الوجود بأفلاكه وبحاره ومحيطاته وحيواناته وأرضه وسمائه وكل ما في الوجود. فإنّ التفكير في مظاهرها وأسرارها وآيات العظمة فيها لابد وأن يقود صاحبها إلى الإيمان؛ لأن الإنسان بوجدانه وفطرته وعقله يدرك ثلاثة أمور:

الأول: استحالة حدوث الأشياء من دون محدث.

الثاني: أن عظمة الأشياء وعلو الحكمة والجمال فيها كاشفة عن عظمة المُحدِث وبلوغ حكمته وجماله؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

الثالث: أنّ التأمل في نفس الإنسان من حيث حياتها وشعورها وفكرها وانفعالاتها وإرادتها واختيارها وحبها وبغضها فضلاً عما في البدن من أعضاء وحركات وخلايا ووظائف وأنسجة في غاية الدقة والعظمة والحكمة يوصله إلى حقيقة الخالق الذي صنع كل هذه الأشياء؛ لأنه يدرك بوجدانه أنه بنفسه لم يصنع هذه الأشياء، ويستحيل أن تكون قد حدثت صدفة وبلا سبب، ويستحيل أن يكون السبب بلا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا جمال؛ لأن الذي أبدع كل هذا الجمال والعظمة في الخلق لابد وأن يكون متصفاً بها.

فالذي يريد أن يصل إلى الإيمان بأسرع طريق فإن أيسر سبيل وأصدق منهج هو النظر في الآيات الآفاقية والأنفسية كما يقول تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1] والنكتة اللطيفة في الآية الفعل المضارع مع السين و(حتى) التي تفيد الغاية، فإنّ ذلك يدل على أنّ النظر إلى الآيات في الآفاق والأنفس يوصل إلى الحقيقة حتماً في كل زمان ومكان ولكل شخص، ولا يحتاج ذلك إلى مستوى علمي عميق أو قوة تفكير أو استدلال، بل المسألة وجدانية بديهية ولا تحتاج إلّا إلى أمرين:

أحدهما: النظر عن إرادة لمعرفة الحقيقة، ولعل الإرادة تكون سبباً للتوفيق في بلوغ الغاية، ولذا نسبت الإرادة إلى الباري عزّ وجل، وهو يؤكد ما ورد في بعض الأخبار «من تقرّب إليَّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب مني ذراعاً تقرّبت منه باعاً، ومن أتاني مشياً أتيته هرولة»[2]، فكل من أراد معرفته سبحانه عرّفه نفسه ولم يحرمه ذلك، وهذه نعمة عظيمة تدل على غاية اللطف والرحمة الإلهية بالعباد.

ثانيهما: أن يكون التفكير في الآيات وهي العلامات والدلائل على وجود الخالق وعظمته وصفات جماله وجلاله، فمنهج المعرفة الإلهية يبدأ من الآيات الإلهية مع إرادة المعرفة عن تواضع واستعلام لا تكبر وتعنت، فكل من نظر بهذا المنهج فإنه لابد أن يصل إلى المطلوب، فالبعض حيث ضل طريق التفكير وفقد المنهج أنكر الخالق ووقع في الإلحاد، والسبب في

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) عوالي اللآلئ: ج١، ص٥٦، ح٨١؛ وانظر البحار: ج٨٤، ص١٩٠، ح٥.

ذلك يعود إلى ضلالته عن منهج التوحيد ووقوعه في منهج الإلحاد، وهذا المنهج يقوم على ركنين:

الأول: الاعتماد على الشكوك والظنون والاستغناء بوساوس النفس وظنونها في معرفة الخالق، وواضح أنّ النفس الجاهلة التي تقصر عن معرفة الكثير من الأمور المحسوسة كيف لها أن تدرك حقيقة الأمور الغيبية غير المحسوسة؟

الثاني: بدلاً من التفكير في آيات الخالق في الآفاق والأنفس يمعن التفكير في ذات الخالق، وواضح أن إدراك هذه الحقيقة مستحيل للقصور في العاقل لا في المعقول، فلذا كلما يمعن الإنسان في التفكير في ذات الخالق يزداد بعداً منه؛ لأن العجز والقصور هذا شأنه، ولنضرب لهذا مثالاً:

لو سئل الإنسان عن أقرب شيء إلى نفسه فلا شك يقول نفسي وروحي، وهذا أمر يدركه بالوجدان، ولكن لو سئل ما هي حقيقة روحك؟ فإنه سيعجز عن الجواب، ولا زالت البشرية عاجزة عن معرفة كنه الروح، بل لو سئل ما هي المشاعر والأحاسيس فيه؟ ما هي لذته؟ وما هو ألمه؟ وكيف يحب ويبغض؟ وكيف يتعلم ويفّكر؟ هذه الأمور يدركها الإنسان ولكن إدراكه لها ليس من باب إدراك حقيقتها؛ لأنه لا يستطيع أن يدرك هذه الحقائق، بل يدركها بآثارها، فحيث يدرك أنه حي يشعر ويحس ويحب ويبغض ويريد ويكره يدرك أنه كذلك يعرف انه يمتلك هذه الملكات، ولكن مهما أراد الوصول إلى معرفة كنه هذه الحقيقة فإنه لا يصل إلى نتيجة.

هذا إذا أراد أن يفكر في أقرب الأشياء إليه. ترى كيف يدرك حقيقة الخالق تبارك وتعالى ويتوصل إلى كنه حقيقته وصفاته؟ ولو أراد أن يدخل في هذا المدخل العميق فإنه لا شك يضل؛ إذ تجتمع عليه ثلاثة أسباب للضلالة:

الأول: القصور الذاتي.

الثاني: شكوك وظنون النفس.

الثالث: وسوسة الشيطان وتضليله له.

فكل من أراد الخوض في معرفة حقيقة الخالق ضل. هذا النهج والتفكير لا شك يوصل أهله إلى الكفر والإلحاد؛ لأن صاحبه يتيه ويشبِّه الخالق بخلقه في الذات والصفات والأفعال فينكره لما يرى فيه من النقص.

ولذا وردت الروايات الشريفة وتواترت في إرشادها لطالبي الحقيقة والتوحيد بأمرين:

أحدهما: أن لا يفكروا في ذات الخالق، بل يفكروا في مخلوقاته سواء ببرهان الحدوث الذي ينتقل فيه المستدل من الحادث إلى المحدث، أو ببرهان النظم الذي ينتقل فيه المستدل من الإحكام والنظم في الخلق إلى وجود المنظِّم الحكيم، فعن الباقر عليه السلام: «تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلّا تحيّراً»[1] وعن الصادق عليه السلام: «من نظر في الله كيف هو؟ هلك»[2].

(١) الكافي: ج١، ص٩٢، ح١؛ وانظر توحيد: ص٤٥٤، ح١.

(٢) الكافي: ج١، ص٩٢، ح٥؛ المحاسن: ج١، ص٢٣٧، ح٢٠٨.

ثانيهما: أن لا يشبِّه المستدل الخالق بخلقه، فمهما وصف الإنسان ربه وأعطاه من الصفات تبقى محدودة بالقياس إليه سبحانه، وهذه حقيقة برهانية يقضي بها العقل، وهو استحالة إحاطة المحدود باللامحدود، فكما أنّ الطفل الصغير يستحيل أن يدرك معادلة رياضية أو كيمياوية شائكة، والجاهل بأي علم يستحيل أن يدرك مسائله المعقدة قبل الدراسة والمعرفة، فإن الإنسان الجاهل القاصر الذي لا يحيط بعالم الغيب يستحيل أن يدرك حقائقه، فلابد له من أن يستعين بمن اتصل بعالم الغيب وعرف حقيقته وهو النبي والإمام عليهما السلام، ولو أراد الوغول بنفسه ضل، وقد ضل في هذا الطريق الكثير ممن كانوا يتصورون أنفسهم عباقرة، وتمتعوا بقدرة عالية في التفكير من العرفاء والحكماء بقسميهم الإلهي والمادي الإلحادي، فما وصلوا إلى مكان لأنهم قاصرون عن إدراك أنفسهم وهي بين جنبيهم فكيف يصلون إلى إدراك حقيقة الخالق؟ هذه مسألة لو التفت إليها بعض المتورطين بمشكلة الإلحاد وشبهاته سيتخلصون منها، ولذا تؤكد الوقائع أن الإنسان كلما ازداد علماً ومعرفة ونما فكره وعقله ازداد إيماناً وخضوعاً لخالق السماوات والأرض، وكلما ازداد العلم تطوراً اقترب إلى الإيمان أكثر، والذين ينكرون ويلحدون يجهلون أو يغفلون عن أبسط حقائق الوجود، وهو أن العالم فيه بعدان: مادي ومعنوي، والإنسان يدرك ما هو محسوس، وهناك عالم أعظم وأقوى لا يحس بالحواس وإنما يدرك بالعقول والقلوب هو عالم الغيب، لكن الملاحدة يحصرون العالم بالمحسوسات فقط، وينكرون كل ما هو غير محسوس، وهذا مهواهم العلمي؛ لأن الكثير من حقائق الوجود غير محسوسة مثل الفكر والحب والعقل وهم يعيشونها ويدركونها،

وأخطؤوا إذ تصورّوا كل ما ليس بمحسوس فهو غير موجود، بل خالفوا قواعد العلوم وأسسها، وهذا ما تؤكده الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام الذين اطلعوا على عالم الغيب وخبروا حقائقه، ففي رواية يونس بن ظبيان قال: دخل رجل على أبي عبد الله عليه السلام قال: أرأيت الله حين عبدته؟ قال له: ﴿ما كنت أعبد شيئاً لم أره﴾ قال: فكيف رأيته؟ قال: ﴿لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُدرك بالحواس، ولا يُقاس بالناس، معروف بغير تشبيه﴾[1] وقريب منه ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام[2].

إذاً الهفوة العلمية والمنهجية التي وقع فيها الملاحدة هو أنهم قالوا كل محسوس موجود، وكل غير محسوس غير موجود، ثم أرادوا إدراك الحقائق الغيبية بالحس من خلال مداركهم القاصرة، مع أن العلم يقول: إن المدركات قسمان: محسوسة وغير محسوسة، والمحسوس يدرك بالحس مثل الأشياء المادية. أما الأشياء المعنوية مثل العلم والشجاعة والفرح والإيمان غير محسوسة فلا تدرك بالحس، بل بآلة إدراك مسانخة لها وهي القلب والعقل.

فكما أنّ العين تبصر، فالقلب والعقل يبصران، ولكن كلًّا منها يبصر ما يناسبه، فليس من المنطق ولا من العلم أن نسعى لمعرفة الشيء غير المحسوس بالآلة الحاسة، فإن الحاسة قاصرة، مثله مثل من يريد أن يبصر

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٧٦؛ البحار: ج٤، ص٣٣، ح١٠.

(٢) الكافي: ج١، ص٩٧- ٩٨، ح٦؛ التوحيد: ص١٠٩، ح٦.

الاشياء بالأذن لا بالعين، أو يريد أن يسمع الأصوات بالعين لا بالأذن. إن لكل شيء طريقاً وآلة لمعرفته، فالماديات طريقها العين والرؤية والحس، أما المعنويات فطريقها القلب والعقل.

وهنا حقيقة أخرى يشير إليها الإمام الرضا عليه السلام، فقد روى الطبرسي في الاحتجاج عن محمد بن عبد الله الخراساني خادم الإمام الرضا عليه السلام قال: دخل رجل من الزنادقة - الملاحدة - على الرضا عليه السلام وعنده جماعة فقال له أبو الحسن عليه السلام: ﴿أرأيت إن كان القول قولكم - وليس هو كما تقولون - ألسنا وإياكم شرعاً سواء، ولا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟﴾ فسكت، فقال ابو الحسن عليه السلام: ﴿وإن يكن القول قولنا - وهو كما نقول - الستم قد هلكتم ونجونا﴾ قال الزنديق: رحمك الله فأوجدني كيف هو وأين هو؟ قال: ﴿ويلك! إن الذي ذهبت إليه غلط - خطأ المنهج - هو أيّن الأين وكان ولا أين وهو كيّف الكيف وكان ولا كيف، ولا يعرف بكيفوفيّة ولا بأينونيّة، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء﴾ قال الرجل: فإذاً إنّه لا شيء إذ لم يدرك بحاسة من الحواس، فقال أبو الحسن عليه السلام: ﴿ويلك! لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيّته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنّه ربنا، وأنّه شيء بخلاف الأشياء﴾.

قال الرجل فأخبرني متى كان؟ قال أبو الحسن عليه السلام: ﴿أخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان؟﴾ قال الرجل فما الدليل عليه؟ قال أبو الحسن: ﴿إنّي لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول، ودفع المكاره عنه، وجر المنفعة إليه، علمت أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررت به

مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات علمت أنّ لهذا مقدراً ومنشئاً﴾ قال الرجل: فلم لا تدركه حاسة البصر؟

قال: ﴿للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الابصار منهم ومن غيرهم، ثم هو أجل من أن يدركه بصر، أو يحيط به وهم، أو يضبطه عقل﴾.

قال: فحدّه لي. قال: ﴿لا حدّ له﴾ قال: ولِمَ؟

قال: ﴿لأنّ كل محدود متناه، وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزئ ولا متوهم﴾ إلى آخر المحاججة[1].

وبهذا يوضح الإمام عليه السلام خطأ المنهج الإلحادي في التفكير، وأنّه يقوم على قصور علمي وواقعي ينكر أكثر من نصف العالم لأنه غير محسوس، ثم يجعل نفسه محور الحس والمعرفة مع أن الحواس كثيراً ما تخطئ وتعجز عن الإيصال إلى الحقيقة، ويؤكد أنّ مصدر المعرفة ليس الحس والتجربة فقط، ولا العقل فقط كما يراه الحكماء، ولا الحس والعقل فقط، وإنما مصادرها ثلاثة هي الحس والعقل والوحي، وطريق المعرفة ينطلق من المحسوس ليدرك ما وراء المحسوس، ثم يأخذ التفاصيل والحقائق من الوحي، فالحس يوصل الإنسان إلى المخلوق، والعقل إلى الخالق، والوحي إلى صفات

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص١٧٢؛ وانظر التوحيد: ص٢٥٠، ح٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٢٠، ح٢٨.

الخالق وجماله وجلاله، وعلى هذا الأساس قامت نظرية القرآن في تعريف الناس بالخالق تبارك وتعالى.

إذا اتضح الفرق بين منهج التوحيد ومنهج الإلحاد في التفكير يتضح لماذا حكمت الآية على هؤلاء بأنه سواء أنذرتهم أم لا تنذرهم لا يؤمنون، والسبب هو أنهم سدوا عليهم منافذ الفكر، وسجنوا أرواحهم وعقولهم وأبصارهم عن الفكر، واتبعوا نهج الغفلة والعناد، وهذا النهج هو سد منهجي مقدماته تبدأ من الغفلة والعناد والمكابرة، ونتيجته الكفر والبقاء فيه؛ لاستحالة الإيمان على من لا يريد الإيمان ومن لا يتبع نهجه.

اللطيفة الثانية: الجاهلية المعاصرة والعودة إلى الله

أنّ الآية قالت: ﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1] ولم تقل: (أم لا تنذرهم لا يؤمنون) فاستعملت (لم) لنفي الإيمان ولم تستعمل (لا) مع أن كليهما نافيان، ولعل الغاية من ذلك بيان استحالة قبولهم للإنذار، فإن (لم) تفيد مساواة حالتهم قبل الإنذار وبعده، فهم قبل الإنذار كانوا جاحدين ويعيشون الجاهلية وكذلك بعده.

ومعنى ذلك أنهم ظلوا جاهلين، ولكن النكتة الفارقة لها عن (لا) أنّ (لم) تفيد أنهم استمعوا ولم يؤمنوا. أما (لا) فهي أعم، أي لم يحصل لهم الإنذار حتى يؤمنوا.

---

(١) سورة يس: الآية ١٠.

وباختصار: أن (لم) تفيد حصول الإنذار واستحالة التأثير به، وهذه الاستحالة ليست ذاتية حتى يكون التكليف بالإنذار من التكليف بغير المقدور، بل من الاستحالة العرضية الناشئة من الموانع التي هم أوجدوها في أنفسهم حتى تلوثت قلوبهم وأرواحهم وصار الكفر والجحود طبيعة لهم، ومن كانت هذه صفته تعمى فطرته، وربما ينقلب ميزانها فترى الكفر ولا ترى الإيمان فيستحيل اهتداؤها.

وتوضيح ذلك: أن الهداية إلى الإيمان قسمان: هداية فطرية وهداية نظرية، والأولى تتحقق بصدق النية وإرادة الهداية، فإن فطرة الإنسان وحدها تهديه إلى الخالق، والثانية تتحقق بالنظر والاستدلال بالتدبر بالآيات الآفاقية والانفسية وحيث إنّ عناد هؤلاء القوم وغفلتهم أطفأ فطرتهم وصير الكفر والجحود طبيعة لهم فإنهم لا يهتدون بها.

كما أنهم لا يريدون معرفة الحقيقة فلا يسمعون لقول الأنبياء، ولا ينظرون في آيات الله سبحانه، ولا يتدبرونها، ولو حاورهم أهل الإيمان وأقاموا لهم الأدلة فإنهم في الغالب يتخذون موقفين:

الأول: يستمعون ما يقوله أهل الإيمان ولكنهم لا يسعون لتفهم ما يقولونه وما يعرضون من أدلة وبراهين بروح موضوعية وحيادية حتى يقودهم إلى الإيمان، بل ينظرون بروح سلبية وذهنية مشوبة بالشكوك والأوهام لأجل زعزعت الدليل والتشكيك فيه والتشويش عليه، وهناك فرق كبير بين من يستمع للبرهان لأجل أن يعتقد بصحته لو كان صحيحاً، وبين من يستمع لأجل رده وإبطاله، والذي يقود إلى الهداية هو الأول لا الثاني.

الثاني: لا يستمعون ويغلقون أبواب عقولهم وقلوبهم لكيلا يفهموا شيئاً، وهذه من أبرز صفات الجهل والجاهلين، وقد روى بعض أهل السيرة أنّ أبا جهل جاء في ليلة متخفياً يستمع قراءة النبيﷺ للقرآن، وفي الوقت نفسه جاء أبو سفيان والأخنس بن شريق - وهو من المذمومين الذين نزل قرآن في ذمهم - (١) ولا يشعر أحد منهم بالآخر، فاستمعوا إلى الصباح، فلما فضحهم الصبح تفرّقوا فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ما جاء به؟ ثم تعاهدوا أن لا يعودوا؛ لخوفهم من علم شبّان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظاناً أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق مرة ثانية فتلاوموا، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني - يا أبا حنظلة - عن رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: يا أبا ثعلبة! والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم! ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد المناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحمّلوا - أي أعطوا الناس ما يركبونه - فحمّلنا، وأعطوا

---

(١) انظر تنقيح المقال: ج٨، ص٣٠٦، الرقم (١٧٦١).

فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنّا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه(١).

وفي رواية أخرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لقي أبا جهل، فصافحه أبو جهل، فقيل له في ذلك، فقال: والله إنّي لأعلم أنّه صادق، ولكنّا متى كنا تبعاً لعبد مناف(٢)!!

وفي رواية ثالثة التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم! أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ههنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا؟

فقال أبو جهل: ويحك! والله إنّ محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟(٣)

وفي ذلك دلالات هامة وكثيرة، وهي شاهدة على أنّ الذين لا يؤمنون يقودهم عنادهم إلى ذلك، وعنادهم ينشأ من حب الرئاسة والزعامة أو الغرور والعجب والعصبية، وهذه الظاهرة ذاتها تحكم في جميع العصور والأجيال، وأهل الكفر والعناد يقرون في أنفسهم ويكابرون على الحقيقة

---

(١) تفسير الأمثل: ج٤، ص٢٦٣، تفسير الآية ٣٤ من سورة الأنعام.

(٢) مجمع البيان: ج٤، ص٤٢، تفسير الآية ٣٤ من سورة الأنعام.

(٣) مجمع البيان: ج٤، ص٤٢ ـ ٤٣، تفسير الآية ٣٤ من سورة الأنعام.

بل ويخططون ويعملون لمحاربتها، وقد حكى الباري حالتهم هذه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[١].

فالمنطق الذي يؤمنون به هو الغلبة والانتصار على الإيمان، وهو الذي أظهره أبو جهل، ومنشأ هذا المنطق هو العناد والمكابرة، فما يضرهم لو آمنوا؟ وما يضرهم لو استمعوا للقرآن إلى ماذا يدعوهم؟ أليس إلى سعادتهم ونجاتهم من العذاب؟ لكنهم لا يريدون، فلذا لا يسمعون، ولو سمعوا يلغون فيه.

وقد ورد في بعض الأخبار أن النبيصلى الله عليه وآله حينما كان يتلو القرآن بصوته الملكوتي الرباني ويمتلك القلوب فكان المشركون يبعدون الناس عنه، ويأمرون أتباعهم بإطلاق الصفير ورفع الأصوات بالشعر حتى لا يسمع الناس كلامه[٢]، ووصفت الآية هذا الأسلوب باللغو للإشارة إلى كل ما لا ينفع من القول والعمل، ومظاهره كثيرة:

منها: اصطناع الضجيج والفوضى في الأقوال والأفكار ليضيع الحق.

ومنها: اصطناع القصص والروايات الكاذبة والخرافية لأجل انشغال الناس بها فلا يستمعون إلى قصص القرآن.

ومنها: ترويج الشعر الفارغ الذي يستخدم إثارة الشهوات، وينشر الأكاذيب والأباطيل، ومثله الغناء والأفلام والبرامج التي تحرق أوقات الناس وتضيعها بلا فائدة.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص١٩ ـ ٢٠.

ومنها: اصطناع الأفكار الفارغة وترويج الأبحاث التي إذا لا تضر فإنها لا تنفع لصرف اهتمام العقلاء وأهل النظر إلى ذلك، وهذه كانت واحدة من أسباب انتشار الغناء والشعر الغزلي والأفكار الفلسفية في المجتمع المسلم، واليوم نجد الكثير من الوسائل الاعلامية والدراسات والأعمال التي يعبرون عنها بالفنية تخدم هذا الغرض، ومحصلتها إحراق عمر الإنسان وفكره بالتوافه، وصرفه عن الفكر الخلّاق الذي يبني به نفسه ومجتمعه، وإبعاده عن القرآن والفكر الصحيح.

لاحظوا مثلاً ما يحصل في شهر رمضان من برامج تعرض على الفضائيات ونحوها - الشهر الذي خصصّه الباري عزّ وجل للدعاء والعبادة وتزكية النفس والاستماع إلى الذكر والموعظة - كم عبؤوه بالبرامج التافهة والأفلام الفارغة التي تشبع فضول الإنسان، وتفرغه من محتواه، وتنسيه غايات الصوم وآثاره حتى أصبح الصوم بالنسبة للكثير مجرد وظيفة يؤدونها في الجوع والعطش وانتهى.

أما الغايات الأصلية للصوم صيّروها في خبر كان، وبعض المسلمين يمشون بهذا النهج وهم لا يعلمون أنهم يخدمون أغراض الجاهلية الحديثة التي تعمل ليل نهار لأجل هدم الإسلام وتضييع المجتمع المسلم وتحطيم حضارته.

لماذا كل هذا الضجيج واللغو؟ وما هي الأهداف لأجل أن لا يستمع الناس للقرآن ولا لمضامينه ولا يتعلموا منه الحياة وبناء الذات والمجتمع؟

وللأسف لا زال بعض الناس غافلاً غير ملتفت إلى هذه الحقيقة، بل بعض المتأثرين بالجاهلية الحديثة يتصورون أن الدين هو أساس فشلهم وهزيمتهم وليس الخطط والأساليب المعادية وابتعاد المسلمين عن دينهم، فإذا كان الدين هو أساس الفشل فلماذا تقدم المسلمون في العصور الأولى؟ ولماذا علّم المسلمون الأمم العلم والصناعة وفنون الزراعة والأدب والطب والهندسة مع أنهم كانوا أكثر قرباً من الدين؟ فلابد للمسلمين من أن ينتبهوا ويفيقوا من الغفلة ويعرفوا أن أساس النجاة هو الرجوع إلى القرآن والعترة والعمل بأفكارهما وأحكامهما. هذا هو طريق النجاة، فلا ينخدعون بالضجيج واللغو الذي يصطنع لأجل تضليلهم وخداعهم، ولا يتبعون طريقاً آخر غير طريق القرآن والعترة؛ لأنه الطريق الذي عيّنه النبيﷺ وقال: «ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا»[1].

والخلاصة: أن الجاهلية القديمة والحديثة كلتاهما اتبعتا ذات النهج لأجل تحريف الحقيقة وتضليل الناس لكيلا يستجيبوا لنداء الحق وصوته، ومن سار في هذا النهج وقع في السد المنهجي الذي يبعده عن الحق.

وهنا يظهر السر في الأمر بالإنذار وإن كانوا لا يؤمنون.

---

(١) الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص٢٠٤، ح٣٣٦٠٨؛ قرب الإسناد: ص١٧، مقدمة التحقيق.

اللطيفة الثالثة: لماذا أنذر من لا يستجيب؟

قد يقول قائل: أن الآية نصت على أن الإنذار لا ينفع معهم، فلماذا أمر النبي صلى الله عليه وآله بإنذارهم، وفي الآيات السابقة حصرت مهمة النبي صلى الله عليه وآله بالإرسال والإنذار فأليس هذا من التناقض أو اللغو؟

والجواب: لا محذور في ذلك لوجود فوائد وحكم عظيمة تستدعي الأمر بالإنذار:

الفائدة الأولى: إقامة الحجة على المعاندين؛ لأنّ الإنسان عند الفشل والسقوط يلتمس الأعاذير لنفسه، ويسعى لإيقاع اللوم على الغير، لاسيما في وقت الحساب والعقاب، فلو لم يأمر الباري سبحانه النبي صلى الله عليه وآله بالإنذار لتعللوا ساعة احتضارهم التي تبدأ بها قيامتهم، ثم في القبر، ثم في الحشر بأننا لم نؤمن لأنك لم تبعث منذراً.

فبلّغهم لكي يسقط العذر عنهم، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**﴾ ولم يقل (وسواء عليك) أي هم باختيارهم ينهجون سبيل العناد واللجاجة فيضلون أنفسهم، فالإنذار واجب على النبي صلى الله عليه وآله لكن هم سواء أنذروا أو لم ينذروا لا يؤمنون، لذا يقول تعالى في آية أخرى: ﴿**فإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾[(١)] وهذا ما بيناه سابقاً من وجود منطقين للتعامل مع الأحداث: منطق الوظيفة والحجة ومنطق النتيجة والثمرة، وفي أمور الدين والتدين يجب أن يؤخذ بالمنطق الأول،

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٠.

وأما في أمور الدنيا فيؤخذ بالثاني، وفي الأمور التي يراد جمع الدين والدنيا يجب أن يؤخذ بالمنطقين معاً.

الفائدة الثانية: بيان الحق ونصرته، وبيان الباطل وهدمه، فإنّ هذه من القضايا الحقوقية الواجبة، فعلى الإنسان أن يعرف الحق وينصره، ويعرف الباطل ويهدمه، فمن حق الحق أن يعرف ويتبع، ومن حق الباطل أن يهدم، وهذان الحقان ثابتان في الواقع ومتن الأمر سواء انتصر الحق أم لا، فلا ينبغي أن يفكر الإنسان في مدى الاثر الذي يترتب على موقفه وأنه ينفع أو لا ينفع، فإنه إذا لا ينفع مع المخاطبين فإنه ينفع مع غيرهم، وكم من حقيقة أنكرها الآباء ثم صدقها الأبناء؟ وأكثر النبوات والرسالات السماوية صبرت وصابرت وكان الآباء يستهزئون بها، ثم انتصرت بالأبناء حتى قال سبحانه: ﴿**يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ**﴾[1] ولكن عدم إيمان الآباء لم يكن يمنع الأنبياء في البيان والنصرة؛ لأن البشر يتقلب ويتغير، والأيام والسنون تتبدل، وتلك الأيام نداولها، فربما يكون جيل الآباء جاحداً منكراً إلّا أن جيل الأبناء يكون مؤمناً، ومن هنا قسموا المواقف على قسمين: مواقف يراد بها الانتصار وتحقيق الغايات، ومواقف تأريخية يراد بها تسجيل هذه الحقيقة للتأريخ، وهذه لا يُلحظ فيها بلوغ النتائج بل بيان الحقيقة.

الفائدة الثالثة: تحصيل القرب والثواب، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله المنذر يؤجر على تبليغه ويثاب، ويزداد قرباً من ربه وإن لم يؤمن الناس، وهناك مقامات

---

(١) سورة يس: الآية ٣٠.

معنوية لا تنال إلّا بالمشقة والمعاناة. يقول الباري عز وجل: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا**﴾[1] فالصبر والتحمل والجهد والجهاد من أهم طرق القرب من الله سبحانه، ويزداد أجره ومقامه كلما اشتد المنكرون في عنادهم وايذائهم؛ لأن الأجر على قدر المشقة.

وهذا ما يقره البرهان أيضاً؛ لأنّ الإنسان مطوّق بحقين: حق الله سبحانه عليه في أن يؤمن به ويطيعه ويسمّى بحق الربوبية، وحق العبودية وهو عليه أن يدعو الآخرين إلى الإيمان والطاعة، وأن يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ذل العصيان إلى عزة الطاعة. هذان الحقان يوجبان على المؤمنين الإنذار والتبليغ بغض النظر عن النتيجة؛ لذا الأنبياء دعوا وبينوا وقتلوا وصلبوا ولم ينفع نصحهم مع الكثير من الناس لكنهم استمروا؛ لأن التبليغ والصبر له فائدتان: فائدة تعود على نفس النبي صلى الله عليه وآله بالارتقاء إلى مراقي الكمال والاكتمال وبلوغ مراتب القرب من الله سبحانه، وفائدة هداية الناس، فإذا كان الناس معاندين فلم يؤمنوا فإن النبي صلى الله عليه وآله يبلغ الغايات والمراتب المعنوية العالية، وهذه تبطل اللغوية.

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: قواعد تنظيم السلوك الإجتماعي

بدلالة الآية ولطائفها يبطل القرآن مبدأين خاطئين حاكمين في حياة الناس.

المبدأ الأول: مبدأ الأنا الذي يحكم حياة الناس والتخلي عن المسؤوليات الاجتماعية، فلا يعالجون خطأ اجتماعياً، ولا يرشدون جاهلاً، ولا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر، ولا ينصرون مظلوماً ويردعون ظالماً من منطلق: (مالنا والدخول بين السلاطين) وفي المثل الدارج: (لا يخصني الأمر) أو: (هذه ليست مشكلتي) فإن الشرع يبطل مثل هذا المبدأ، ويحمل الإنسان المسؤولية الاجتماعية؛ لذلك يبني جملة من الأحكام على خمس قواعد هامة تنظم السلوك الاجتماعي للمسلم هي:

١. وجوب تنبيه الغافل.

٢. وجوب إرشاد الجاهل.

٣. وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤. وجوب النصيحة للمسلمين.

٥. وجوب التعاون على البر والتقوى وحرمة التعاون على الإثم والعدوان.

وهذه القواعد تحمِّل كل فرد في المجتمع المسؤولية الإنسانية والشرعية تجاه الآخرين.

ولو أهمل الإنسان هذه الوظائف من منطلق (لا يخصني) كان آثماً، وسيحاسب على ذلك؛ لأنّ الأضرار العامة تعم، كما أن المنافع تعم؛ لذا يقول سبحانه: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾(١) فلا يتصور البعض حيث لا يردع عن الظلم ولا ينصر المظلوم ولا يرشد الغافل ولا يأمر بالمعروف بأنه سيكون في منجى فيقول (لا يخصني) بل الأمر يخصه وسيصله ضرره عاجلاً أو آجلاً.

المبدأ الثاني: ما يقوله بعض أهل القانون الوضعي: إن القانون لا يحمي المغفلين، فإن هذا مبدأ يتنافى مع المبادئ الإنسانية، وينقض غرض القانون؛ لأنّ الحق حق يجب أن يعطى لأهله مغفلين كانوا أو عالمين، وإلاّ بطلت غاية القانون والقضاء والمحاكم؛ لأن العدالة فوق الجميع. **هذا أولاً**.

وثانياً: أنّ القانون يجب أن يحمي المغفلين أولاً؛ لأنّ المغفل الجاهل هو الذي ينبغي أن تحمي الدولة والقانون حقوقه؛ لأنه جاهل لا يعرف كيف يحمي حقه، وإلّا صارت العدالة للقوي، وأما العالم فإن علمه يكفيه لحماية حقه.

فالآية المباركة حيث أمرت بالإنذار وإن لم يستجيبوا تؤصل لمفهوم العدالة والحق والحجة فلا حساب ولا عقاب بلا بيان، وهذه واحدة من المزايا التي يتفوق بها القانون الشرعي على القانون الوضعي.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

التعليم الثاني: لا يأس مع الإيمان

تعلمنا الآية المباركة التفاؤل والأمل الدائم فلا يأس ولا تعب ولا كلل ولا ملل في أداء المهام والوظائف، فإن النجاح رهين الإصرار على المبدأ وقول الحق والعمل مهما كانت الموانع والعراقيل.

فإن الواقع قد يتغير والبشر يتقلب وتتبدل أفكاره ورغباته، وربما تتبدل ظروفه، وهذه واحدة من أهم قواعد السياسة والإدارة والتدبير، وهي أن الزمان والأحوال لا تستقر على حال، فلا ينبغي أن ييأس الإنسان أو يصاب بالخيبة، بل عليه أن يتفق مع هذه الحقيقة، وليعلم أنّ للوجود رباً يديره وينظم شؤونه، وهو عادل وحكيم ورحيم، فلو لجأ إلى الله بالدعاء وهو خير سلاح للأنبياء والمؤمنين وبه يتمكن أن يستعين على المكاره ويذلل الصعوبات ويبلغ النجاح، وقد دعا المؤمنين إلى الإيمان والعمل والدعاء، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

التعليم الثالث: الحق ينتصر

أن صاحب الحق ينتصر ولو بعد حين، ولكن عليه أن يدعو إلى حقه ولا يتنازل عنه أو يتهاون فيه، فلو حرم منه فإنه سواء ظلماً أو جهلاً يكون الحرمان مؤقتاً، وعلى كل تقدير عليه أن يعمل ويطالب بحقه وينذر ظالميه ويحذرهم من سوء العاقبة والمصير، فما ضاع حق وراءه مطالب.

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ
وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ

يس/ ١١

بعد أن نفى إيمان المنذَرين المعاندين وكشف عن عدم جدوى إنذارهم ذكر في هذه الآية من ينفع معهم الإنذار ويصل غايته، وهذا ما تقتضيه ضرورة الحكمة في البيان والضرورة التربوية، أي أن يصنف الناس صنفين: صنف معاند ومكابر لا يؤمن مهما حاول النبيﷺ هدايته، وصنف يؤمنون، وحدد لغير المؤمنين صفتين هما: العناد والمكابرة، وحدد للمؤمنين صفتين أيضاً هما: اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب، فالعناد في مقابل اتباع الذكر؛ لأن الاتباع يقتضي التواضع، وفي مقابل المكابرة خشية الرحمن بالغيب؛ لأن التكبر منشؤه الغرور والعجب والتعالي، بينما الخشية منشؤها الخضوع والمهابة والمحبة، وأداة الحصر (إنّما) تحصر فائدة الإنذار بالمتواضعين المحبين الذين يحترمون القيم ويخضعون لها.

هذا هو الترابط المنطقي بين هذه الآية والآيات التي سبقتها، وأما التفصيل فيتم عبر مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿الذِّكْرَ﴾

وهو في مفهومه اللغوي والعرفي يقابل الغفلة والنسيان فلو غفل الإنسان عما يعلم ثم التفت يقال ذكره، وإذا أخبر شخص الآخر بخبر يقال ذكر الخبر وإن كان المذكور له يعلمه؛ لأنّ العالم قد لا يستحضر ما يعلم دائماً فيكون غافلاً عنه أو ناسياً، فإذا أخبر به مرة أخرى يكون ذاكراً والمخبر مذكراً. هذا من حيث المعنى العام[(١)].

يطلق الذكر على معان عديدة لكونها مصاديقه التي بها يتحقق، وقد عد البعض منها عشرين مصداقاً[(٢)]. منها: ذكر اللسان ومنها العبادة، ومن هنا اختلف المفسرون في بيان المراد بالذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ وهم على أربعة أقوال: فقول ذهب إلى أن المراد مطلق الذكر الذي ينطبق على جميع معانيه[(٣)]؛ لأنّ الأصل حمل الألفاظ القرآنية على معانيها

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٢، (٩٤٦)؛ معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٣٥٨، (ذكر).

(٢) بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص١٣.

(٣) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٠٥.

اللغوية، وقد وقع اطلاق الذكر على هذا المعنى كثيراً في الآيات كما في قوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١] وينبغي أن يتقيد هذا المعنى بذكر الله سبحانه؛ لأنّ مطلق الذكر لا يتناسب مع معنى الآية.

وأكثرهم قال هو القرآن الكريم[٢]؛ لأنّ وجوده يذكر بالله سبحانه، ويدعو إلى طاعته، والآيات كثيراً ما وصفت القرآن بالذكر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣] وقال البعض: إنّه الفطرة الإنسانية؛ لأن من يتبع الفطرة تقوده إلى معرفة الله سبحانه، والمعرفة تقوده إلى خشية الله سبحانه[٤].

وقال البعض: إنّه أمير المؤمنين عليه السلام وسائر المعصومين عليهم السلام؛ لأنّهم خلفاء الله سبحانه في أرضه والمذكرون بآلائه ونعمه، وبه وردت بعض الأخبار[٥]، والحق أن هذه الأقوال ليست تفسيراً لمفهوم الذكر بل بياناً لمصاديقه ومراتبه، كما سيتضح في اللطائف.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٣٩؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٣٧؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٧١؛ تفسير الميزان: ج٢٢، ص٦٧؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٣٤؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٤٣؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص١٧٦.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

(٤) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٦.

(٥) الكافي: ج١، ص٤١٢، ح٩٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٦٥.

المفردة الثانية: (الخشية)

وهي الخوف بمهابة مع رجاء الخير في مقابل الخوف الذي يقع مع توقع الشر والألم. قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾[١] فذكر الخشية في جانبه سبحانه والخوف في جانب الحساب[٢]، فالخشية عند أرباب القلوب حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وحذف الحجب عنه ولذا عرفها بعض أهل اللغة بأنها خوف يشوبه تعظيم[٣]، ولا يدركها إلّا من عرف الحق تعالى وذاق لذة قربه، ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٤] والمراد العلماء به سبحانه الواقفون على باب معرفته، وتؤكد الوقائع أن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد معرفة وخشية، وكلما ارتقى العلم وتطور وصل وأذعن للخالق، والمنكرون والجاهلون يجهلون هذه الحقيقة فابتعدوا عنها.

وبعض العامة قرأ لفظ الجلالة بالرفع والعلماء بالنصب وحمل المعنى على أن الله سبحانه يجل العلماء ويعظمهم بالقياس إلى سائر الناس[٥]، وهو باطل؛ لمخالفته لصريح القرآن واعتماده على الاجتهاد في القراءة، وقد قامت

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢١.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢١٩، (٨٥٠).

(٣) مفردات الراغب: ص٢٨٣، (خشى)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٢٤، (خشى).

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٥) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢١٩، هامش (٤).

الأدلة على بطلان القراءات المتعددة للقرآن، فليس للقرآن إلّا قراءة واحدة هي ما وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد تعلقت الخشية في الآية (بالرحمن) وهو من أسمائه الخاصة به سبحانه، بل قيل إنه نظير لفظ الجلالة الله علم ثان له سوى أن لفظ (الله) سبحانه يدل على عظمته وجبروته، و(الرحمن) يدل على رحمته ورأفته، ولذا يقال الخوف من الله سبحانه ولا يقال من الرحمن؛ لأن الخوف يكون من جبروته حذراً من عقابه ونقمته؛ لذا يرد غالباً بعد ذكر لفظ الجلالة أو لفظ الرب، لأنه من التربية والتهذيب كما في قول هابيل لما أراد أن يقتله قابيل قال: ﴿**لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[1] فإن الخوف يكون في موقع الألم والعقاب والتربية والتأديب.

أما الخشية تكون من الرحمن لأنه من رجاء لطفه ورأفته، وحيث إن المقام مقام من دعته فطرته إلى معرفة الباري والإيمان به وتقبل الإنذار، واتعظ به فإن المعرفة والإيمان يقودانه إلى الخشية، ومن يخشى الله يرجو خيره وبركاته، وبهذا التعريف يظهر وجه الدقة في التعبير القرآني، وفي عين الحال يعلمنا إسلوب الخطاب والحديث مع الله سبحانه ومع الخلق، ولذا اشتهر المثل لكل مقام مقال.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٨.

المفردة الثالثة: ﴿الْغَيْبِ﴾

وهو كل ما انستر عن العيون، ويقال غابت الشمس أي استترت، ويطلق على كل حقيقة لا تدرك بالحس كالخالق عز وجل[(١)].

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾ فقال جماعة: بل المشهور هو وصف للخالق عزّ وجل وأحوال القيامة[(٢)]، وقال آخرون: هو وصف للعبد، والمعنى خشي الرحمن في حال غيبته واستتاره عن عيون الناس بخلاف الخالق[(٣)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٤، ص٤٠٠، (غيب)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦١٦، (غيب).

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٣٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٣٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٠٥؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٤٤.

(٣) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٢.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: مراتب الذكر

إنّ الآية المباركة حثت بالملازمة على أتباع الذكر، واطلاقه يشمل مراتب الذكر الأربع:

الأولى: ذكر النفس، ويبدأ من الفطرة.

الثانية: ذكر المنهج، وهو القرآن الكريم؛ لأنه يتضمن تعاليم الذكر وقوانينه.

الثالثة: ذكر العمل، وهو العبادة سواء بذكر اللسان أو القلب أو الطاعة.

الرابعة: ذكر المصداق، أي المصداق الذي يجسد حقيقة الذكر وجوهره وغايته وهو المعصوم عليه السلام، وهو خلاصة الذكر، وبه تجتمع آثاره وغاياته؛ لذا يكون الأعلى رتبة؛ لأن الفطرة تهدي الإنسان إلى الله سبحانه إجمالاً ولا توصله إلى الغايات التامة، والقرآن الكريم والعبادة يفتقران إلى المفسِّر والمبيِّن والمطبِّق، فالذكر في المرتبة الأولى والثانية والثالثة يحتاج إلى الرابعة، ولولاها لا يصل المطلوب؛ بداهة أن وجود المعصوم وكماله وجلاله وفعله وتقريره كله مذكّر بالله، وباعث إلى خشيته وعبوديته.

والباري عز وجل قدم نموذجاً للبشر أودع فيه صفات الجمال والجلال في العلم والأخلاق والقدرة والسماحة والعدل والرحمة هو النبي والإمام عليهما السلام

ليكونا مثال الإنسان الرباني، فكل ما فيهما هو ذكر لله سبحانه ومذكر به، ولذا يقوم عمود الإيمان على الولاية للمعصوم والطاعة له والاقتداء به، وقالت الآية: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ ولم تقل يؤمن بالذكر، أو يعمل به، بل يتبعه؛ لأن الاتباع يكون في العمل.

اللطيفة الثانية: ما هي مهمة الأنبياء؟

وصفت الآية خشية الرحمن بالغيب، وعدت الخشية بالباء دون (في) لأن في تفيد الظرفية فتتنافى مع المعنى؛ لأنها تعني حصول الخشية في الغيب وهو غير صحيح؛ لأن الإنسان ليس من الغيب بل في عالم الدنيا والشهادة فلا يناسبه إلّا الباء لتضمنها معنى الظرفية مع الخروج من الظرف؛ لأن الباء تفيد الظرف والإلصاق أيضاً، والملتصق بشيء يكون معه وخارجاً عنه، والتعبير بالباء لإفادة معنيين:

أحدهما: أن الإنسان يخشى الرحمن بالرغم من أنه غائب عن حسه قريب منه؛ إذ يدركه بقلبه وعقله بواسطة الفطرة والبرهان، وبهذا يظهر علو الإنسان المؤمن في مستواه حتى إنه يدرك الغيب ويعرفه ويؤمن به ويخشاه وإن لم يحسه بحواسه، بخلاف الملحد ونحوه الذي لا يؤمن إلّا بما يحس، وحيث إن الحس والمحسوس قاصران فيكون علم الملحد ومعرفته قاصرة.

ثانيهما: أنه يخشى الرحمن سواء كان في العلن أو في السر غائباً عن أنظار الناس، وهذه من أرقى صفات الكمّلين، إذ يتساوى ظاهرهم

وباطنهم وسرّهم وعلنهم، لا أن يتظاهر بوجه ويضمر وجهاً آخر، ويعلن عن واقع وهو يعيش واقعاً آخر، وهو أنسب بمقام الخشية؛ لأن من ذاق طعم حب الله وخشيته لا يكون بوجهين، بل بوجه واحد في حضوره وغيبته، وكلتاهما من علائم الإيمان وقوة اليقين؛ لأن الذي يخشى من هو غائب عن حسه لابد وأن يكون قد ارتقى روحياً وقلبياً حتى أدرك ما لا يرى وعرفه وذاق طعم عظمته وهيبته وجلاله، ومثله يخشى ربه وهو في سرّه واستتاره عن عيون الناس؛ لأنّه يدرك أنّه معه أينما كان، بخلاف المنافق فإنه لا يجد ربَّه معه وإنّما عيون الناس، فيتظاهر أمامهم بالحسنى، وإذا خلا لنفسه أظهر ما يخالف ذلك؛ ومن هنا يقع المنافق في الدرك الأسفل من النار؛ لأن طبيعة سجيته وعمله يرديه في أسفل دركات الجحيم، وعذابه أشد من الكافر؛ لأن الذي يبطن ما لا يظهر عذابه يكون في باطن النار، وهذه قضية عظيمة يظهر أثرها في صفاء الباطن وصدقه وتطابقه مع الظاهر، فإن تربية الذات وتصفيتها من الكدورات والنفاق والعادات السيئة من أهم عوامل ارتقاء الإنسان، وهي من أهم وظائف الأنبياء، لأن الأنبياء علموا البشر الصناعات والتجارات والزراعات، وعلموهم بعض ما احتاجوه في يومياتهم كالطباخة ولبس الثياب والنظافة، وعلم داود الناس صناعة الدروع ولبسها ليقل الدم، إلّا أن هذه مهمة اقتضتها الضرورة في وقتها، لكنهم لا يعلمون البشر الصناعة والالات ونحوها؛ لأجل أن يعتمد البشر على نفسه، وهو يمارس تجاربه ويتعلم ويرتقي؛ فإنّ الإنسان لا يرتقي إلّا بالعمل.

ولو فتح الأنبياء هذا الباب لتعذر غلقه، ولتعذر الإيمان على الكثير من الناس أليسوا طلبوا من النبيﷺ أن يطيروا في السماء.**هذا أولاً**.

وثانياً وثالثاً: لأنّ مهمة الأنبياء صناعة الإنسان وتربيته وتهذيبه لإعداده لحياته الأخروية؛ لأنه أساس البناء والتطور والارتقاء، فلو ارتقى الإنسان ارتقى كل شيء، ولو فسد فسد كل شيء، وليس من الحكمة أن يعلِّم الأنبياء الناس الأمور الجانبية التي يحتاجونها في حياتهم الدنيوية ولا يعلمونهم ما يحتاجونه في حياتهم الأبدية الخالدة، وليس من الحكمة أن يصنع الأنبياء للناس عوامل فسادهم كما نلحظه في بعض العلوم والتقنيات الحديثة التي أفسدت الإنسان وإن نفعته من جهات أخرى، والعاقل يهتم بالأصول ولا يهتم بالقشور لو دار الأمر بينهما؛ لذا يهتم الأنبياء بصفاء الإنسان وإكماله لا بقصره وسيّارته ورفاهه المادي وإن حظي ببعض الأهتمام منهم.

ومن أوليات هذه المهام يجعلون الإنسان ربانياً، ويكون كذلك إذا امتلك صفتين:

الأولى: اتباع الذكر أي اتباع الحق.

الثانية: أن يخشى الرحمن بالغيب فيكون رقيب نفسه.

والإنسان إذا كان هو رقيب نفسه استغنينا عن أجهزة الشرطة والقضاء والأمن ونحوها، واستغنينا عن مؤسسات الرقابة والتفتيش، واستغنينا عن السجون وكل ما من شأنه ان يراقب البشر ويفرض عليهم

السلوك الحسن، لأن الذي يخشى الرحمن لا يعتدي ولا يظلم ولا يخون ولا يتجاوز على حقوق الغير.

وهذه ميزة يختص بها الأنبياء والشرائع السماوية؛ لأنهم يصنعون الإنسان ويجعلونه رقيب نفسه، فلا يسيء ولا يظلم ولا يسرق ولا ينهب، بخلاف القوانين والتعاليم الأرضية فإنها تهتم ببدن الإنسان وارتقائه الصناعي ورفاهه المعيشي، ولا تجعل من نفسه رقيباً على نفسه، فاحتاجت إلى الملايين من أجهزة الأمن والرقابة والقضاء لأجل مكافحة الظلم والعدوان والفساد، وفي الواقع العالم واقع في دوامة الفساد والظلم والانحراف في جميع الأبعاد، ومهما كثّروا أجهزة الرقابة فإنّهم يجدون أن هذه الأجهزة هي الأخرى تحتاج إلى من يراقبها لكيلا تفسد وتظلم، فوضعوا المفتشين عليها، ثم احتاجوا إلى رقابة على المفتشين، وهكذا تتسلسل الرقابات، وكلها لا تحقق الغرض؛ لأن الأصل إذا لا يصلح لا تصلح الفروع.

ومشاكل الفساد ناخرة في الكيان الإنساني في دوله ومجتمعاته ابتداء من الرؤساء إلى أدنى المناصب سواء على الصعيد الشخصي أو النوعي مثل المنظمات العالمية أو المحلية.

ولو اهتموا بتربية الإنسان وإصلاحه وتهذيبه وصيّروه مؤمناً يخشى الرحمن بالغيب - ويكون ظاهره وباطنه واحداً - لاستغنوا عن كل هذه الأجهزة وجيوش الرقباء، ووفروا لبناء البلاد والعباد المليارات التي تصرف لهذا الشأن.

اللطيفة الثالثة: لماذا يستغفر المعصومون وما أثره؟

بشّر الباري الذين يخشونه بالغيب بالمغفرة والأجر الكريم، والبشارة هي الإخبار بالخير قبل أوانه، وفيها آثار معنوية كبيرة؛ لأنّ الذي يبشر يعيش الرجاء والأمل والطمأنينة والأمن، وهذه خصوصيات الشعور بالسعادة والراحة النفسية؛ لأنّ أكثر القلق والاضطراب والأمراض النفسية تنشأ من الخيبة واليأس والخوف، بل هذه الثلاثة منشأ الكثير من الأمراض، وقد أثبتت التقارير العلمية أن العالم اليوم يعاني من الأمراض الكثيرة والخطيرة، وأكثرها ليس بسبب نقصان الغذاء والدواء وقصور الطب، بل بسبب الأزمات النفسية التي يعيشها الناس، فالآية المباركة تدفع عن نفوس المؤمنين الذين يتبعون الذكر ويخشون الرحمن بالغيب بأن لهم الحياة الآمنة المطمئنة، ففي دنياهم يكونون على أحسن حال، وفي آخرتهم كذلك.

وأما المغفرة مأخوذة من غفر أي ستر، والغفران الستر[1]، وهو تارة يكون بتغطية الشيء الموجود وعدم إظهاره، وتارة يكون بالحيلولة دون وقوعه، وعليهما يأتي معنى الاستغفار، فإن عموم العباد يستغفرون من ذنوبهم الواقعة. أما الأولياء والكملّون فيستغفرون من قصورهم والخشية من عدم القيام بواجباتهم تجاه ربهم كما ينبغي ويليق بمقامه الكريم، ولذا

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٤، ص٣٨٥، (غفر)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٥٦، (غفر).

نلاحظ كثرة الاستغفار من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمة عَلَيْهِم السَّلَام والبعض يتصوّر أن ذلك من ذنب والعياذ بالله، والحال أنه من القصور والخشية من عدم أداء الحق كما ينبغي، فالاستغفار طلب الستر وهو قسمان: استغفار عن ذنب واستغفار عن أدب، والآية المباركة تبشر أصحاب القلوب النقية الذين يتبعون الذكر ويخشون الرحمن بالغيب بأنّ لهم مغفرة تسترهم فتغطي عيوبهم وتسترها عن عيوب الناس، وتمحيها من سجل الأعمال فلا يعاقبون عليها، ومغفرة أخرى تمحي عنهم آثار القصور فتجعل أعمالهم وذواتهم مقبولة عند ربهم، ومن هنا قال بعض أهل اللغة: إن الغفران ينبئ عن استحقاق الثواب وإسقاط العقاب(١)، ولذا لا يكون إلّا لله سبحانه، وهو الغفور، ومنه تطلب المغفرة، ومن كان هكذا حاله فإنه لابد وأن يكون جزاؤه الأجر الكريم.

ومن آثار المغفرة في الأعمال بقاؤها ودوامها فتكون مباركة؛ لأنّ أكثر الزوال ينشأ من عوامل الضعف، وعوامل الضعف ما يكون للدنيا والهوى والشيطان، وأما ما يكون لله سبحانه فيبقى؛ لأن الله سبحانه يستر عيوبه ويمحيها.

وقد وصف الأجر بالكريم من باب الوصف الحقيقي، وتسميته بالأجر للإشارة إلى الاستحقاق في مقابل عمل، ووصفه بالكريم للإشارة إلى أنه حي، وبذاته كريم، ومعنى ذلك أنه يدرك ويحس لبيان نكتتين هامتين فيه:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٨٧، (١٥٥٦)، (١٥٥٨)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٩، (غفر).

الأولى: أنه حي، والحي يحب ويعطي، ولا يعطي دون حب وعلاقة روحية، وهذا من شأنه أن يزيد المأجور نعمة ولذة.

الثانية: أنه مستمر ولا ينقطع؛ لأن من كانت ذاته كريمة لا يتوقف عطاؤه، وحيث إن الباري عز وجل جعل الأجر كريماً هكذا، وخزائنه لا تنفد، فمعناه أن عطاء المؤمنين لا ينقطع، وهو دائماً كاشف عن الحب والرضوان لتكون في ذلك لذة مادية لأبدانهم، وروحية لأرواحهم، ولذا عرّفه بعض المفسرين بأنّه لا نقصان ولا نفاد فيه، ولا منّة فيه على المأجور[١]. هذا كله جزاء اتباعهم للذكر وخشيتهم للرحمن بالغيب.

---

(١) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٦.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: القرآن والمعصوم والحضارة

أن الآية جعلت لأهل القلوب النيرّة والعاقبة الحسنة علامتين هما اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب، وأعلى مصاديق الذكر القرآن والمعصوم وبذلك تثبت حقائق:

الأولى: أن القرآن والمعصوم لا ينفكان في زمان أو مكان. لأن الخطاب موجه لنوع البشر في جميع الأزمنة وأن المعصوم ملازم للحياة البشرية ولا يفارقها وهذا شاهد على ضرورة وجود الإمام الغائب. وأنه حي حاضر وليس كما يقول العامة.

الثانية: أن المغفرة والبشارة والأجر الكريم تنال باتباع القرآن والمعصوم وبمخالفتهما أو مخالفة أحدهما تنال الصفات المضادة أي الذنب والأنذار والأجر غير الكريم.

الثالثة: دوام حكومة القرآن وحجيته على البشر.

وبيان ذلك: أن القرآن الكريم حجة الله تعالى على الخلق إلى يوم القيامة، وعلى هذا الأساس اتسم بخصائص لا يحظى بها كتاب غيره، ومن هذه الخصوصيات خصوصيتان نشير إليهما هنا:

الأولى: أن الباري عز وجل جعل القرآن آية خاتم أنبيائه، وأراده أن يكون الحجة على الخلق في جميع العصور والأزمنة، ومعنى ذلك أنه لابد أن يشتمل على تعاليم حياتهم الدنيوية والأخروية؛ لأن البشر لا يعيش حياة واحدة بل حياتين، وفي الحياة الدنيوية يدعو إلى الحياة الطيبة مادياً وروحياً، وتعاليمه لا تخص المؤمنين به فقط، بل تعم جميع البشرية؛ لذا تضمنت تعاليمه الهداية التامة في أبعاد العلم والمعرفة والحياة الاجتماعية ونظام الأسرة والنظام السياسي والاقتصادي وكل ما يحتاجه البشر من تعاليم وأنظمة مودعة في القرآن، وهو أمر عقلي برهاني لا ادعائي؛ لأن القرآن الكريم إرشاد الخالق للمخلوق، وآخر تعاليم الباري عزّ وجل للبشر، ويراد لها البقاء إلى يوم القيامة، فلا يعقل أن تنقضي علومه وإرشاداته في زمان أو مكان، وإلّا بطلت حجيته، لكن المسلمين لم يقدروا هذه النعمة جهلاً منهم، وغير المسلمين جهلاً أو عناداً، وقد حصر بعض المسلمين القرآن وعطلوه وخصصوه فقط لأجل الثواب والقرآءة على الموتى، أو البعض بالغ في تلحينه وتجويد قراءته ولم يبالغ في فهمه وإدراك علومه ومعارفه حتى كان البعض يتصور أن القرآن كتاب موت وأموات لا كتاب حياة، وهذا ظلم فضيع جداً؛ لذا سيشكو النبي صلى الله عليه وآله أمته التي اتخذت القرآن مهجوراً؛ لأنه جاء به ليحييهم حياة طيبة لكنهم أودعوه على الرفوف ولا يستفيدون منه الفائدة المطلوبة.

الثانية: أن القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴿**إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[(١)] وقال: ﴿**يَهْدِي لِلَّتِي**﴾ ولم يقل (للذي) يشير إلى أن عقيدته وشريعته أقوم، فإن البشر طراً مهما اختلفت ألوانهم وأصنافهم ومشاربهم لهم عقائد وشرائع، وحتى الملاحدة والكفار لهم عقيدة وشريعة تقنن ما هم عليه؛ لأن الإنسان لابد له من أفكار تملي عقله ومناهج تنظم عمله وقيادة تقوده، وهذا المجموع يعبِّر عنه بالدين؛ لأن الدين هو الطاعة أو الجزاء على اختلاف اللغويين، والكل ينطبق على كل من يضع فكراً عليه ويجاب ويقاد له[(٢)].

وبعض الذين لا يؤمنون بالله سبحانه يقولون نحن على غير دين، والحال هم لهم دين ولكن دينهم هو الجحود والكفر والإلحاد، وشريعتهم مستقاة من دينهم، وقيادتهم من ذات المنهج.

فالآية المباركة لا تنفي وجود عقائد وشرائع وقيادات للبشر، ولكن تنفي استقامتها وهدايتها وعدالتها؛ لأنها فاقدة للاستقامة والاعتدال في المنهج، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلا اعتدال ولا استقامة إلّا في اتباع القرآن؛ لذا قال: ﴿**إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[(٣)] ولم يقل (يعلم) أو (يرشد)، وقال يهدي لأن الهداية تعني الوصول إلى المطلوب بأقرب طريق وبأقل جهد وتكلفة، وذلك لا يكون إلّا في الطريق المستقيم، وهذه غاية جميع البشر أنهم يريدون الوصول إلى غاياتهم بأيسر وأقرب وأنفع الطرق.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٣١٩، (دين).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩.

والقرآن الكريم يحاكي هذا الميل الفطري في البشر، فيقول يهدي للتي هي أقوم، أي يحقق أهداف البشر بأفضل منهج وأعدل أسلوب وأرفع تعاليم.

وقال ﴿أَقْوَمُ﴾ وفيه احتمالان:

الأول: أنه فعل تفضيل يراد به المفاضلة بين أمرين، فالأقوم يكون مقابل من هو أقل منه قواماً وهو (القيم) نظير عالم وأعلم، وبهذا يلفت أنظار الناس إلى أن مالديهم من مناهج وأساليب وقيادات قد يعدونها قيّمة لكن هناك ما هو أقوم منها وأرقى وأفضل، وحيث إنهم يريدون بلوغ غاياتهم وتحقيق مصالحهم فإن الفطرة والعقل يدعوانهم إلى اتباع الأقوم والتخلي عما يقننون ويمنهجون.

الثاني: أنه فعل تفضيل منسلخ عن المفاضلة للإشارة إلى أن المنهج القويم هو القرآن، وأما غيره فلا قوامة له ولا استقامة.

والذي يطلع على مناهج القرآن وأحكامه يجد ذلك جلياً ولا زال البشر في كل يوم يكتشفون شيئاً من أسرار القرآن ويتعلمون منه، ومن هنا جعل اتباعه علامة السعادة.

ولو التفت إلى ذلك المسلمون ودققوا بهذه الحقيقة وعرفوا قدر هذه النعمة التي بأيديهم وتمسكوا بها ووضعوا لها المعاهد والجامعات التخصصية لسادوا العالم إنسانية وعلماً وحضارة.

التعليم الثاني: إصلاح النفوس قبل إصلاح الدول

إنّ الآية تقول: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[١] وصيغة المضارع تفيد استمرارية التأثير ودوامه، ومفادها أن التأثير يكون على قدر الاتباع؛ إذ ليس كل من أنذره النبيﷺ يتأثر، بل لا يتأثر إلّا من يتبع ويخشى، وقد قرر علماء المعقول هذه الحقيقة بقولهم إن العلوم والمعارف تفاض على قدر الاستعداد، وأن قابلية القابل سبب لفاعلية الفاعل؛ لأن العلم والمعرفة والحكمة من فيوضات الرحمة الإلهية، وهي تنبت في الأرض الصالحة مثلها مثل المطر الذي ينزل على الأرض الحلوة والمالحة، لكن لا ينبت إلّا في الأرض الحلوة الطيبة.

ولابد أن تكون قابلية القابل تابعة للاختيار في الجملة؛ لذا قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾[٢] ولم تقل الآية: (نتبع الذكر) لأن الاتباع فيه إرادة واختيار وطاعة، فإذا لوحظت القابلية البدوية يجب أن تنمى وتربى لتصل إلى الاستحقاق الكامل والعطاء والإثمار، وينبغي أن تتخذ هذه الحقيقة قاعدة في التربية وفي التعليم والتعلم، بل وفي الخطط والإصلاحات السياسية والاجتماعية لو أخذ بها أنتجت الكثير، وأوصلت الأهداف إلى غاياتها.

والآيات القرآنية شهدت للنبيﷺ أنه نور، وكلامه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ووصفته بالسراج الوهاج أي المتوهج بالنور والخير

---

(١) سورة يس: الآية ١١.

(٢) سورة يس: الآية ١١.

والبركة، لكن كلامه ونصحه لم يؤثر في هؤلاء الغافلين المسجونين في الظلمات، وعدم التأثير لم يكن من جهة قصور الفاعل بل قصور القابل، أي أنهم لا يريدون الهداية ولا الاتباع، واسودت قلوبهم فصارت كالحجارة لا يهتدون.

فلو التفت المربون والمصلحون إلى أنّ الإصلاح والتغيير يبدأ أولاً من المجتمع أي من الإنسان نفسه ستسهل العملية، وتصل إلى المطلوب، ولو لاحظنا فشل العديد من المحاولات والمشاريع التي يبذل لأجلها الكثير لأنها تنظر إلى فاعلية الفاعل ولم تنظر إلى قابلية القابل مع أن التأثير في الفاعلية يتبع التأثر في القابل، ولذا نلاحظ أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبدؤون بتهذيب النفوس والعقول فيصلحونها أولاً، ثم يقيمون الدولة والمجتمع، واليوم إذا لاحظنا التأخر في مجتمع أو دولة فلابد وأن نعرف أن طريق الحل يقوم على قاعدة القابل والفاعل، فلو كان القابل قاصراً لا ينفع معه التأثير؛ لذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾[1] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لا رأي لمن لا يطاع﴾[2] مع أنَّ النبي صلى الله عليه وآله والوصي أعظم من خلق، وأصدق من نطق، وأحكم من دبر وتصرف، ولكن لأن القابلية كانت مفقودة في الناس لم يتعلموا منهم ولم يتأثروا.

ومتى ما اجتمعت قابلية القابل مع فاعلية الفاعل مع تمامية المنهج والأسلوب فإن الحركة تصل مطلوبها، وتبلغ الغاية، وهذا ما يحصل في زمان

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٧٠، الخطبة (٢٨)؛ الكافي: ج٥، ص٦، الهامش.

(٢) سورة يس: الآية ١١.

الظهور الشريف؛ إذ يتوفر القابل أولاً لأنّ الإمام صلوات الله عليه يمسح على رؤوس الخلائق فتكتمل عقولهم، وتكون معهم الحجة التامة والمنهج الكامل؛ لذا لا يوجد زمان ولا نظام أفضل وأعظم وأكثر خيراً وبركة من زمانه. فيه ينعم الناس بالأمن والأمان، وينتفي الظلم، ويسود العدل.

التعليم الثالث: مراتب التقوى

ذكرت الآية أن الذين يقبلون الإنذار وينصلحون هم الذين يتبعون الذكر ويخشون الرحمن بالغيب، وقد لخصَّت هذه الحقيقة، وأفادت الروايات هذه الحقيقة وأن سعادة الإنسان وتوفيقه يكمن في شعوره بالخوف والرجاء، فإنّ الخوف وحده مرض نتيجة اليأس من الرحمة، والرجاء وحده غرور يوقع صاحبه بالغفلة والتهاون، والتوازن النفسي والأخلاقي للإنسان يكون إذا عاش الحالتين معاً، أي يعيش الخوف في عين الحال لا يفقد الرجاء، ويعيش الرجاء في عين الحال يستشعر الخوف، ولذلك يقول علماء الأخلاق أن التقوى إذا صارت ملكة في النفوس فإنّها تكون على مراتب عمدتها ثلاث:

الأولى: الخوف، وبه يقوّم الباري عز وجل عباده؛ لأنهم إذا لا يخافون لا يذعنون.

الثانية: الخشية، وهي سراج القلب، وبها يشعر العبد بالمحبة واللذة في الطاعة واجتناب الجور والظلم، ولا يبلغها العبد إلّا بالعلم والمعرفة؛ لذا

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١] فالذين يخافون ولا يخشون لم يبلغوا هذا المقام، ولم يعرفوا، وعلامة هذه الرتبة دوام المراقبة في السر والعلن، وهو ما عبّرت عنه الآية: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾[٢].

الثالثة: الهيبة، وهي تسكن القلب وتشعر العبد بهيبة الباري عزّ وجل في قلبه ونفسه حتى يستحي من التقصير في حقه، ويخجل من ذنوبه وقبائحه؛ لذا يكثر الأنبياء والأولياء من الاستغفار؛ لأنّهم يشعرون الهيبة ويرهبونها وإن كانوا معصومين.

ولو أراد الطالبون للمقامات المعنوية أن يبلغوا درجة التقوى التي هي منشأ الخيرات والبركات لابد أن يطووا هذه المراحل التي أشارت إليها الآية: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾ فإن هذا بداية الطريق، ولهذا المقام حقائق وآثار وقصص وعبر ذكرها علماء الاخلاق في محلها[٣].

التعليم الرابع: أركان المعرفة الإلهية

فإن الآية نصت على أن المغفرة والآجر الكريم يصيب قسماً من الناس وصفتهم بأنهم:

١. يتبعون الذكر.

٢. ويخشون الرحمن بالغيب.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) سورة يس: الآية ١١.

(٣) انظر آداب النفس: ج٢، ص٣.

والاتباع يعني الاقتداء بالذكر، والذكر هو المعصوم؛ إذ لا يصدق الاتباع إلّا باقتفاء الاثر والاقتداء، وخشية الرحمن بالغيب تعني التقوى، فأصحاب الجنة هذه صفتهم يقتدون بالمعصوم ويتقون، وبين الاقتداء بالمعصوم والتقوى بمعناهما الكامل ملازمة لا تنفك، وبهذا يخرج عن مدلول البشارة في الآية نوعان من الناس:

الأول: الذي لا يقتدي بالمعصوم فيأخذ من غيره ويقتدي به، فإن ذلك لا يقودالى النجاح.

الثاني: الذي يقتدي بالمعصوم اقتداء ناقصاً، وينطبق هذا على الذي يأخذ منه ومن غيره. يقول أقتدي بعلي عليه السلام وأقتدي بغيره، فإن هذا لا يعتبر اقتداء، وفي هذه الأمور لا يقبل أنصاف المواقف والحلول، وهذا ما تضافر معناه في الروايات الشريفة، ففي الكافي الشريف بسنده عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: ﴿إنّما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنّما يعبده هكذا ضلالاً﴾ أي ضياعاً[١]. قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: ﴿تصديق الله تعالى، وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله، وموالاة علي عليه السلام والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة إلى الله عزّ وجل من عدوهم. هكذا يعرف الله عز وجل﴾[٢].

ويستفاد منها أن المعرفة الحقة تقوم على ثلاثة أركان هي:

---

(١) يقال: ضللت الشيء إذا جعلته في مكان ولم تدر أين هو. انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٤١٠، (ضل).

(٢) الكافي: ج١، ص١٨٠، ح١.

التصديق بالله ورسوله وموالاة الأئمة عليهم السلام والبراءة من عدوهم، فلو جاء العبد مصدقاً بالله والرسول ولا يوالي علياً والأئمة أو يصدِّق بالله والرسول ويوالي الأئمة ولكن لا يتبرأ من عدوهم فإن معرفته ناقصة، ولو كانت معرفته ناقصة لم يكن ممن يتبع الذكر ويخشى الرحمن بالغيب. هذه هي النتيجة الحاصلة من منطوق الآية والرواية.

وتؤكد هذا المعنى رواية جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنّما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منّا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الإمام منّا أهل البيت فإنّما يعرف ويعبد غير الله هكذا والله ضلالاً»(١).

إذاً معرفتهم دون معرفة الله ضلال، ومعرفة الله دون معرفتهم ضلال، كما أن معرفة الله ومعرفتهم دون البراءة من عدوهم ضلال، وهذه الأركان الثلاثة متلازمة، وهي التي يقوم عليها الإيمان والمعرفة الحقة الكاملة، فلو نقص ركن منها كانت المعرفة ناقصة، ومن كانت معرفته كذلك لا يبشر بمغفرة ولا أجر كريم.

وواضح أن المراد من معرفة الإمام ليس معرفة شخصه في شكله وأوصافه البشرية؛ لأن الكفار والمنافقين أيضاً يعرفون ذلك، ولا المراد معرفة الإمام باسمه، فإن الكثير من المسلمين يعرفون ذلك؛ لما ورد في الروايات الكثير من ذلك، وإنما المراد معرفة إمامة الإمام ومقامه الإلهي الرباني.

---

(١) الكافي: ج١، ص١٨١، ح٤؛ غاية المرام: ج٣، ص٦٩، وفيه: (هكذا والله ضالًّا).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾(١) يضع العلامة بيد الناس ليعرضوا إيمانهم ومعارفهم على الآية، فالذي يجد نفسه مؤمناً لابد وأن ينظر إلى إمامه ومقتداه من هو؟ فإن كان النبي صلى الله عليه وآله والعترة كان ممن يخشى الرحمن بالغيب، ويبشر بالمغفرة والأجر الكريم، وإلّا فعليه أن يصحح مساره ومعرفته، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله: «لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لما خلق الله النار»(٢) وذلك لانتفاء المقتضي.

---

(١) سورة يس: الآية ١١.

(٢) عوالي اللآلئ: ج٤، ص٨٦، ح١٠١؛ البحار: ج٣٩، ص٢٤٨، ح١٠؛ بشارة المصطفى: ص٧٥.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ

يس/ ١٢

هذه الآية المباركة متممة للآيات السابقة في المعنى، فبعد أن فصّلت تلك الآيات حالة المعاندين والخاشعين وذكرت أوصاف المعاندين والخاشعين وذكرت أن المعاندين مقمحون في أغلالهم مسجونون والخاشعين يتبعون الذكر ويخشون الرحمن بالغيب ويبشرون بالمغفرة والأجر الكريم. وردت هذه الآية المباركة لتشير إلى أن للبشر إحياء وإماتة، ولهم أعمالاً وآثاراً، وكل ذلك مسجل لدى رقيب محصي ومجازي هو الإمام فلا يوجد عبث ولا إهمال ولا غفلة في الوجود؛ إذ قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾.

وبيان مدلول الآية المباركة ولطائفها وتعاليمها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾

هما ضميران للمتكلم ذكرا معاً مع أن الواحد يكفي، ولعل السبب في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: الإشارة إلى العلل التوسيطية، فإنّ (إِنّا) تفيد مزيد الخصوصية و(نحن) تفيد الاشتراك مع الأسباب الأخرى في الفعل والتأثير؛ لكونها من العلل الطولية كما يقوله بعض أهل المعقول، أو لكونها مظاهر العلم والقدرة الإلهية كما يقوله آخرون، وهذه من سنن الباري في الوجود؛ لأنه يتخذ وسائط للخلق والإيجاد، فالملائكة مثلاً من أسباب تدبير الوجود وقد وصفها الباري بالمدبرات، وتأثيرها في الأشياء إما من جهة كونها في سلسلة العلل الطولية للوجود التي جعلها الله سبحانه، أو أعطاها الله العلم والقدرة لفعل الأشياء، فبها يميت ويحيي ويبعث المطر والرياح، ويقسم الأرزاق، وكذلك من هو فوق الملائكة وأعظم وهم محمد وآل محمدعليهم السلام، ويشهد لهذا أن الآيات التي تتحدث عن العلل التوسيطية تأتي بالضميرين معاً مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] فإن حفظ القرآن يتم بالنبي

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

والإمام عليه السلام والملائكة والعلماء الربانيين؛ لذا قال: (إنّا) (نحن) ولو كان لا يريد العلل التوسيطية لكان قوله (إنا نزلنا) يكفي في الدلالة.

ولو أراد التخصيص في المعنى ونفي الشراكة يرد التعبير (بأنا) و(إنِّي) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾[2] يتحدث عن العلل التوسيطية، وأكد ذلك بفعل المضارع (نحيي) للإشارة إلى أنّ الإحياء حالة مستمرة لا تتوقف، بل الوجود وما فيه دائماً في حالة موت وحياة.

ثانيهما: الإشارة إلى أن الإحياء يكون بجمعية الصفات الجمالية والجلالية؛ لأنّ بالإحياء خلق وإيجاد ويجب أن يكونا عن علم وقدرة وحكمة، وسائر الأسماء والصفات الحسنى تشترك في ذلك، وليست صفة واحدة.

المفردة الثانية: ﴿نَكْتُبُ﴾

فعل مضارع مأخوذ من الكتابة وتعني جمع شيء إلى شيء[3]، وتطلق على ضم الحروف بعضها إلى بعض في الخط، والكتاب يسمى كتاباً لأنه يجمع صحائفه إلى بعضها، والطائفة من الجيش يقال لها كتيبة لأنها مجتمعة إلى بعضها.

---

(١) سورة طه: الآية ١٤.

(٢) سورة يس: الآية١٢.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ج٥، ص١٥٨، (كتب)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٩٩، (كتب)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص١٥٢، (كتب)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٧٤، (كتب).

وتطلق الكتابة على الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم تكويناً وتشريعاً، ووجه ذلك: أن الشيء تكويناً لا يوجد إلّا باجتماع أجزاء علته التامة من وجود المقتضي وانعدام الموانع وتوفر الشرائط، وفي الخلق يتوقف على اجتماع قدرة الله وإرادته وفعله بأن يقول له (كن فيكون). قال تعالى: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾(١) أي قدرها وأرادها وأصدرها بالفعل، وتشريعاً كما في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾(٢) و:﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾(٣) لانضمام الإرادة والتقدير والتكليف مع وجود المصلحة.

ومن هنا قالوا بأن لله سبحانه كتابين: كتاباً تكوينياً فيه تجتمع جميع المخلوقات، وتجري فيه أعمال الخلق والإيجاد، وكتاباً تشريعياً فيه تجتمع كل التعاليم والأنظمة والأحكام الإلهية، وكل يسمى بالكتاباً باعتبار ضم الأسباب التكوينية في التكوين، وضم الأسباب التشريعية في التشريع، وصيغة الجمع في الآية المباركة تدل على أن الباري عز وجل بعلله التوسيطية كالملائكة الكاتبين وجمعية صفاته المباركة يجمع ما يقدمه الإنسان وآثاره، فلا يفوت عليه شيء ولا يمحى ولا ينسى.

وبهذا يتضح وجه العلاقة بين إحياء الموتى وبين الكتابة، فإن الإنسان لولا أن يحييه الباري ميِّت قبل خلقه، وميِّت بعد حياته الدنيوية، لكن من

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٣.

لطف الله ورحمته به أن أوجده بعد أن كان عدماً، ثم يحييه ثانية بعد إماتته، فيجعل له الحس والحركة والنفع والانتفاع، ولولا ذلك كان نسياً منسياً، لذلك الأعمال إذا لا تدوّن ولا تكتب تكون ميتة لا تذكر ولا يدوم نفعها لاسيما على القول بأنّها أعراض، والأعراض وجودات متصرمة غير قارة، ولكن إذا كتبت صار لها الأثر والنفع، وصارت كأنها حية ناطقة في الخلق تتحدث عن نفسها وعن أهلها، كالكلام الذي نتكلم به فإنّه وجود متصرم إذا أطلقه اللسان يمحى في الآن الثاني وبعد مدة ينسى، ولكن إذا سجل يبقى محفوظاً دائماً يذكّر الناس، وينتفعون به، وكثير من العلماء والخطباء وأهل الفضل حيث لم تُدون أقوالهم وآراؤهم ضاعت، ولا يُعرف عنها إلّا النزر القليل إن وجد، ولم ينتفع بها كما ينبغي.

فالكتابة للأقوال والآراء والأعمال إحياء لها، لولاها تكون ميتة، ولذا عطف الكتابة على إحياء الموتى فقال سبحانه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾[١] وصيغة المضارع تدل على دوام الكتابة وشمولها، فما من شيء من حوادث هذا الوجود إلّا وتحفظه الكتابة وتجمعه وتحييه، وسوف ينتفع بها الإنسان إن كانت طيبة خيرة، أو يتضرر بها إن كانت طالحة.

إن قلت: اتضح الكاتب والمكتوب فأين تكون الكتابة؟

والجواب: أنّ الكتابة هنا حقيقة تكوينية بها تجتمع الأعمال والآثار في الوجود، وتكتب في ألواح خمسة مختلفة في المراتب:

---

(١) سورة يس: الآية ١٢.

الأولى: في مرتبة نفوسهم وقلوبهم، فإنّ الأعمال مصدرها النفس وأثرها على النفس، فالصدق والكذب مثلاً والعدل والظلم مثلاً ينعكسان على النفس ويبقيان آثارهما.

الثانية: الكتابة في المجتمع البشري فإنها لا تنسى وهو ما يعبر عنه بالتاريخ، والذاكرة الإجتماعية.

الثالثة: بقاؤها في الفضاء بصورها وأصواتها، وتستحضر أمامه يوم المحشر، وتشهد عليه؛ لذا يقول سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً**﴾[1] أي نفس العمل بصورته وصوته يكون حاضراً.

الرابعة: عند الملائكة الشهود من الكرام الكاتبين الذين يحصون عليه عمل كل شيء.

الخامسة: عند إمام زمانه، فإن الأعمال تعرض على الإمام في كل يوم وليلة، وفي كل يوم اثنين وخميس، ويطلع عليها، وهذه كلها عبارة عن كتابات مسجلة لا تمحى ولا تنسى.

المفردة الثالثة: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾

(ما) موصولة أو مصدرية، وكلاهما يفيدان العموم، واختلف المفسرون في المراد بما قدموا على أقوال:

فمجموعة قالوا: المراد ما قدموا وأخروا لكن الآية اكتفت بذكر أحدهما لدلالته على الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ**

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

تَقِيكُم الْحَرَّ﴾(١) أي والبرد، وحينئذ يدل على التنصيب والعزل والأعمال الإدارية التي يزاولها الناس، فإن الكثير منها فيها الظلم والجور، أو فيها الغش والخداع، فإن قدّم صاحب القرار من فيه الكفاية والأمانة كان مأجوراً، وإن أخّره كان مأثوماً؛ لأن تولية المناصب والتدابير فيها أمانة وفيها خيانة وفيها نفع وضرر، فإذا لم يخضع لميزان الكفاءة والأمانة كان من الخيانة.

وذهب البعض إلى أن المراد الأعمال التي يقدمها الناس صالحة كانت أو فاسدة، ويعبّر عنها بالتقديم؛ لأنها تتقدم الإنسان وتسبقه في الغايات أو في الجزاء، ولذا يندم بعض الظالمين يوم الجزاء فيقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾(٢) ويقول سبحانه: ﴿**يُنَبَّؤُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾(٣).

وذهب ثالث إلى أنّ المراد النيّات؛ لأنّ النية تسبق العمل، ويكون العمل مطابقاً لها(٤).

وربما يراد ما قدموا من أعمال لمستقبل أيامهم، فإن الإنسان بطبعه يفكر للمستقبل ويعد العدة له ولكن ليس بالضرورة يصل إلى جميع ما يخطط له ويطلبه حثيثاً؛ لأنّ الأجل قد يمنع فيدركه الموت قبل قطف ثمار أتعابه، أو أن تبدل النوايا والآراء تغير من وجهته.

---

(١) سورة النحل: الآية ٨١.

(٢) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(٣) سورة القيامة: الآية ١٣.

(٤) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٤٥.

والعموم يشمل الكل، ولا مانع من القول بأنّ المقصود كل ذلك، ولكن النكتة اللطيفة في الآية أنها قالت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾(١) بينما الآثار نسبها إليهم فقالت: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾(٢) ولم تقل (آثارها) أي الأعمال، ولعل الوجه فيه أن ما يقدّمه الإنسان من أقوال وأفعال في الغالب تنسى وتزول آثارها، لكن الباري عز وجل يكتبه ويبقيها حية تشهد على نواياه وأفعاله، ولذا يستغرب الناس في الآخرة حينما يفتح سجل أعمالهم ويجدون في كتابهم قد أحصى كل شيء فيتعجبون: ﴿وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلّا أَحْصَاهَا﴾(٣).

إن من مصائب الإنسان أن ينسى ويغفل ولكن الله سبحانه لا ينسى ولا يغفل، وديوان الأعمال والحساب مفتوح، فكل ما يقدمه الإنسان سواء لدنياه أو أخراه مقدم ومحفوظ ومكتوب عليه.

المفردة الرابعة: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾

جمع أثر، وهو كل ما يدل على وجود الشيء(٤)؛ ولذا يطلق على ثلاث معاني هي تقديم الشيء وذكر الشيء ورسمه الباقي(٥)، ويفترق الأثر عن العلامة إذا اجتمعا بأنه يكون بعد الشيء والعلامة تكون قبله ولذا يقال

---

(١) سورة يس: الآية ١٢.
(٢) سورة يس: الآية ١٢.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٤) مفردات الراغب: ص٦٢، (أثر).
(٥) معجم مقاييس اللغة: ص٤٢، (أثر).

الغيوم والرياح علامات المطر، ومدافع السيول آثار المطر[١]، والإطلاق يشمل المعاني الثلاثة والإضافة إلى الناس وليس إلى الأعمال؛ لأن آثار الإنسان أكثر من أعماله، فإن العمل قد ينقضي إلّا أن أثره يبقى، فمن آثاره ذريته، ومن آثاره علمه، ومن آثاره الذكر الطيب، هذه كلها تكتب ولكن الكتابة هنا لا تعني أنّها مدونة في سجل الأعمال فقط، بل تبقى خالدة بين الناس تذكر ولا تنسى، وتعيش في القلوب والأفكار، وهذا المعنى مما يشهد به الوجدان والواقع الخارجي فإن الصالحين وأصحاب المواقف الشريفة لهم آثار طيبة حية وخالدة، والطالحين لهم آثار سيئة كما يشهد عليه العقل والنقل بقاعدة تجسم الأعمال.

وقد ذكر المفسرون أقوالاً لمعنى (آثارهم) لكنها من باب بيان المصاديق الأهم:

القول الأول: الأعمال التي لها آثار تبقى حية بعد موت الإنسان كالصدقة الجارية، فلو حفر إنسان بئراً أو بنى مدرسة أو مسجداً فإنّها تبقى بعد موت أصحابها، وأكثر الأوقاف والمبرّات هذا شأنها تبقى حية بعد أصحابها وتحيي ذكرهم وأعمالهم بدوام الأثر.

القول الثاني: العلم النافع الذي يخلفه الإنسان من بعده، فيموت العالم ويبقى العلم يهدي ويعلم ويربي من بعده، وعمر العلم أطول من عمر العالم، فإن العالم قد يعيش مدة ربما تبلغ ستين أو سبعين أو ثمانين أو أكثر بقليل أو أقل لكن علمه يبقى من بعده مئات السنين، وهذه كتب العلماء

(١) معجم الفروق اللغوية: ص١٥، (٤١).

التي ينتفع بها اليوم عمر بعضها أكثر من الف عام. هذا لو كان علماً، وأما لو كان أفكار ضلال وتضليل فهي تبقى وتكون وبالاً على صاحبها.

القول الثالث: الذريّة من الأولاد والبنات، فإنّها آثار الإنسان، فإذا ربّاهم وعلّمهم وهداهم إلى الصراط المستقيم شاركهم في أعمالهم، وبخلافه ذلك الولد الطالح.

القول الرابع: السنن التي يسنّها في حياته سواء كانت حسنة أو سيئة، وأن بعض السنن الحسنة تبقى من بعده، مثلاً إذا علّم الوالد أولاده على الخدمة والطاعة ومحبة الناس وواصل الأبناء هذا النهج يعد من آثاره، وربما يسن سنّة سيئة تبقى آثارها إلى يوم القيامة. مثلاً: الزنا إذا نشأ منه الولد والسرقة إذا لا ترد لأهلها قد تبقى آثارها إلى يوم القيامة.

ولو كتب الإنسان وصية ظالمة حرمت أهل الحق من حقوقهم والوارث من ميراثه وتواصل هذا الحرمان في الذريات والأجيال القادمة فإن أثرها السيء يستمر إلى يوم القيامة.

ومن سنّ قانوناً جائراً سواء كان في مجلس تشريعي أو غيره، أو كان صاحب قرار في دائرة أو وزارة فإن ظلم القانون وآثاره تكتب عليه إلى يوم القيامة، فلا ينبغي أن يغفل أصحاب القرار والسلطة عن هذه الحقائق. إنّ ما يسنّون ويشرعون ويصدرون من تعاليم وأنظمة إن كانت عادلة وفي صالح الناس لهم أجرها، وإن كانت ظالمة جائرة فإنّ آثارها تكون وبالاً عليهم إلى يوم القيامة.

ولذا أمر أمير المؤمنين عليه السلام في الأموال التي وزّعها عثمان على بني أمية بلاوجه حق باسترجاعها إلى بيت المال وإن كانت قد تزوجت بها النساء؛ لأنّ آثارها لا تكون على من شرع ذلك فقط بل على من سكت وأمضى وكان بإمكانه تصحيح الخطأ.

هذا المعنى يشرح لنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1].

المفردة الخامسة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾

إن أعم مفردة في لغة العرب ينضوي تحتها الموجود والمعدوم هي (شيء) إذ تطلق على الموجودات طراً والمعدومات في الخارج والموجودات في عالم الذهن، أي الصور الذهنية، وتطلق على المخلوق كما تطلق على الخالق تبارك وتعالى؛ لأنه سبحانه شيء لا كالأشياء، وتطلق على الخير والشر والكبير والصغير والمحسوس وغير المحسوس. جميع الأمور بلا استثناء تدخل تحت كلمة (شيء) وزادها عمومية وسعة كلمة (كل) فإنّها من أصرح أدوات العموم، فتصور أن أوسع كلمة يدخل عليها أصرح أدوات العموم هل يمكن أن يستثنى منها شيء؟

---

(١) الفصول المختارة: ص١٣٦؛ وانظر البحار: ج٧١، ص٤٠٢، ح٤١؛ مسند أحمد: ج٤، ص٣٦١ ـ ٣٦٢.

الآية تقول: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وبقرينة العطف على ما سبق يستفاد منه أن جميع ما يقوله الناس وما يفعلونه وما يفكرون به وآثارهم كلها صغيرها وكبيرها محصية في إمام مبين.

المفردة السادسة: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾

أي عددناه وحفظناه والمحصي من أسمائه تعالى، وهو الذي أحصى كل شيء بعلمه وأحاط به، فلا يفوته دقيق منها ولا جليل، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[1]، وضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿أحْصَيْنَاهُ﴾ يدل على العلل التوسيطية وجمعية الصفات الإلهية، وقال: ﴿أحْصَيْنَاهُ﴾ ولم يقل (عددناه) لأنّ الإحصاء يتميز عن التعداد بأمرين:

أحدهما: أن الإحصاء يتم بحساب الأشياء بتفاصيلها بعد الإحاطة بها، بخلاف العد والحساب فإنه يتم بالإجمال؛ لذا يتعلق الأول بالجزئيات، والإحصاء مأخوذ من الحصا لانهم كانوا يعدون الأشياء به. أما العدد فيتحقق بالحساب الكلي، وعلى هذا فإن الإحصاء يشمل العدد وليس العكس لذا قال تعالى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً﴾[2] فالعدد يدخل في الإحصاء وليس العكس، وقال سبحانه: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلّا أَحْصَاهَا﴾[3] لأنّ الحساب تم بالتفصيل

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص١٠٠، (حصا)؛ مفردات الراغب: ص٢٤٠، (حصا).
(٢) سورة الجن: الآية ٢٨.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤٩.

ومعرفة الدقائق التي يغفل عنها عادة ولم يتم مجرد الحساب الكلي، وإلّا لقال: (إلّا أعدها).

ثانيهما: أنّ الإحصاء يتعلق بالأمور المحسوسة والغيبية مثل النوايا والأفكار والأسرار والآثار المستقبلية، بخلاف العدد فإنه يتعلق بالمحسوسات فقط.

ومن ذلك نعرف أن تفاصيل كل شيء محصية، والذي يحصيها الباري عزّ وجل ولكن بالعلل التوسيطية، وهي ثلاث علل:

الأولى: الملائكة الكاتبون الذين يحصون على ابن ادم ما يلفظ من أقوال وما يقوم به من أعمال.

الثانية: الوجود الخارجي، تحفظ فيه أعمال وآثار الإنسان ولا تزول، بل تبقى ويراها حاضرة يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ**﴾[1].

الثالثة: النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام وهي أعلى رتبة من الأولين.

كما نعرف شدة التطابق والتكامل بين الكتابة التي تكتب ما قدموا وآثارهم وبين الإحصاء، فإنّ الأشياء تكتب أولاً ثم تحصى ثم تحفظ، والسؤال! أين تحفظ؟ فإن الحفظ لابد له من حافظ يتمتع بمزايا.

منها: أنه محيط ومطلع على الأشياء وأسرارها.

ومنها: لا يغفل ولا ينسى ولا يجهل ولا يسهو.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

ومنها: أنه شاهد وحاضر مع جميع الأشياء، وهذه المزايا غير موجودة إلّا في الحجة الإلهية، وهو خليفة الله سبحانه في أرضه وبين عباده، فإن معنى الخلافة عن الله سبحانه ان يكون الخليفة حاضراً مطلعاً وحجة، ولذا قالت الآية: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾(١) لا في وجود ولا في ملائكة بل في إمام مبين والمقصود هو الإمام المعصوم عليه السلام الذي يأتم به الخلق ويقتدون، ويكون حجة عليهم لتضافر الأدلة على ذلك.

المفردة السابعة: ﴿إِمَامٍ مُبِينٍ﴾

الإمام: كل من اقتدي به وقدّم في الأمور، والنبي صلى الله عليه وآله إمام الأئمة والخليفة إمام الرعية(٢)، وقد اختلف المفسرون في المراد (بالإمام) على أقوال لا تنهض لإثبات المدعى:

القول الأول: أنه اللوح المحفوظ وهو المشهور بينهم؛ لأن الموجودات وأعمالها وحوادثها حفظت فيه، ويسمى بالإمام لأنه يوم القيامة يكون قائداً وإماماً(٣).

وفيه: أنه سجل الحوادث، ووصفه بالإمام على خلاف الظهور؛ لأن الآية تتحدث عن الإحياء والإحصاء للأعمال بعد وقوعها، واللوح يسجل الحوادث قبل وقوعها؛ فهو كتاب قضاء وتقدير.

---

(١) سورة يس: الآية ١٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٣٣، (أم)؛ مفردات الراغب: ص٨٧، (أمّ)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٤، (أمم).

(٣) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٣؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٣٨؛ تفسير الميزان؛ ج١٧، ص٦٧، تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٠٦.

القول الثاني: أنّه العلم.

القول الثالث: صحف الأعمال[1]، وكلاهما ضعيفان؛ لأنّ العلم يرجع إلى اللوح المحفوظ، وصحائف الأعمال شخصية، فلكل إنسان صحيفة عمل تحصى به أفعاله وأقواله، وليس كل شيء الأعم ممّا يخصه وما لا يخصه.

القول الرابع: أنه الكتاب الذي يكتب فيه ما قدموا وآثارهم، وسمي بالإمام لأنه مصدر الأخذ كما أن الإمام مصدر الاقتداء والأخذ[2]، واستدل له البعض بأنّ الإمام حينما يفرد يأتي بمعنى كتاب، وأما بمعنى القائد والمقتدى فيرد بصيغة الجمع، وأطلق في القرآن عنوان الإمام على كتاب موسى كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً**﴾[3] ويعززه السياق، فإنّ الشطر السابق نص على كتابة ما قدموا وآثارهم، ثم عطف عليه الإحصاء في الإمام، فيكون قرينة على أنه المحل الذي تدوّن فيه الكتابة، ووصف الكتاب بالإمام لأن الملائكة تتبعه فيما يكتب فيه من مقدرات الآجال والأرزاق والإحياء والإماتة، وترد عليه إشكالات كثيرة؛ لأنه منقوض بمثل قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾[4] فإنه وصف إبراهيم بالإمام وقد ورد بصيغة المفرد لا الجمع، ولا ظهور لقوله: ﴿**كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً**﴾ انه وصف للكتاب؛ إذ يحتمل أن يكون الوصف لموسى عليه السلام ويراد به بيان الحال، ويؤيّده أن الوصف يعود إلى الأقرب. **هذا أولاً**.

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٣؛ تفسير الميزان؛ ج١٧، ص٦٨.
(٢) تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٣٥؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٤٦.
(٣) سورة هود: الآية ١٧.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

وثانياً: أنه لم يعيِّن حقيقة الكتاب، ويحتمل عدة معان منها: الكتاب التكويني واللوح المحفوظ والقرآن، وعليه فهو ليس بقول مغاير للأقوال المتقدمة، على أن كتاب التكوين فيه من الأشياء التي تحصى ولا يحيط بها حتى يحصيها.

القول الخامس: أنه القرآن.

وفيه: أنّ القرآن كتاب هداية وتعليم وإرشاد ولا يحصي الأعمال، بل هو بحاجة إلى الإمام المبيّن والمفسّر، ولذا وصف بالقرآن الصامت، ونلاحظ من مجموع هذه الاقوال أنّها مبتلاة بإشكالات:

الإشكال الأول: أنّها مخالفة للظهور؛ لأن الآية نصت على أن كل شيء يحصى في إمام، والمتبادر من لفظ الإمام في العرف من يقتدي به الناس وهو مطابق لمعناه اللغوي وينطبق على المعصوم أي النبي والإمامعليهما السلام، وتؤيّده القرينة؛ لأنّ الآية وصفت الإمام بالمبين وهو اسم فاعل، ولا يصح إطلاقه إلّا على الناطق العالم الحكيم الذي يبيّن المعاني ويظهرها.

وأما اللوح والعلم والكتاب فهي غير مبينة في نفسها، بل تحتاج إلى مبيّن، وقد ثبت في القاعدة أن الألفاظ تحمل على المعاني الحقيقية(١)، والإمام حقيقة في المقتدى المقدم في الأمور، وحمله على غيره يفتقر إلى دليل وهو مفقود، على أن التفسيرات المذكورة مبنيّة على احتمالات المفسرين لا الأدلة.

الإشكال الثاني: أنها غفلت عن معنى الإحصاء وظرفه فنسبت الاحصاء إلى ما ليس بمحص.

---

(١) حاشية رد المختار: ج٤، ص٦٤٧؛ وانظر هداية المسترشدين: ج١، ص١٩١.

الإشكال الثالث: أنها مخالفة للنصوص الصحيحة والصريحة التي فسّرت الإمام بالمعصوم عليه السلام ونفت باقي المعاني، فتفيد الحصر فضلاً عما يقضي به العقل.

ففي معاني الأخبار بإسناده إلى الباقر عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله! هو التوراة؟ قال: لا. قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا. قالا: فهو القرآن؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين(علي) عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو هذا! إنّه الإمام الذي أحصى الله - تبارك وتعالى - فيه علم كل شيء»[(١)].

وفي الاحتجاج عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل يقول فيه: «معاشر الناس! ما من علم إلّا وقد أحصاه الله فيّ، وكل علم علّمت فقد أحصيته في إمام المتقين، وما من علم إلّا علمته علياً وهو الإمام المبين»[(٢)].

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أنا والله الإمام المبين، أبيّن الحق من الباطل، وورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله»[(٣)]. ومثلها ورد عن الصادق عليه السلام[(٤)].

---

(١) معاني الأخبار: ص٩٥، ح١؛ وانظر تأويل الآيات: ج٢، ص٤٨٧، ح٣.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٧٤.

(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٢؛ البحار: ج٣٥، ص٤٢٧، ح١.

(٤) تأويل الآيات: ج٢، ص٤٨٧، ح٢.

وفي بيان كيفية الاحصاء بالعلم روي عن المفضل بن عمر أنه قال: دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: «يا مفضل! هل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟» قلت: يا سيدي وما كنه معرفتهم؟

قال: «فمن عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلى» قال: قلت: عرّفني ذلك يا سيدي. قال: «يا مفضّل! تعلم أنهم علموا ما خلق الله عزّ وجل وذرأه وبرأه، وأنهم كلمة التقوى وخزّان السماوات والأرضين والجبال والرمال والبحار، وعرفوا كم في السماء من نجم وملك، ووزن الجبال، وكيل ماء البحر وأنهارها وعيونها، وما تسقط من ورقة إلّا علموها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين، وهو في علمهم، وقد علموا ذلك»[(١)].

وهذا أمر يشهد به الوجدان والبرهان، فإن العلم الحديث قرّب الكثير من الحقائق الغيبية إلى الأفهام، فإن بعض مراكز المعلومات والمواقع الإلكترونية والحواسيب تتضمن الكثير من المعلومات وقد صنعها إنسان عاجز، فليس من الغريب أن يجمع الباري هذه العلوم في إمام مبين وهو القادر على كل شيء.

ومما يؤيّده ما روي عن أبي ذر الغفاري أنه قال: كنت سائراً في أغراض مع أمير المؤمنين عليه السلام إذ مررنا بواد ونمله كالسيل الساري فذهلت مما

---

(١) انظر تأويل الآيات: ج٢، ص٤٨٨، ح٤؛ مدينة المعاجز: ج٢، ص١٣٠؛ البحار: ج٢٦، ص١١٦، ح٢٢، مع اختلاف بسيط.

رأيت، فقلت: الله أكبر جل محصيه!! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقل ذلك يا أبا ذر، ولكن قل: جلّ بارئه، فوالذي صوّرك إنّي أحصي عددهم، وأعلم الذكر منهم والأنثى بإذن الله عزّ وجل»(١) وفي رواية أخرى عن عمار بن ياسر مثلها(٢).

وهذا ما تقرّه قواعد العقل والنقل؛ لأن الإمام عليه السلام هو الشاهد على الناس والحجة عليهم، ولابد وأن يكون مطلعاً على أحوالهم، حافظاً لأعمالهم وآثارهم، وهذا ما يشير إليه حرف الجر (في) إذ لم يقل (بإمام مبين) لأن الباء تفيد السببية والواسطية في الإحصاء ولا تفيد الحفظ والإبقاء للمحصي.

ولهذا الحفظ ثمرتان مهمتان فضلاً عن أصل المعنى:

الثمرة الأولى: لتكريس القدوة والأسوة في المجتمع بأن يكون إمامهم منهم وفيهم مطلع على أحوالهم، ويحفظها ويشهد عليهم، وبهذا يقربون إلى الهداية أكثر ويستشعرون الرقابة الدائمة.

الثمرة الثانية: تكريس مقام الإمامة والإمام في الحياة؛ لأنها أساس كل شيء في العقائد والأحكام والأعمال؛ إذ لولا الإمام والإمامة تاه الناس وضلوا وشقوا في الدنيا والآخرة.

---

(١) تأويل الآيات: ج٢، ص٤٩٠، ح٨؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٨٧؛ مدينة المعاجز: ج٢، ص١٣٢-١٣٣، ح٤٥٢؛ غاية المرام: ج٥، ص٢١٤.

(٢) الفضائل (لابن شاذان): ص٩٤؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٨٨، ح٢١.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أقسام الحياة والموت

اختلف المفسرون في أنّ الآية تتحدث عن إحياء الأموات في الحشر والآخرة أم في الدنيا أم الأعم، والأكثر ذهبوا إلى الأول[1]، وعلى هذا القول فإن الموت سابق على الحياة إلّا أنّه قدم الإحياء بالذكر؛ لأن الإحياء أعظم، بل ولأن إدراك هذه الحقيقة تستدعي الحياة؛ إذ لا يدرك المعاني إلّا الحي. أما الميت فلا يفقه شيئاً.

وذهب البعض إلى أن الاحياء هنا للدنيا، لان البشر كانوا معدومين لا حس لهم ولا حركة فأوجدهم وأحياهم وهو بعيد عن منطوق الآية وهناك قول ثالث أنّ المراد إحياء الارواح بالاخلاق والمعنويات لأنّه نوع إحياء يعبر عنه بالاحياء الحكمي في مقابل موت المعنويات ويعبر عنه بالموت الحكمي.

والحق أن إطلاق الآية يشمل الجميع إلّا أن الإحياء الروحي هو الأهم، وهو الذي يغفل عنه الناس. أما إحياء الآخرة والدنيا فامر معروف.

---

(١) التبيان: ج٨، ص٤٤٦؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٢.

وبيان ذلك: إنّ إحياء الموتى يعني جعلهم أحياء بأن يعطيهم الروح التي هي منشأ الحس والحركة والنمو والنفع والبقاء[1]، وقد عرّفت الحياة بذلك في مقابل الموت الذي هو منشأ السكون والجمود والفساد؛ لأن معنى الحياة سر من الأسرار، وإنما نعرفها بواسطة آثارها ومضاداتها؛ لذا عرفها البعض بأنها نقيض الموت أو ما فيه الحس والحركة، وواضح أن هذا ليس تعريفاً لحقيقة الحياة بل إشارة إلى آثارها.

والموت قسمان: موت الجسد وموت الروح، و الأول يتحقق بزهوق الروح وخروجها من البدن، والثاني يتحقق بموت القيم والسجايا الفاضلة.

والإحياء تارة يتعلق بالأول فيبدل الموت إلى حياة كالإنسان يخرجه من التراب ويصيّره نطفة، ثم تمر بمراحل تكوينها حتى يصير إنساناً كاملاً. هذا في المبدأ، وفي المعاد كذلك سيبعث الله سبحانه من يموت ويدفن في قبره في الآخرة.

وتارة يتعلق بالثاني فيبدل الروح الميتة إلى حية تنتعش فيها القيم والأخلاق العالية، ويصبح الإنسان بها صاحب عقل نيّر وقلب خيّر وضمير حي، فلا يعمل إلّا الصالحات، فلا يظلم ولا يرضى بالظلم والجور، والآية صريحة في أن الإحياء لا يكون إلّا من الله سبحانه هو الذي يحيي الموتى، أي موتى الأجساد وموتى القلوب والأرواح، والأولون يحييهم بإرادته التكوينية، أي بالخلق والإيجاد، والآخرون يحييهم بشريعته

---

(١) انظر معجم الوسيط: ج١، ص٢١٣، (حي).

وأحكامه وقيمه الربانية التي يبعثها إليهم، ويجعل لها مثالاً حياً يحتذى، يتجلى فيه جمال الله وجلاله وهو النبي والإمام عليهما السلام، ومن يكون امتداداً لهما من العلماء الربانيين.

وهذه حقيقة تعجز عنها العلوم، فإن العلم مهما تطور لا يستطيع أن يخلق الحياة، ويعجز عن نفخ الروح في الميت، فعلم الطب والعلوم الأخرى تطورت فاستطاعت أن تصنع الكثير إلّا أنها مكتشفة للحياة الموجودة، وليست مبدعة لها، أي العلم يستفيد من قوانين الله سبحانه ومخلوقاته لأجل تركيب الأشياء وصناعتها، فمثلاً قد يستطيعون تبديل الكلية أو القلب للإنسان، أو تنشيط بعض الخلايا، أو منع الموت بايقاف النزيف أو نحو ذلك، وهم بهذا لا يوجدون الحياة، بل يستفيدون من الحي للتنشيط والتفعيل ونحو ذلك. أما ذات الحياة فهم عاجزون عنها؛ لأن الحياة بيد الله سبحانه، وهو سبحانه من المطر والتراب يصنع شجراً ونباتاً وإنساناً وحيواناً، ويميت ويحيي، فالحياة بيده سبحانه، وهو الذي يحيي الموتى.

اللطيفة الثانية: بماذا تحيا الأرواح؟

أن اطلاق قوله (يحيي الموتى) يشمل حياة الروح، فإن الروح من أمر الله سبحانه، ولا أحد يعرف حقيقتها وسرها، فأمرها تكوينياً بيده، وكذلك تشريعاً حياتها بيده؛ لأن القيم الروحية في الوجود مرجعها إلى الباري عز وجل.

وبيان ذلك: أن القيم السامية لا تخلو إما أن تكون شرعية أو عقلية أو فطرية. هذه هي المناشئ التي منها تنبع القيم الإنسانية، ولكل واحد منها آثار وخصوصيات.

أولاً: المنشأ الشرعي، وهو الدين الذي جعله الباري عزّ وجل نظاماً للبشر يبني عقائدهم وأعمالهم ضمن النهج الإلهي القويم. الدين يدعو الناس إلى المحبة والسلام والتعامل الإنساني الرفيع. أمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي. هذه تعاليم الدين ومبادئه، وكلها تحيي الروح وتنعشها بالحياة الطيبة، وبخلاف ذلك مبادئ غير الدين فإنها تقوم على المصالح والأنانية وحب الذات، بينما الدين من الله سبحانه المنزه من الآفات والنواقص.

ثانياً: المنشأ العقلي، فإن العقل الإنساني لو تحرر من الشهوات والأوهام وكان سليماً فإنه يحكم على الإنسان بحسن الفضائل وقبح الرذائل، ويدعوه إلى التمسك بالمحاسن؛ لأن بها الاكتمال والارتقاء، وقبح الرذائل؛ لأن بها الانحطاط، والعقل مخلوق الله سبحانه، وأحكامه الأولية الضرورية تمثل أحكام الله سبحانه. إما للملازمة بين ما يحكم به العقل ويحكم به الشرع، أو لأن حكم العقل هو عين حكم الشرع بما أنّ الله سبحانه جعل العقل محور الحق والباطل والثواب والعقاب كما حققناه في الأصول.

ثالثاً: المنشأ الفطري، أي الطبع الإنساني الأولي، فإنه مجبول على حب الخير والعدل والعمل الصالح، فيفر من الظلم والعدوان، وسائر الفضائل الأخلاقية العالية تعود إلى الفطرة والطبع الإنساني الأولي، والمبادئ الأخلاقية غذاء الروح وحياتها.

ونلاحظ أن القيم الحقة والمبادئ السامية تنشأ من الدين والعقل والفطرة، وهذه الثلاثة تعود إلى الله سبحانه بتكوين الإنسان، فإنّ الله

سبحانه خلق الإنسان وأعطاه العقل والفطرة، وأنزل عليه الدين، وكلها تدعوه إلى الارتقاء والكمال الإنساني، فحياة الروح كحياة الجسد كلاهما من الله سبحانه.

إن قلت: إذا كان الأمر كما تقولون كيف نلاحظ اليوم بعض المجتمعات في العالم لا تلتزم بالدين ولها مبادئ إنسانية تحكمها وقوانين فيها شيء من الإنصاف بينما نلاحظ أن المجتمعات المؤمنة بالدين ليست كذلك؟

والجواب:

أولاً: أنّ ما نلحظه في بعض المجتمعات الغربية والشرقية ليس هي المبادئ الإنسانية الكاملة ولا العدالة التامة. نعم هي بالقياس إلى بعض المجتمعات الأخرى الأدنى مستوى أفضل في أساليبها وقوانينها، فالقوانين والأنظمة لازالت تفتقر إلى الإنسانية والعدالة.

ثانياً: أن هذه المجتمعات التي يعبر عنها بالمتطورة فإن مبادئها الإنسانية وقوانينها المنصفة - بحسب ما يقال - من أين أخذت؟ لا تخلو إما أخذت من شرائعهم السماوية، أو من الفطرة، أو من العقل، فهي في محصلتها مأخوذة من الله سبحانه، ولأن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وهو لطيف بعباده لا يحرم المجتمع الذي يريد الرحمة والعدل من ذلك ولو لم يكن مؤمناً به أو كان محارباً للدين؛ لأنه سبحانه خلق الدنيا لأجل الابتلاء والاختبار، فلا يحرم أحداً من عطائه، ولا يمنع من أراد الوصول إلى غايته وإن كان شريراً؛ إذ يقول سبحانه: ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هؤُلاَءِ وَهؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ**

﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[١] فالعدالة والإنسانية النسبية الموجودة في العالم مرجعها إلى الله سبحانه بما أودع في البشر من فطرة وعقول تهديهم للفضائل العالية، وأنزل لهم من أديان تحثهم وتشرع لهم ذلك.

وأما ما نلاحظه في تلك البلاد من فساد أخلاقي وسياسي وظلم واستغلال فذلك يعود إلى أنفسهم؛ لأن الظلم والفساد ينشآن من هوى النفس والشيطان، فبمقدار ما يلجأ العبد إلى الله سبحانه يكون إنسانياً في مبدئه وسياساته، وبمقدار ما يقترب من الهوى والشيطان يكون شيطانياً في مبادئه وسياساته، وسياسة العالم اليوم القائمة على الظلم والفساد ليست من حياة الروح، بل من حكومة الثقافات الباطلة التي منشؤها الهوى والشيطان.

فما لله سبحانه هو الخير، وما للشيطان هو الشر؛ لذا يقول سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٢] وفي ذلك إشارة إلى أن السيئة ليست وصفاً ذاتياً للأشياء، وإنّما هي نتيجة لأعمال الإنسان المشوبة بالهوى والشيطان؛ لذا يقول في آية أخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[٣] وهي في الوقت الذي تثبت أن المساوئ والمصائب من الإنسان تشير إلى أن ما يصاب به الإنسان هو بعض نتائج أعماله لا كلها؛ لأن الله سبحانه يعفو عن الكثير ولا يصيبه إلّا القليل، وفي ذلك دلالة على رحمة الله وفضله، وقد تضافر في

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٠.

الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلّا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»(١) وفي رواية الحسن بن علي الوشاء عن الإمام الرضا عليه السلام أن الله تعالى يقول لعبده المبتلى بالمصائب والآلام: «أنت أولى بسيئاتك مني. عملت المعاصي بقوتي التي جعلت فيك»(٢).

وأما ما نلاحظه في البلاد المؤمنة من ظلم وفساد فذلك أيضاً يعود إلى ابتعادهم عن الله سبحانه، وتمسكهم بالشيطان ونهجه، ولما كانوا متمسكين بنهج الله سبحانه وشرعه كانوا سادة العالم، فالخلل الحاصل في بلادنا ليس من الدين ولا من مبادئه، بل من ابتعاد الناس عنه؛ لذا قال سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٣) أي أن الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وآله يدعوان إلى الحياة لا إلى الموت، لكن ذلك بشرط الاستجابة لهما لا التخلي عنهما والتمسك بالمبادئ الباطلة.

ومن ذلك نعرف حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الموت والحياة الجسديين قهريان، ولكن الموت والحياة الروحيين اختياريان؛ لأن حياة الروح وموتها بيد الإنسان،

---

(١) تخريج الأحاديث والآثار: ج١، ص٢٤١، ح١١٥١؛ وانظر مجمع البيان: ج٣، ص١٣٨، وفيه: «ما من خدش بعود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم إلّا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

(٢) تفسير العياشي: ج١، ص٢٥٩، ح٢٠١؛ البحار: ج٥، ص٥٦، ح١٠٠؛ وانظر مواهب الرحمن: ج٩، ص٧٠ ـ ٧١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

وترجعان إلى تمسكه بالدين والعقل والفطرة، فكل من التزم بها كان حياً، والذي يتبع النفس والهوى ميت.

وهناك نكتة قيمة يذكرها أهل المعرفة وهي أن العلاقة بين موت الجسد وحياة الروح مطردة، فإذا مات الإنسان ارتفعت روحه وارتقت عن نواقص الدنيا، وإذا أمات الإنسان جسده بقتل الشهوات إزداد ارتقاء وكمالاً، ولذا ورد في بعض النصوص: «موتوا قبل أن تموتوا»[١] أي موتوا في شهواتكم وغرائزكم قبل أن تزهق أرواحهم؛ لأن بإماتة الجسد ارتقاء الروح وبلوغ المقاصد العالية.

الحقيقة الثانية: أن الموت الجسدي له معنى واحد وهو خروج الروح من الجسد، إلّا أن الموت المعنوي له معان ومصاديق عديدة، كما أن الموت الجسدي له أجل واحد وموعد واحد يقع في نهاية عمر الإنسان، إلّا أن الموت المعنوي يلازم حياة الإنسان في كل زمان ومكان، وكذلك الحياة المعنوية، ولذا ورد في النصوص الشريفة وصف بعض الناس الأحياء جسدياً لكنهم أموات روحياً، ويعبر عنه بميت الأحياء في مقابل من هو ميت جسدياً لكنه حي روحياً، ويعبر عنه بحي الأموات. أذكر نموذجين لذلك، وسيأتي المزيد:

الأول: العلم والجهل، فقد وصف العلم في الروايات بالحياة والجهل بالموت، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن «الجاهل ميت بين الأحياء»[٢]

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٤٠، الهامش؛ البحار: ج٦٦، ص٣١٧؛ بيان: ج٦٩، ص٥٩، ح١.

(٢) غرر الحكم: ٢١١٨؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٦٥.

وعنه عليه السلام: «اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة»[١] و: «العلم إحدى الحياتين»[٢] أي حياة الروح وحياة الجسد؛ ووصف العالم الذي يحفظ المعلومة ولا يعمل بعلمه ويسخره لدنياه بانه ميت الأحياء. قال عليه السلام: «وآخر قد تسمى عالماً وليس به ... فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميت الأحياء»[٣].

الثاني: الهداية والضلالة، فإن الذي لا يرى نور الله في خلقه وآيات جلاله وجماله ميت، والذي يراه في كل شيء حي.

وقد روى الكليني في الكافي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله تبارك وتعالى: « ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾»[٤] فقال: ميت لا يعرف شيئاً ﴿**نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ إماماً يأتم به ﴿**كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾[٥] قال: الذي لا يعرف الإمام»[٦].

وهو ما يقضي به العقل؛ لأن الإمام قدوة البشر في جميع الأفكار والأفعال والمواقف، فإن كان عن الله سبحانه كان نوراً، وإن كان عن الهوى والشيطان كان ظلاماً، والذي يهتدي بالأول حي، والذي يهتدي بالثاني ميت.

---

(١) غرر الحكم: ٢٤٨٦؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٩٢، وفيه: «اكتسبوا العلم يكسبكم الجاه».
(٢) غرر الحكم: ١٦٢٨؛ روائع نهج البلاغة: ص٢٣٠.
(٣) نهج البلاغة: ج١، ص١٥٣، خطبة (٨٧).
(٤) سورة الأنعام: الآية١٢٢.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.
(٦) الكافي: ج١، ص١٨٥، ح١٣.

اللطيفة الثالثة: صحيفة أعمال الأمة

يستفاد من الآيات الكريمة أن أعمال البشر وآثارهم تكتب في أكثر من كتاب، وتظهر له يوم القيامة. نشير إلى اثنين منها:

الأول: صحيفة لأعماله، فإن لكل شخص صحيفة عمل تحصي جميع ما قدم وأخر على مدى عمره سيراه أمامه في الآخرة حينما يحضر للحساب يفتح هذا الكتاب، ويكون شاهداً عليه، فيسقط أعاذيره، فيقال له: ﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾[1] وحينئذ يندم المجرمون حينما يجدون قد أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة، ولم يفلت منه شيء حتى نية السوء التي أضمروها يظهرها، وهناك يتمنون الهلاك فيقولون: ﴿**يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلّا أَحْصَاهَا**﴾[2] وصيغة المضارع (لا يغادر) بلسان لا النافية يفيد أنه مستمر في التدوين، ويحصي عليهم حتى ما يقولونه في المحشر، فهو كتاب مفتوح دائماً ولم يغلق، وإلّا لورد بلسان النفي بلم.

الثاني: صحيفة أعمال الأمة، ويحصي عليها أعمالها الجماعية من أفكار ومعتقدات ومواقف سواء في الطاعات أو في المعاصي، فالأمة التي تركن للظلم والظالم تكون ظالمة، والتي تطلب العدل وتنصره تكون عادلة، ولكل واحدة منهما كتاب تدعى به في الآخرة؛ لذا تقضي الأدلة بوجود

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

بعض العقوبات الجماعية لا ينجو منها أحد بسبب الظلم الجماعي. قال تعالى: ﴿**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا**﴾[١] وقد كتب في هذا الكتاب ما قدمت من أعمال وآثارها؛ لذا يقول تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾[٢].

فالبعض قد يتصور أنه لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين ولم يتصد لمعالجة مشاكل الأمة سيكون في منجى، إلّا أن القرآن الكريم ينفي ذلك ويقول بأن كتاب الأمة يسجل على الناس جميع ما يقدمون ويتركون من آثار لا يفترق فيها الظالم والمعين عليه والساكت عليه، وتؤكد هذه الحقيقة الروايات الشريفة.

ففي الكافي بسنده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «اتقوا المحقرات من الذنوب! فإن لها طالباً، يقول أحدكم: أذنب وأستغفر! إن الله عز وجل يقول: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[٣] وقال عزّ وجل: ﴿**إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَو فِي السَّمَاوَاتِ أَو فِي الأَرض يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[٤]»[٥] فلا ينبغي للمؤمن أن يستصغر الذنوب والقبائح،

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية٢٥.

(٣) سورة يس: الآية ١٢.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٦.

(٥) الكافي: ج٢، ص٢٧٠، ح١٠؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣١١، ح٢٠٦٦.

ولا يستهين بشيء من قوله أو عمله؛ لأن كل شيء محسوب عليه.

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام: ﴿أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه أئتوا: بحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب. قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هكذا تجتمع الذنوب ثم قال: إيّاكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين[(١)].

والمحقرات قد تقرأ بصيغة اسم المفعول وتفيد الذنوب الصغيرة التي غالباً ما يغفل عنها أو يتهاون بها، وقد تقرأ بصيغة اسم الفاعل فتكون أعم، ويراد بها الذنوب التي تقلل من شأن صاحبها وتجعله حقيراً أمام نفسه وربه والناس.

وفي مجمع البيان: قيل معناه: نكتب خطاهم إلى المسجد، فقد روي أن بني سلمة كانوا في ناحية من المدينة فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بُعد منازلهم من المسجد والصلاة معه، فأرادوا أن يبيعوا دورهم ويتحوّلوا قريب المسجد، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فكره أن تعرى المدينة فقال: ﴿يا بني سلمة أما تحبون أن تكتب آثاركم إلى المسجد؟﴾ قالوا: بلى، فأقاموا فنزلت الآية[(٢)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٨٨، ح٣؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٣، ص٣٣٢، ح٨٥٣..

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٣؛ التبيان: ج٨، ص٧٤٧؛ الدر المنثور: ج٥، ص٢٦٠؛ تفسير الفرقان: ج٢٣، ص٣٤٤- ٣٤٥، هامش ٤ تفسير الآية المزبورة.

وفي ذلك دلالة على أن خطوات الإنسان إلى الطاعة وعمل الخير وإصلاح ذات البين تعد من آثاره وتكتب كما ان خطواته إلى المعصية والشر تكتب.

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا النار ولو بشق التمرة، فالله عزّ وجل يربيها لصاحبها كما يُربي أحدكم فلوَّه أو فصيله حتى يوفّيه إيّاه يوم القيامة، وحتى يكون أعظم من الجبل العظيم»[1] وسبب ذلك هو كتابة آثار العمل المستمرة التي تكثر وتتراكم. -والفلو المُهُر يفصل عن أمه فيأخذه من يربيه ليكبر وينتفع منه[2]-.

وفي حديث آخر يعلم النبي صلى الله عليه وآله أسهل طرق الصدقة والتصدق لكي يزيل عن النفوس الثقل والكسل. يقول صلى الله عليه وآله: «إنّ على كل مسلم في كل يوم صدقة» قيل: من يطيق ذلك؟ قال صلى الله عليه وآله: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وردّك السلام صدقة»[3].

وفي رواية أخرى: «كل معروف صدقة»[4].

---

(١) الوسائل: ج٩، الباب ٧ من أبواب الصدقة، ص٣٨١، ح١٢٢٨٩؛ البحار: ج٩٣، ص١٢٢، ح٢٩.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٣٣٢ (فلا).

(٣) الدعوات: ص٩٨، ح٢٣٠؛ مستدرك الوسائل: ج٧، الباب ٤٠ من أبواب الصدقة، ص٢٤٢، ح٨١٤٤؛ البحار: ج٩٣، ص١٨٢، ح٣٠.

(٤) الكافي: ج٤، ص٢٦، ح١، وح٢؛ الخصال: ص١٣٤، ح١٤٥؛ الدعائم: ج٢، ص٣٢٠، ح١٢٠٦.

فإذا كانت الصدقة جارية فإنّ لها آثاراً مستمرة فيجدها صاحبها كالجبل العظيم، ولم ينفق عليها درهماً، ولا يقطع لها وادياً، ولم يصعد لها جبلاً.

هذه رحمة الله ولطفه بعباده، وهذا دينه السمح الذي يرتقي بالإنسان وينجيه من العذاب لأدنى سبب.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أن الصدقة جرت على يدي سبعين ألف ألف إنسان كان أجر آخرهم مثل أجر أولهم»[1].

(١) انظر ثواب الاعمال: ص١٧٠، ح١٤؛ كنز العمال: ج٦، ص٣٩٠، ح١٦١٩٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ضوابط التوفيق الدلالي بين الآيات والروايات

يكثر الكلام بين المفسرين في بيان الآيات الشريفة، وتتعدد أقوالهم كما لاحظناه في تفسير الإمام المبين، وفي بيان معنى الذكر الوارد في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ وفي بيان معنى (يس) وموارده كثيرة.

كما يكثر الكلام بينهم في الروايات التي تفسر معاني القرآن، فتفسر يس بالنبي والذكر بأمير المؤمنين عليه السلام والإمام المبين كذلك، وفي الغالب يحملون هذه الروايات على بيان المصداق أو التأويل ولا يرفعون اليد عن المعنى اللغوي للآية أو السياق، ويعدون ذلك نوعاً من الجمع الدلالي، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نلحظ ما هي الضابطة التي اعتمدوها أو التي ينبغي أن تعتمد للجمع الدلالي، ومنها يعرف ما هو النهج الصحيح الذي ينبغي أن يتبع في الجمع بين الآيات والروايات الشريفة، وبواسطته نرفع الغموض والإبهام بل والتحير الذي قد يصيب البعض حينما يلحظ الروايات الواردة في بيان معاني الآيات على خلاف اللفظ الظاهر منه.

ولا يخفى أن هذا البحث من أعمق المباحث وأهمها، ولو تم في أسسه ونتائجه كان قاعدة تسهل فهم الكثير من الروايات، وتعالج

الكثير من النصوص المتعارضة بحسب ظواهرها، وفي عين الحال تثبت مدى قوة الترابط بين القرآن والسنة، وتكون المعيار لمعرفة الآراء الصحيحة من السقيمة.

وخلاصته: أن الجمع الدلالي بين النصوص المتخالفة في بادئ النظر وكذا الأقوال يقوم على ضوابط لو لاحظها الجامع فإنه يتوصل إلى إمكان الجمع وصحته، وعمدة ذلك ضابطتان:

الضابطة الأولى: ملاحظة وجود جامع ماهوي حقيقي أو اعتباري تشترك فيه جميع المعاني، وحينئذ يصح أن نحمل المعاني المتعددة على بيان المصاديق، وهذا أمر متبع في فهم المعاني والترابط الواقعي بينها.

فالأصل العام أنّ الخصوصية لا تكون للأفراد بل للجامع المشترك بينها، لذلك اتفقت الكلمة على أن المورد لا يخصص الوارد، كما اتفقت على أن الأصل في الجمل الشرعية القضية الحقيقية لا الخارجية. وحينئذ يمكن أن يكون البيان ناظراً إلى الجامع من خلال الفرد. مثلاً في قوله تعالى: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾[1] خطاب موجه لاثنين، وقد اختلف المفسرون في المراد منها، فقيل هو خطاب لخازن النار، وقيل هما ملكان أحدهما يسوقه إلى الحساب والآخر يشهد عليه، ودليله سياق الآيات الشريفة، وورد في أخبار الفريقين أن الخطاب للنبيﷺ وأمير المؤمنينعليه السلام، ففي رواية أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: «إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى لي

(١) سورة ق: الآية ٢٤.

ولعلي: ألقيا في النار من أبغضكما، وأدخلا الجنة من أحبكما وذلك قوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[(١)] وعن الصادقعليه السلام أنه معنى علي عليه السلام قسيم الجنة والنار[(٢)].

وربما يتصور البعض وقوع التنافي إلّا أن ملاحظة ضابطة الجمع الدلالي يحل هذا، وذلك لوجود جامع ماهوي مشترك وهو من بيده أمر الحساب والعقاب والثواب، ولا شك أنه لا يكون جزافياً، بل يكون على حسب نظام، والنظام يقتضي وجود حاكم ومحكوم أي آمر ومنفّذ، فيفهم منه أن الخطاب موجه للنبي والإمامعليهما السلام باعتبار أنهما الآمران والناهيان، وإلى الملائكة باعتبار أنهم المنفذون، فالرواية ناظرة إلى بيان المصداق الأعلى، والسياق ناظر إلى المنفِّذ.

الضابطة الثانية: ملاحظة وجود أثر مشترك بين جميع المعاني وإن كانت مختلفة في الماهية والحقيقة، وباعتبار وحدة الأثر قد يتوصل إلى وحدة المؤثر، أو وحدة جهة التأثير، فيتوصل إلى وجود جامع ينضوي تحته المعنيان المشتركان أو المعاني، وهذا الجامع يسمى بالجامع العنواني، وربما يمكن جعله جامعاً ماهوياً بنحو الحقيقة الادعائية.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٩، ص٢٤٤؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص١١٣، ح٣٥؛ البحار: ج٨، ص٢٦٦.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٢٤.

مثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾(١) فقد فسِّر الذكر بمعان عديدة، فبعضهم فسره بذكر اللسان، وبعضهم بالعبادة، وبعضهم بالقرآن الكريم، وبعضهم بالفطرة، وبعضهم بالنبي والإمام عليهما السلام(٢)، ولدى التأمل في جميع هذه المعاني نجد أنها تشترك في جامع عنواني واحد وهو كل ما يزيل الغفلة والنسيان، وهذا العنوان ينطبق على كل هذه المعاني وإن تفاوتت المراتب، وإنّما أطلق على كل واحد منها لفظ الذكر بلحاظ اشتراكه في الأثر، وهو إزالة الغفلة والنسيان مع أن الماهيات متفاوتة؛ بداهة أن ذكر اللسان قول بينما العبادة عمل، والقرآن حقيقة نورية واقعية والفطرة وجود نفساني، والنبي والإمام عليهما السلام وجود إلهي بشري، ولا يوجد جامع ماهوي بين القول والعمل والإنسان والأعيان الخارجية إلّا أنها اشتركت في الأثر فأطلق عليها عنوان الذكر.

ويمكن إرجاعها إلى جامع ماهوي مجازي بالحقيقة الادعائية بأن ندعي أن حقيقة الذكر هو كل ما يذّكر الناسي والغافل، فحينئذ يكون الإطلاق من جهة الاشتراك في الجامع لكنه مجاز، والاشتراك الحقيقي في الأثر، وعلى هذا الأساس يصح الجمع بين الأقوال المتعددة، ويصح قول المفسرين إذ فسروا الروايات الواردة الناصة على أن الذكر هو المعصوم عليه السلام من باب كونه أحد أسبابه.

---

(١) سورة يس: الآية ١١.

(٢) لقد مر ذلك في بيان المراد بالذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ سورة يس: الآية١١.

وإلى هذا الجمع قد يرجع تفسير الآيات بالظاهر والباطن مع إمكان جعلها ضابطة مستقلة، فإنه قد يلحظ الاشتراك في الأثر، أو يوسع في مفهوم المعنى ليشمل الاثنين. مثلاً في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(١).

ذكروا للبحرين معاني عديدة:

منها: البحر المالح والبحر العذب.

ومنها: بحرا فارس والروم يلتقيان في المحيط؛ لأنهما خليجان؛ لقوله تعالى في ذي القرنين: ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾.

ومنها: بحر السماء وبحر الأرض(٢).

و﴿لاَ يَبْغِيَان﴾ لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما من جزر ونحوها.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال: «من ماء السماء ومن ماء البحر، فإذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر فيقع فيها من ماء المطر، فتخلق اللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة واللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة»(٣).

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١٩-٢٢.

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٣٣٣؛ البحار: ج٥٧، ص٢٧؛ وانظر فتح الباري: ج٦، ص٢٣٧؛ عمدة القارئ: ج١٥، ص١٦٣.

(٣) قرب الإسناد: ص١٣٧، ح٤٨٥؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٦١؛ البحار: ج٥٦، ص٣٧٣، ح٦.

وورد في الأخبار المتضافرة عن جمع من الصحابة أن البحرين علي وفاطمة عليهما السلام، واللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين عليهما السلام[١]، وأنّ البرزخ هو النبي صلى الله عليه وآله[٢].

وربما يبدو للبعض أنّ ما ورد في الروايات ينافي ما ورد في تفسير الآيات أو منطوقها، ولكن إذا لاحظنا ضابطة الجمع المتقدمة نجد وجهاً للجمع بينهما، فلو لاحظنا معنى البحر سنجد تمام الارتباط بين المعنى الظاهر والباطن، فالبحر يطلق على كل متوّسع في شيء، والعرب تسمي الفرس سريع الجري بحراً، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله ركب فرساً فقال: وجدته بحراً، ويطلق البحر على العالم المتوسع في علمه[٣].

وبذلك يتضح وجه الترابط بين الآية والروايات، ومثله يقال في الجمع بين قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الإنسان ۞عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[٤] فإن السياق ظاهر في جنس الإنسان إلّا أن الروايات فسرت الإنسان بأمير المؤمنين عليه السلام، ووجه الجمع يعود إلى وجود جامع ماهوي بينهما وهو الإنسان، إلّا أن له مصداقين الكامل والأكمل، ولا شك في أن أكمل مصداق للإنسان الذي

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٦١ ـ ٥٦٣؛ تفسير الصافي: ج٥، ص١٠٩؛ الخصائص الفاطمية: ج٢، ص٣٧٥.

(٢) تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣٦، ح١٢؛ الخصائص الفاطمية: ج٢، ص٣٧٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٠٩، (بحر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٤ (بحر).

(٤) سورة الرحمن: الآيتان ٣-٤.

بيده البيان هو أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ورد في الأخبار أنّ الله سبحانه علّمه بيان كل شيء يحتاج إليه الناس[١].

ونلاحظ أن إرجاع المعاني إلى جامع ماهوي وإن اختلفت في الرتبة أو في الطولية يحل التنافي الظاهر، ويصح به الجمع الدلالي، وهذا المعنى ينطبق على أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة عليها السلام؛ لأنّ كلاً منهما بحر، والمرج أي الخلط، ومنه الهرج والمرج أي الخلط في الأمور، والجن خلق من مارج من نار؛ لأنه نار مخلوط بدخان[٢]، ولا يبغيان أي أنهما يلتقيان ولا يفقد كل منهما خواصه وملكاته ومقاماته، فيعطيان شيئاً ثالثاً، ولا أحدهما يغلب الآخر. كل منهما يورث أبناءه سماته ومكانته.

وبهذا الامتزاج والالتقاء يخرج اللؤلؤ والمرجان، و الأول يشير إلى صفة النقاء والصفاء والطهارة، وهي أبرز سمات الحسن عليه السلام، والثاني يشير إلى صفة التلون بالدم والشهادة كما هو لون المرجان، وهي أبرز صفات الحسين عليه السلام على ما عرف في بعض كتب اللغة[٣]، وهذا المعنى لا يفهم من العبارة والمدلول اللفظي للآية، وإنّما يفهم من لغة الإشارة وملاحظة الظاهر والباطن والاشتراك في الأثر، ويتوصل إليه بملاحظة وحدة الجامع، أي البحر بعد تجريده من خصوصياته الخاصة، أو وحدة الأثر.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٥١.

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٢٩، (مرج).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٣٢٩، (مرج).

هذا كله ينطبق في النصوص المطلقة، وأما إذا اشتمل النص على القرينة الخاصة التي تعيِّن المعنى في مفهوم واحد فقط لا يقبل الانطباق على غيره فلا يبقى موضوع للجمع كما في آية التصدق بالخاتم، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1] فإنّ تقييد إتيان الزكاة بحالة الركوع مختصة بأمير المؤمنين عليه السلام فلا تشمل غيره مهما حاولوا أن يدعوا، ولو لاحظنا تعدد الأقوال في بيان معنى الولي المقصود فإنّه يكون باطلاً؛ لقيام الدليل على حصر المعنى بواحد لا غير، وقد ذكر مفسرو العامة أنّ الولاية هنا بين المؤمنين وهي ولاية النصرة والمعونة والمؤازرة والتواصي بالحق[2].

وفي عين الحال تضافرت الروايات بطرقهم أنّ الآية تعني علياً عليه السلام، وقد أورد العلامة البحراني قدس سره في عاية المرام أربعاً وعشرين رواية من طرقهم وتسعة عشر حديثاً من طرقنا كلها تؤكد ما ذكرنا[3]، بل تجاوزت المصادر التي تحدثت عن هذه الحقيقة الثلاثين مصدراً[4].

وواضح أن ماقالوه لا يستند إلى دليل عقلي أو نقلي، ولا يتوافق مع منطوق الآية؛ لذا يمتنع الجمع، وبناء على هذا فإنّ الجمع الدلالي يصح فيما لا يوجد دليل على التخصيص؛ إذ يلحظ وجود الجامع الماهوي والاشتراك

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٢) انظر تفسير الشعراوي: ج٥، ص٦٠٢.

(٣) غاية المرام: ج٢، ص٥-٢٢.

(٤) انظر الغدير: ج٣، ص١٥٦؛ شرح إحقاق الحق: ج٤، ص٦٠.

في الحقيقة أو الجامع العنواني والاشتراك في الأثر، فترجع المعاني المتعددة إليهما، وتحمل على تعدد المصاديق أو تفاوت الرتب.

وأما إذا قامت القرينة على الحصر فيمتنع الجمع. إذا اتضح يتضح وجه الجمع بين معاني الإمام التي ذكرها المفسرون في هذه الآية المباركة: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ وقد عرفت انهم ذكروا معاني عديدة:

منها: اللوح المحفوظ.

ومنها: الكتاب.

ومنها: القرآن.

ومنها: العلم والروايات نصّت على أنّ الإمامعليه السلام هو أمير المؤمنين والأئمةعليهم السلام، وربما يمكن الجمع بين اللوح والكتاب والقرآن لأنّها جميعاً كتاب، وهو جامع ماهوي يجمعها، فتكون المعاني الثلاثة مصاديقه، ويمكن أن يجمع بين العلم وبين الإمام المعصومعليه السلام لما عرفت من أن الإحصاء لا يكون إلّا من قبل العالم، فتنحصر المعاني بين اثنين هما: الكتاب الذي قاله المفسرون والإمام المعصوم الذي نصت عليه الأخبار.

ولو كانت الآية تقول: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ**﴾ أمكن الجمع بينهما بالجامع العنواني، باعتبار أن الباري عز وجل يحصي الأعمال والآثار في الكتاب أو في الإمام، ولكن الآية وصفت الإمام بأنه (مبين) وهذا الوصف لا يصح في الكتاب؛ لأنه خازن للعلوم والمقدرات ولا يبيّنها، والمبين يجب أن يتصف بصفات ثلاث:

الأولى: أن يكون هو بنفسه بائناً ظاهراً يعرفه الناس ويأتمون به وليس بأمر غيبي لايدركونه.

الثانية: أنّه مبيِّن لهم ما يدركونه ويفهمونه، أي يتكلم بلغتهم وبمستواهم.

الثالثة: أنه مرجعهم عند الحاجة، ففي كل معضلة احتاجوا فيها إلى البيان رجعوا إليه، وهذه الصفات لا تنطبق على الكتاب بل على الإمام المعصوم عليه السلام.

والنتيجة: أن لفظ الإمام حقيقة في الرئيس المقتدى المقدَّم في الأمور، والمبين وصفه، وهذان دليلان على اختصاص معنى الآية بالمعصوم عليه السلام وعدم صحة التفاسير المذكورة لأنها مخالفة للظهور وفاقدة للدليل.

وبذلك يظهر أن الجمع الدلالي الذي ذكره بعض المفسرين على خلاف التحقيق أيضاً، ولذا ورد عن ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أنا -والله- الإمام المبين أبيّن الحق من الباطل، وورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله »[(١)].

والقسم شاهد على الحصر، وربما حاول البعض أن يجمع بين المعنيين باختلاف الرتبة؛ لأنّ كل ما في اللوح من المقدرات الإلهية ينعكس على قلب النبي والإمام عليهما السلام، وهو الذي يبينها ويدبر أمرها باعتباره خليفة الله سبحانه في العالم، إلّا أن تفسير الإمام باللوح لا يتناسب مع المعنى اللغوي والوصف[(٢)].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٢؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٧٩، ح٢٨، البحار: ج٣٥، ص٤٢٧، ح١، وفيهما: (ورثته بدل وورثته).

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٠٩.

التعليم الثاني: هل تناقض القرآن مع الإمام المبين؟

ربما ينقض ما ذكرناه في التعليم الأول بجملة من الآيات الشريفة التي وصفت الكتاب بالمبين وكذا القرآن الكريم، وفي الأول وردت آيات عديدة منها قوله سبحانه: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إِلّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلّا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِين**﴾(١) فوصف الكتاب بأنه مبين، وقد فسروا الكتاب بتفسيرين هما: العلم الإلهي، والتقدير الإلهي، والثاني يعود إلى الأول؛ لأن التقدير حدوثاً وبقاء يتفرع عن العلم.

والثاني قال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾(٢) وإن في الآية نافية، والإثبات بعدها يفيد الحصر، فما هو مرجع الضمير أي هو؟ فقال جماعة بأنه القرآن ومبين وصف له، وقال جماعة أنه وصف للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بقرينة قوله سبحانه في صدر السورة: ﴿**يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾(٣) ثم هنا عطف عنه القول فقال سبحانه: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً**﴾(٤) فإنّ مرجع الضمير في الكل يعود إلى النبي المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ(٥)، فيدل

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٢) سورة يس: الآية ٦٩.

(٣) سورة يس: الآيات ١-٣.

(٤) سورة يس: الآية ٧٠.

(٥) انظر مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٧؛ بيان السعادة: ص٢٩١.

مجموع الآيات على وصف النبي صلى الله عليه وآله بالقرآن، ويؤكد ما ورد في الأخبار من وصفه بالقرآن الناطق، وهذا المعنى يؤكد ما ذكرنا من تفسير الإمام المبين بالمعصوم عليه السلام، وأما على المعنى الأول فالظاهر أن الحمل عليه ممتنع؛ لاستلزامه تعريف الشيء بنفسه؛ لأن مفادها يكون (إن القرآن إلّا قرآن وقرآن كريم) فلا يفي بالغرض، وعلى فرض التسليم جدلاً فإنه متناقض؛ لأن مفهوم القرآن المبين غير الإمام المبين.

والحق أن وصف القرآن بالمبين لا ينافي وصف الإمام بالمبين بل يتحد معه.

وبيان ذلك: تقدم أنّ (المبين) اسم فاعل، ويدل على أنه بائن في نفسه ومبيِّن لغيره؛ وبيان القرآن يقع بنحوين:

الأول: بالفاظه وعباراته لكونه قراناً عربياً وهو بيان للناس، وهذا تام في نفسه؛ لذا صار حجة على الناس وأعجزهم، ومن هذه الناحية صار شاهداً على صدق النبوة، وبهذا الاعتبار يكون القرآن بائناً في نفسه.

الثاني: بمعانيه ومضامينه وحدوده وأحكامه، ومن هذه الجهة ليس ببابن، بل يفتقر إلى المبيّن، إذ لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم، ولا يمسّه إلّا المطهرون، فهو في معانيه ليس بمبيّن بل يفتقر إلى المبيّن، وهذا ما تضافرت فيه الآيات والروايات التي أرجعت الناس في فهم معاني القرآن إلى النبي والعترة عليهم السلام وهو ما يشهد له العقل والوجدان؛ لأنَّ القرآن فيه المحكم والمتشابه، وفيه العام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، وهذا ما لا يعرفه إلّا المعصوم عليه السلام.

فالقرآن الكريم من حيث عباراته بائن في نفسه ولكن من حيث معانيه ومضامينه ليس ببائن، بل يفتقر إلى المبيّن.

والمبيّن هو المعصوم عليه السلام، وهذا يكون قرينة على أن قوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾[1] وصف للنبي صلى الله عليه وآله فيرتفع التناقض، وهذا ما يعززه قولهم عليهم السلام: «كتاب الله عزّ وجل على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء عليهم السلام »[2].

وتحدي القرآن كان للناس في حدود عبارته لا في معانيه ومضامينه، وطلب أن يأتوا بمثله؛ لأن العرب يعرفون اللغة والأدب فيتحداهم من الفن الذي يعرفونه، وأثبت عجزهم عنه، ولم يطلب منهم أن يأتوا بمثله في المضامين والمعاني؛ لأنّه من طلب المحال؛ لقصروهم عن بلوغ معانيه، وإلى يومنا هذا ومهما تطور العلم لا يبلغ عمق ما ورد به القرآن إلّا بمستوى العبارة والإشارة، وهذه الحقيقة كان يقرها العرب؛ لأنهم يذعنون لجهلهم بمعاني القرآن وعدم قدرتهم على فهمه، فالقرآن من حيث الألفاظ بيّن لهم، ولكنه من حيث مضامينه ليس بمبيّن، بل يحتاج إلى من يبيّنه وليس إلّا المعصوم عليه السلام، والأدلة العقلية والنقلية عليه كثيرة، ويؤيّده أنّ حتى من

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٠٥، ح١٥٥؛ البحار: ج٧٥، ص٢٧٨، ح١١٣؛ أعلام الدين: ص٣٠٣.

قال: (حسبنا كتاب الله)(١) لم يتمكن أن يستفهم من القرآن ما يحتاجه من معان ومضامين، فكان يرجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام يبيّن له معاني القرآن وأحكامه، ولم يتمكن مفسر ولا فقيه ولا عالم أن يفهم عمق دلائل القرآن ومضامينه دون الرجوع إلى السنة الشريفة.

فيتحصل: أن وصف القرآن بالمبين لا يتنافى مع وصف الإمام بالمبين؛ لأن القرآن المبين هو المعصوم عليه السلام.

يبقى الكلام في وصف الكتاب بالمبين كما في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلّا فِي كِتَابٍ مُبِين**﴾(٢) فإنه ظاهر في أن الحوادث الإمكانية والوقائع والمقدرات كلها محفوظة في كتاب، ويعززه قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالأرض إلّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾(٣) وقوله سبحانه: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّماءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾(٤).

ومن مجموعها استظهروا أن المراد من الكتاب العلم الإلهي الذي إليه تعود حوادث الوجود وتبدلاتها وتحولاتها، وهي وإن تحدث بالقدرة والتقدير والمشيئة الإلهية إلّا أنّ التقدير مقيّد بالعلم والحكمة، ووصف العلم بالمبين لأنه الانكشاف الحاصل للنفس وهو في العلم الحصولي يتم

---

(١) الأمالي (للمفيد): ص٣٦؛ مسند أحمد: ج١، ص٣٢٥.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.
(٣) سورة النمل: الآية ٧٥.
(٤) سورة يونس: الآية ٦١.

بانكشاف صورة المعلوم لدى العالم، وفي العلم الحضوري بحضور ذات المعلوم لدى العالم، وفي انكشاف ذات المعلوم لدى العالم.

وعلى هذا التقدير يكون الكتاب كالقرآن له نحوان من البيان:

الأول: أنه بائن في نفسه، وهذا من حيث ذاته جلي؛ لأن العلم هو الانكشاف وهو حاصل في نفسه.

الثاني: أنه مبيّن لغيره، وهذا لا يصح نسبته للعلم من دون تلبس بالذات المبينة أي العالم؛ لأنه حقيقة غيبية مجردة غير محسوسة، فالعلم بائن في نفسه لدى العالم ولكنه مبيِّن بالعالم، ولذا لا يستغني العلم عن العالم كما لا يستغني العالم عن العلم، وهو ما عبروا عنه باتحاد العلم والعالم مصداقاً وإن تغايرا مفهوماً؛ بداهة أن العلم مفهوماً هو الانكشاف، أما العالم فهو من حصل له الانكشاف، لكنهما في الواقع الخارجي حقيقة واحدة يتحد بها المفهومان مثل الاجتهاد والمجتهد والعدالة والعادل.

وبهذا البيان يتضح أنّ الكتاب المبين كالقرآن المبين كل منهما في نفسه بائن ولكنه لا يكون مبيناً إلّا بغيره، وهذا الغير ليس إلّا المعصومعَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه مجلى معاني القرآن ومضامينه، كما أنه مجلى العلم الإلهي.

فالمبين بمعناه اللازم أي البيِّن في نفسه يشمل غير المعصوم إلّا أنه بمعناه المتعدي أي المبين للغير فيختص بالمعصوم، فالمبين الحقيقي هو المعصومعَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا ما تقرر في علم المعقول وتواترت به النصوص من أن المعاني الغيبية لابد لها من مجلى ومظهر كالعلم والقدرة والإرادة والحكمة، ومجلاها ومظهرها الأتم هو المعصومعَلَيْهِ السَّلَامُ، وبهذا الاعتبار وصف بأنّه

خليفة الله سبحانه وحجته على عباده، والشاهد عليهم، وهذه النتيجة هي ما أشار إليها قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[1].

والقرآن والكتاب لا يمكن أن يكونا بينين إلّا بواسطة المعصوم عليه السلام فيرتفع النقض.

ولو عرضنا هذه النتيجة على الضابطتين المتقدمتين في التعليم الأول نجد تمام الانطباق عليها.

وبيان ذلك: أن القرآن الكريم والكتاب المبين يشتركان في الأثر؛ لأن الاثنين مجمع العلوم الإلهية تكويناً وتشريعاً، وبهما تحفظ المقدرات، وبهذا الأثر يشتركان مع الإمام المعصوم عليه السلام؛ لأنه أيضاً مجمع العلوم والمقدرات الإلهية تكويناً وتشريعاً، والكل يهدي الخلق وهو حجة عليهم، كما يمكن أن يشتركا في جامع عنواني واحد وهو الكتاب؛ لأن الكتاب من الكتابة وهي جمع شيء لشيء وجميع الأشياء في العلوم والمعارف جمعت في القرآن، والمقدرات الإلهية جمعت في الكتاب التكويني، وكلاهما اجتمعا في الإمام عليه السلام، فترجع جميع المعاني والأقوال والأوصاف إلى هذا المعنى الجامع.

ومن ذلك تتضح حقيقتان:

الحقيقة الأولى: أن المعصوم عليه السلام - أي النبي والإمام عليهما السلام - هو مجلى العلم الإلهي، وهو الحجة على الخلق والشاهد عليهم، بل به يحصي الباري

---

(١) سورة يس: الآية ١٢.

عز وجل كل شيء، وعنده يحفظه، وهذه الحقيقة القرآنية مما ينبغي أن يتفق عليها المسلمون؛ لأن القرآن الكريم نص على ثبوتها، ووردت بها الأخبار المتواترة من طرقهم، ومن الآيات قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[١] إذ جعل على حقانية دعوى النبيصلى الله عليه وآله وحقانية الإسلام شاهدين هما الله سبحانه ومن عنده علم الكتاب، وسواء أريد بالكتاب الكتاب التكويني أو القرآن أو الكتب السماوية على اختلاف الآراء في كون اللام عهدية أم جنسية فإن الآية تشهد بأن هناك من عنده علم الكتاب، وإضافة العلم إلى الكتاب من دون توسط الباء[٢] تفيد فائدتين:

الأولى: أنّه عالم بما في الكتاب.

والثانية: أنّه عالم بعلوم الكتاب.

والأولى تفيد العلم بالموجود بالفعل وما أودع في الكتاب من حقائق ومقدرات، والثانية تفيد العلم بأسراره وخفاياه وما كان فيه وما سيكون، والإطلاق يشمل الاثنين كما يفيد سعة العلم والإحاطة بالكتاب. هذا هو مدلول الآية الظاهر.

والسؤال من هو الذي عنده علم الكتاب؟

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٢) أي لم تقل (عنده علم بالكتاب).

والجواب: هذا ما لا يمكن معرفته إلّا بمراجعة الروايات(١)، وقد تضافرت الروايات من طرق الفريقين وأفادت أن المقصود هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، بل الأخبار في ذلك متواترة(٢)، وهو ما يقضي به العقل؛ لعدم انطباق الآية إلّا على ثلاثة هم الله والنبي والإمام عليهما السلام، وقد نصت الآية على أن الباري عز وجل شاهد على نبوته صلى الله عليه وآله، ونصت على أن النبي صلى الله عليه وآله هو المشهود له، والسؤال كيف يشهد الباري للنبي؟

والجواب: يشهد له بالتكوين بإظهار المعاجز والكرامات على يديه؛ لوضوح أن التصرف في شؤون التكوين مما لا يقدر عليه إلّا الله سبحانه، فإذا أظهرها مطابقة لدعوى النبي صلى الله عليه وآله كانت شاهدة على تأييد الله سبحانه له، وأنه مبعوثه ومرسله.

ويبقى الكلام في الشاهد الثاني وليس إلّا أمير المؤمنين عليه السلام الذي جعله النبي صلى الله عليه وآله باب علمه، وعلَّمه من كل باب يفتح له ألف باب، وهنا نكتة هامة جداً، وهي أنّ الآية نصت على شهادة الإمام عليه السلام على نبوة النبي صلى الله عليه وآله وشهادة الشاهد لا تصح إلّا إذا كان معروفاً بالعلم، موثوقاً لدى الناس حتى يقبلوا شهادته، وشهادة الله سبحانه للنبي صلى الله عليه وآله تتم بإظهار الآيات والمعاجز على يديه، وأما شهادة أمير المؤمنين عليه السلام فلا يمكن أن تكون ناشئة

(١) انظر ينابيع المودة: ج١، ص١٠٢ ـ ١٠٣، ح١٧ و١٨و١٩و٢٠و٢١و٢٢؛ الكافي: ج١، ص٢٢٦، ح٧؛ الاحتجاج: ج١، ص٢٥٩؛ تفسير البرهان: ج٢، ص٣٠٤.

(٢) آيات العقائد: ص٣٧٦.

من كونه مؤمناً بالنبيﷺ ومتبعاً له، لاستلزامها الدور؛ إذ لازمه الاستدلال على نبوة النبيﷺ بنبوة النبي فلابد وأن تكون شهادته في نفسها مقبولة عندهم بغض النظر عن إيمانه بالنبوة، وأنّهم يذعنون له بذلك، وإلّا كان الاستشهاد به لغواً، فلولا أن يكون الإمامعليه السلام عندهم مقبولاً في قوله ورأيه، وعادلاً في نهجه وسلوكه، وعالماً مطلعاً على الحقائق لا يصح اتخاذه شاهداً على صحة نبوتهﷺ.

فالآية المباركة وفي نفس الوقت الذي تصف الإمامعليه السلام بالعلم المطلق تشهد له بالعصمة والنزاهة وظهور الآيات والبينات على يديه؛ لذا كان قوله عندهم حجة ومقبولاً، ولو سأل سائل من أين كانوا يعلمون بأنه عالم بالكتاب وعنده علمه؟ والجواب من طريقين:

الطريق الأول: أنهم لاحظوا صدور الكثير من الكرامات والأعاجيب على يديه، وهي لا تصدر إلّا من العالم بكتاب التكوين والمطلع على أسراره وعلله وأسبابه حتى يظهر منه ما يعجز عن مثله الناس، وقد كانت الكرامات والآيات ومحتفة بوجود الأئمةعليهم السلام والصديقة الطاهرة في مختلف الجوانب فكلامهم وحركاتهم وأفعالهم كانت ملازمة للآيات، وكان الناس يشهدون ذلك ويعرفونه.

الطريق الثاني: أنّهم سمعوا القرآن وأذعنوا لإعجازه، وأنّهم غير قادرين على مجاراته أو الإتيان بمثله، فلابد وأن يذعنوا للعالم به والعارف بمعانيه وأسراره، وليس ذلك إلّا أمير المؤمنين عليه السلام باتفاق الكل.

والملحوظ أنّ القوم لم يعترضوا على مدلول الآية، ولم يقل أحد منهم بأن النبي صلى الله عليه وآله يستشهد على صحة نبوته بقول ابن عمه، ولو لم يكن قول علي عليه السلام وعلمه وعصمته ثابتة لديهم لاعترضوا على ذلك، لكنهم لم يعترضوا مع توفر الدواعي للاعتراض لو كان له مجال.

ويتحصل: أنّ ما أفادته الآية التي نبحث في مدلولها هو أنّ الإمام عليه السلام هو المبين - وقد أحصى الله سبحانه به كل شيء - تؤيده هذه الآية، وتثبت أن عنده علم الكتاب الذي جمع فيه كل شيء بتفاصيله، وتشهد له بعصمته؛ لأن العالم المحيط بالأسرار والذي يتخذ شاهداً مطلقاً لابد أن يكون معصوماً، وبه تواترت الروايات الشريفة.

الحقيقة الثانية: مما تقدم يعرف مدى الخطأ الذي وقع به مفسرو العامة؛ إذ فسّروا ﴿**مَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[1] ببعض علماء اليهود والنصارى كابن سلام ونحوه[2] لوجوه أربعة:

الأول: أنّ هؤلاء ما كانوا يعلمون بالكتاب بمعناه العام لا سيّما الكتاب التكويني واللوح المحفوظ والقرآن. نعم ربما يعلمون بكتابهم هم إلّا أن تفسير الكتاب بكتبهم خلاف الظهور **هذا أولاً**.

وثانياً: أنّ كتابهم لم يشتمل على علم حتى يعلمه هؤلاء، بل كل الكتب السماوية كانت تشتمل على التعاليم والتوجيهات الأخلاقية

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج٧، ص٦٢ ـ ٦٣.

والتربية وليست كتب علوم ومعارف وأحكام كما في القرآن الكريم فلا مقتضي للإرجاع إليها.

الثاني: بل لوجود المانع؛ إذ من غير المعقول أن يستشهد الباري على صدق نبوة نبي الإسلام بشهادة علماء اليهود والنصارى؛ لأن ذلك ينقض الغرض من جهتين؛ لأنهم إذا كانوا يعلمون بنبوته ويصدقون في القول لآمنوا به ولم يبقوا على اليهودية والنصرانية، والكثير منهم لم يؤمنوا، ولو كانوا يجهلون ذلك لكذبوه أو دعوا الناس إلى الإيمان بأديانهم، وكل ذلك ينقض الغرض.

الثالث: أن الحقيقة التأريخية تمنع ذلك؛ لأنّ الآية مكيّة وبعض علماء اليهود آمنوا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في المدينة بعد الهجرة، ولذا قال سعيد بن جبير: كيف تكون الآية نزلت في عبد الله بن سلام والسورة كلها مكية[1]؟ وقد صرّح بكونها مكية جمع من المفسرين والمحدثين كالنيسابوري في تفسيره والبغوي في معالم التنزيل وغيرهما[2]، بل نسب القول بذلك إلى الجمهور[3]، وهذا ما يقضي به العقل والإجماع أيضاً على مباني العامة. أما الأول فلاتفاق الكلمة على أن أصول الدين كالنبوة لا تثبت بأخبار الآحاد من أمثال عبد

(١) انظر الدر المنثور: ج٤، ص٦٩.

(٢) غرائب القرآن: ج١٣، ص٩٧؛ معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن: ج٤، ص٢٦. حكي أن الشيخ الرئيس ابن سينا اعترف بنبوة النبي المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعد ما ثبت عنده أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ آمن به واعترف برسالته، آيات العقائد: ٣٨١.

(٣) روح المعاني: ج١٣، ص٢٢٠.

الله بن سلام، وإنّما بالأدلة القطعية، وأما العقل فلأن الإرجاع إليهم والاستشهاد على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وآله لا يخلو من حالتين: إما أن يستشهدوا على صحتها قبل ايمانهم فيها فهو نقض للغرض، وإما بعد إيمانهم فلا يقبلها الكفار ويكون دورياً، بخلاف شهادة أمير المؤمنين عليه السلام فإنها شهادة علمية لا ظنية، وحسية لا خبرية.

الرابع: اتفاق الكلمة على أن ﴿**مَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ هو أمير المؤمنين عليه السلام لا سيما إذا أريد بالكتاب القرآن[1]، ومن الغريب حقاً أنهم يقرون بأنه عليه السلام أعلم الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله، ويعطفون دلالة الآية على غيره، والدواعي معروفة.

التعليم الثالث: حياة كل شيء وبقاؤه بالإمام عليه السلام

أن الآية الشريفة تدل على أن الباري عز وجل هو المحيي للأشياء، فهو سبحانه يحيي الموتى ويحيي أعمالهم وآثارهم بالكتاب، فلولا يكتبها تموت، ويحصي الأحياء والأعمال والآثار، ولو لا يحصيها تموت، وضمير الجمع يدل على أنّ ذلك لم يتم بالمباشرة بل بالوسائط والأسباب حسب قانون السببية لقيام البرهان على لزوم الواسطة، والسبب هو الإمام المبين، ومعنى ذلك أن كل شيء حياته وبقاؤه بالإمام عليه السلام، وإنّما وصف بالمبين دون غيره من الصفات كالعلم والقدرة والعصمة للإشارة إلى أن كل شيء يظهر ويعرض ويكون له أثر بالإمام عليه السلام.

---

(١) روح المعاني: ج١٣، ص٢٢١.

وصيغة الماضي في قوله تعالى: (أحصيناه) تفيد حصول الإحصاء بالفعل لا بالقوة ولا بالمستقبل، فتدل على علم الإمام بالأشياء التي يحصيها ويحفظها بالعلم الحضوري، فكل شيءحدوثه وحضوره بالإمام، ولولاه لكان معدوماً بلا وجود ولا أثر، كما أنه حاضر لديه معلوم له مطلع على أحواله؛ لذا يكون حجة وشاهداً عليه، ولو تم العلم والشهادة والحجية تمت إمامته على كل ما سوى الله سبحانه.

فيتحصل: أن حياة كل شيء بالإمام، والإمام له جهتان: الجهة البشرية وهو كسائر الناس إنسان مخلوق لله سبحانه، وعبد له سبحانه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا. كله بالله ومن الله، وبهذه الجهة يكون كالناس يأكل الطعام ويشرب ويتزوج ويتألم ويفرح ويموت ويحيا.

والجهة الإلهية وبها يتصف بجميع الصفات القدسية الملكوتية من العلم والقدرة والإحاطة. خلقه سبحانه من نوره، وجعله الشاهد والحجة على الخلق والخليفة له في أرضه، وبهذه الجهة يتميز على سائر الخلق، وبه يحيا الخلق، وبهذا التوجيه تتضح معاني الكثير من الروايات الواردة في مقام الإمام والإمامة:

منها: الروايات التي تنص على أنّ حياة الخلق بمعرفة الإمامعليه السلام، وموتهم بإنكاره والجهل به(١).

---

(١) الكافي: ج١، ص١٨١، ح٤.

ومنها: الروايات التي تنص على أن الولاية حقيقة سارية في جميع الأشياء[١]، وعلى أساسها تصفو الأشياء وتطيب وتسعد، أو تكدر وتشقى.

ومنها: روايات القلم[٢]، وأول ما خلق الله العقل[٣]، والأخرى التي نصت على أن اول ما خلق الله نور النبي صلى الله عليه وآله[٤].

ومنها: الروايات الأخرى التي تنص على أنه لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها[٥] أي خسفت، كناية عن اختلال نظامها، أو كناية عن قيام القيامة؛ لأنّ الأرض إذا خلت من الإمام ينتفي غرض الوجود والبقاء في الدنيا.

ومنها: الروايات التي تنص على أنّ الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق[٦].

ومنها: الروايات التي تنص على أن الحساب والكتاب يكون بيد الإمام عليه السلام[٧] بإذن الله تعالى، إلى غير ذلك من طوائف الروايات التي جمع بعضها الكليني في باب الحجة من الكافي.

---

(١) الاقتصاد: ص٢١٩.
(٢) كتاب التمحيص: ص٤١، ح٤٢؛ البحار: ج٦٥، ص١٤٦، ح٩٤.
(٣) عوالي اللآلئ: ج٤، ص٩٩، ح١٤١.
(٤) تفسير الآلوسي: ج١، ص٥١؛ كشف الخفاء: ج١، ص٢٦٥، ح٨٢٧.
(٥) مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص٢٧٨.
(٦) الكافي: ج١، ص١٧٧، ح٤؛ كمال الدين: ص٢٢١، ح٥.
(٧) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٤٤١، ح٢٩٣؛ البحار: ج٨، ص٥٧، ح٧٣؛ ج٢٧، ص١٤٢، ح١٥٢.

فالآية في منطوقها الكلي تدل على أنّ حياة كل شيء وبقاءه وحسابه بالإمامعليه السلام من جهته المعنوية الإلهية، ولأجل توضيح هذه الحقيقة أكثر أضرب مثالين تجتمع فيهما الخصوصيتان المادية والمعنوية في الأثر.

المثال الأول: الماء؛ إذ قال سبحانه في مبدأ الخلق: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾[(١)] ثم قال سبحانه: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[(٢)] وهذا الجعل يحتمل أن يكون بسيطاً بناء على أنّ (من) نشوية كقولهم: (الخبز من الطحين) فيدل على أنّ الماء حي فيعطي الحياة، ويحتمل أن يكون جعلاً مركباً بناء على أنّ (من) سببية بمعنى الباء، فتدل على أنّ كل شيء ميت وجُعل حياً بالماء، وهذا يدل على أنّ الحياة ملازمة للماء أيضاً، فالماء يحمل خصوصية الحياة، وقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام حينما سئل عن طعم الماء قال: «هو طعم الحياة»[(٣)] وهو ما يجده الإنسان بالوجدان؛ إذ كل شيء لولا الماء يموت.

فللماء خصوصيتان: خصوصية مادية محسوسة هي شكله وطبعه وأثره وهو إرواء العطش وإنماء الأشياء، وخصوصية غير محسوسة بها حياة الأشياء، ولولاه تموت، فالحياة والموت يقومان بالماء. قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ**﴾[(٤)] والماء من هذه الجهة يشترك مع الولاية بحسب ما

(١) سورة هود: الآية ٧.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.
(٣) مجمع البيان: ج٧، ص٨٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج٨، ص٤٢٥.
(٤) سورة النور: الآية ٤٥.

تقدم من ضوابط الجمع، فإن الولاية والماء متغايران مفهوماً وحقيقة ولكنهما مشتركان في الأثر، فكما أن الماء يحيي الأشياء كذلك الولاية، سوى أن الماء يحيي الأبدان والولاية والإمامة تحيي القلوب والأرواح، ومن هنا وردت الروايات العديدة التي تفسر الماء بالولاية[١].

والبعض حيث لا يلتفت إلى جهة الاشتراك والترابط قد يستغرب المعنى، إلّا أنه إذا التفت إلى الضابطة التي قررناها يجد في ذلك غاية الترابط والتكامل.

وفي الروايات في بيان قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[٢] نسب كل شيء إلى الماء ولم ينسب الماء إلى غيره؛ للإشارة إلى أن خصوصيات الماء ذاتية وليست مكتسبة، وهكذا خصوصيات الولاية والإمامة. كل القلوب والأرواح تحيا بالولاية وحياة الولاية من نفسها، ويؤكّده ما ورد في بيان معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[٣] أي من أخرجها من العمى إلى الهدى.

المثال الثاني: النور، فإنّه حقيقة محسوسة ظاهرة في نفسها ومظهرة لغيرها، ولا تخفى حقيقته على أحد، وله حقيقة غير محسوسة توصف بها بعض الحقائق المجردة باعتبار الاشتراك في الأثر؛ إذ ورد في النصوص وعند أهل المعقول إطلاق النور على عدة أشياء:

---

(١) انظر تأويل الآيات: ص٦٨٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٢.

الأول: الوجود؛ لأن به تظهر الحقائق والماهيات في الخارج.

الثاني: العلم؛ لأنه سبب ظهور الأشياء وانكشافها للعقل.

الثالث: الكمال؛ لأنه سبب لظهور المكتمل والمتحلي به بين الناس، فالجميل يوصف بالنور إذا قورن بغيره لظهوره عليه، والمتقي كذلك، وصاحب الخلق الرفيع بالقياس إلى غيره.

والباري عز وجل نور السماوات والأرض باعتبار أنه الظاهر بنفسه في الأشياء والمظهر لها في وجودها وصفاتها، والقرآن سمي نوراً لأنه يهدي الخلق وينير لهم قلوبهم وأفكارهم، وهكذا الأنبياء والأئمة عليهم السلام[1]، ونلاحظ أن جميع هذه الحقائق يطلق عليها نور ولو لوحظت بالقياس إلى الضابطتين المتقدمتين في التعليم الأول لوجدنا أن النور يطلق على الجميع باعتبار وحدة الأثر والجامع العنواني.

فالنور حقيقة واحدة لها جانب محسوس وجانب آخر غير محسوس يوصف به، كذلك الإمام فإنّ له جانباً محسوساً هو ذات الإمام الذي يتسم بصفاته البشرية، ويكون بين الناس معروفاً ويقتدى وجانباً غير محسوس هو ولايته وإمامته، وهي سارية في الأشياء، وبهذه الصفة يتميز بمقامات معنوية عالية تجعله المقدم في كل شيء، فهو الواسطة في الإفاضة ومجمع الخيرات والبركات، والمحيط علماً بالأشياء، وبه تحفظ الأشياء وتحصى وتحيا.

---

(١) انظر مرآة العقول: ج٢، ص٣٥٣.

ونستنتج مما تقدم: أن الباري عز وجل يحيي الأموات في أجسادهم بالإمام، ويحيي الأموات في قلوبهم بمعرفة الإمام ومحبته وولايته، وأنه سبحانه يحيي الأعمال والآثار بالكتابة، والكتابة حدوثاً وبقاءً تكون بالإمام، ويحصى كل شيء -أي ما سوى الله سبحانه- بالإمام، ويحفظها عنده، وهذا معنى أن كل شيء من الماديات والمعنويات يحيا ويبقى بالإمام عليه السلام.

ولو أردنا أن نقرّب هذه الحقيقة المعنوية بمثال محسوس نمثل لها بالطاقة الكهربائية، فإنها طاقة عجيبة لها شكل محسوس يتجلى في المصباح فيكون نوراً، ويتجلى في المروحة فيحركها، وفي البراد فيبرد الماء، وفي السيارة فيحركها، وفي الطائرة فتطير، وهكذا في كل شيء تدخل فيه طاقة كهربائية يتحرك ويؤدي وظيفته، فإذا انقطع الكهرباء خمدت جميع هذه الأشياء وماتت، مع أن الطاقة الكهربائية ليست هي ذات النور ولا حركة الأجهزة، بل شيء خفي وراء ذلك كله. هذا في الماديات.

وفي المعنويات كذلك الإمامة والولاية بها تحيا الأرواح والقلوب والعلوم والأفكار، وبها تستنير الأشياء، وبها تطيب الأطعمة وتحيا الأعمال، فلو تجردت عنها ماتت، والولاية والإمامة بهذا المعنى النوراني العظيم تتجسد في الإمام عليه السلام، وبهذا تتضح الكثير من الروايات التي نصت على أن العبادة من دون ولاية تكون ميتة ولا أثر لها، والدعاء من دون ولاية وتول وتبر يكون ألفاظاً خالية من الروح، وأن العلوم الربانية من غير معرفة الولي والإمام هو ضلال وليس بعلم، إلى غير ذلك من الحقائق التي أشارت إليها الروايات وقالت ان حياة الأشياء بالإمام ومعرفته عليه السلام.

وربما يسأل سائل ويقول: إذا كان الإمام بهذه المنزلة فكيف نراهم يمرضون ويحزنون ويقتلون ويكونون بين الناس؟

فالجواب: من وجوه عديدة اكتفي بالإشارة إلى وجهين ونوكل التفاصيل إلى كتب الكلام:

الوجه الأول: لأنّ المقامات المعنوية التي للإمامعليه السلام هي ليست من نفسه بل من الله سبحانه. هو الذي أعطاه هذه المزايا والمواهب؛ لتوقف نظام الخلق تكويناً وتشريعاً عليه، وهذه المقامات ناشئة من جهته الروحية المعنوية لا من جهته البشرية البدنية، وقد ذكرنا أن للإمام جهتين إلهية ربانية وبشرية إنسانية، وما أعطاه الله سبحانه من مزايا وخصوصيات من الجهة الأولى، وتلك لا تمرض ولا تموت، بل بها تقوم الأشياء و تحصى كما عرفت من الأمثلة المتقدمة، ولا يخفى أن لبدن المعصومعليه السلام آثاراً وخواص معنوية كثيرة أيضاً، لكن الكلام الآن من هذه الجهة.

الوجه الثاني: لأن الله سبحانه جعل الإمام قدوة للناس ومثالاً أعلى يقتدون به، والدنيا جعلها الباري عز وجل للاختبار والامتحان، فهذا يستدعي أن يكون إمام الناس كالناس يعيش كما يعيشون، ويتألم كما يتألمون، ويقتل كما يقتلون؛ ليكون لهم القدوة والأسوة في كل هذه الأحوال، وللكلام تفاصيل لا يسعنا المجال لسردها، واكتفي عن بيان ذلك كله بنقل هذه الرواية الشريفة التي فيها مفاتيح الكثير من الأجوبة والاستفهامات، وفيها الكثير من التعاليم لأهل القلوب.

روى الصدوق قدس سره في العلل في سؤال وجهه محمد بن إبراهيم بن إسحاق إلى نائب الإمام عليه السلام الحسين بن روح عن حكمة جعل الأنبياء والأئمة بشراً، ويبتلون بما يبتلى به البشر من مصائب وآلام، والجواب مفصل نكتفي بمحل الشاهد منه. قال الحسين بن روح يروي ذلك عن مولانا صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه، ويقول للسائل ﴿افهم عنّي ما أقول لك: اعلم أنّ الله عزّ وجل لا يخاطب الناس بشهادة العيان ولا يشافههم بالكلام، ولكنّه عزّ وجل بعث اليهم رسولاً من أجناسهم وأصنافهم بشراً مثلهم، فلو بعث إليهم رسلاً من غير صنفهم وصورهم لنفروا عنهم، ولم يقبلوا منهم، فلما جاؤوهم وكانوا من جنسهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق قالوا لهم: أنتم مثلنا، فلا نقبل منكم حتى تأتوا بشيء نعجز أن نأتي بمثله، فنعلم أنكم مخصوصون دوننا بما لا نقدر عليه.

فجعل الله عز وجل لهم المعجزات التي يعجز الخلق عنها، فمنهم من جاء بالطوفإن بعد الإنذار والإعذار، فغرق جميع من طغى وتمرد، ومنهم من ألقي في النار فكانت عليه برداً وسلاماً، ومنهم من أخرج من الحجر الصلد ناقة، وأجرى في ضرعها لبناً، ومنهم من فلق له البحر وفجّر له من الحجر العيون، وجعل له العصا اليابسة ثعباناً فتلقف ما يأفكون، ومنهم من أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله عزّ وجل، وأنبأهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ومنهم من انشق له القمر وكلمته البهائم مثل البعير والذئب وغير ذلك، فلما أتوا بمثل ذلك وعجز الخلق من أممهم عن أن يأتوا بمثله كان في تقدير الله عز وجل ولطفه بعباده وحكمته أن جعل أنبياءه مع هذه المعجزات في حال غالبين، وفي أخرى مغلوبين، وفي

حال قاهرين، وفي حال مقهورين، ولو جعلهم عزّ وجل في جميع أحوالهم غالبين وقاهرين ولم يبتلهم ولم يمتحنهم لاتخذهم الناس آلهة من دون الله عزّ وجل، ولما عُرف فضل صبرهم على البلاء والمحن والاختبار، ولكنه عز وجل جعل أحوالهم في ذلك كأحوال غيرهم ليكونوا في حال المحنة والبلوى صابرين، وفي حال العافية والظهور على الأعداء شاكرين، ويكونوا في جميع أحوالهم متواضعين غير شامخين ولا متجبرين، وليعلم العباد أنّ لهمعليهم السلام إلهاً هو خالقهم ومدبرهم فيعبدونه ويطيعون رسله، وتكون حجة الله تعالى ثابتة على من تجاوز الحد فيهم وادعى لهم الربوبية، أو عاند وخالف وعصى وجحد بما أتت به الأنبياء والرسل، و لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾.

قال محمد بن إبراهيم بن إسحاق: فعدت إلى الشيخ أبي القاسم الحسين ابن روح من الغد وأنا أقول في نفسي: أتراه ذكر ما ذكر لنا يوم أمس من عند نفسه، فابتدأني فقال لي: يا محمد بن إبراهيم! لئن أخرّ من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بي الريح في مكان سحيق أحب إليَّ من أن أقول في دين الله تعالى ذكره برأيي ومن عند نفسي، بل ذلك عن الأصل، ومسموع عن الحجة صلوات الله وسلامه عليه وآله[1].

هذا وقد تقدم الكلام في المباحث الأولى للسورة المباركة بعض التفاصيل عن حقيقة الإمامة والإمام بما يغني عن مزيد البيان هنا.

---

(١) علل الشرائع: ص٢٤١ ـ ٢٤٣، ح١.

التعليم الرابع: الموت الحقيقي والحكمي

إن الموت قسمان حقيقي وحكمي، وملاك الأول موت الروح والقلب والعقل، والثاني موت البدن، وهذا التعريف وإن كان على خلاف المشهور بين أهل الفضل والمعروف لدى الناس لأنهم في الغالب يعبرون عن موت البدن بالحقيقي إلّا أنه الحق هو أن موت البدن ليس بموت وإنما انتقال من عالم إلى عالم آخر، فالبدن يموت إلّا أن الروح باقية، وحقيقة الإنسان بروحه لا ببدنه، فمتى ماتت الروح يكون هو الموت الحقيقي، وتموت الروح بالجهل بالإمام وعدم معرفته، وبموت القيم والأخلاق الإنسانية، وعلى هذا النهج ينبغي أن تقوم أنظمة التربية والتعليم في المدارس والجامعات والمعاهد الدراسية؛ لأن الإنسان يموت بروحه، وتموت الروح لو سقطت القيم فيها واتبع الناس أئمة الضلالة وتخلوا عن أئمة الحق.

التعليم الخامس: أنّ العالم كله في محضر الإمام؛ لأنّه الحجة عليه، فلا يمكن أن يتصور زمان خال من الإمام أو لا يطلع عليه الإمام، فما على المؤمن إلّا أن يستشعر هذه الحقيقة ويسعى لأن يعيشها ويرتبط بها فلا يغفل عنها، فإن أكثر السقطات من الغفلة، ولو التفت الناس إلى ذلك وعملوا لأجله لاتصلوا وفتحت لهم الأبواب ونالوا سعادة الدنيا والآخرة.

التعليم السادس: أن الأعمال الصغيرة والكبيرة كلها تبقى حية ولا تموت، لأنها مكتوبة ومحصية، فلا ينبغي للمؤمن أن يتهاون في صغير أو كبير من الاعمال الصالحة ولا الطالحة؛ لأنه مجزي بما يعمل.

التعليم السابع: أنّ سجل أعمال الإنسان مفتوح إلى يوم القيامة لا يغلق ولا يطوى. نعم ربما أعماله تنقضي بموته ولكن آثارها باقية، والباري عز وجل يكتب عليه أعماله وآثارها، فلينظر الإنسان ماذا يخلف من بعده من آثار؟ لان ذلك هو سبب خلوده في النعيم أو في الجحيم، والقضية التي تقلق بال المؤمن هي أن الحساب دقيق لا يخطأ ولا يشتبه ولا ينسى؛ لأن كل عمل يتجسد وآثاره باقية.

التعليم الثامن: حقائق معرفيّة

في الآية الشريفة إشارات إلى حقائق هامة:

الأولى: أنها تدعو الإنسان إلى العمل وعدم اليأس. هذا المفهوم الخاطئ الذي يقع فيه الناس حينما يكبرون ويتقاعدون عن الوظائف والأعمال فإنهم يبقون بلا عمل، وكأنهم يجلسون وينتظرون الموت، والآية تبطل هذا المفهوم وتحث الناس على العمل الدائب المستمر؛ لأن العمل يكتب، وآثاره تكتب، فربما يكون الرجل كبير السن عجوزاً فيزرع نخلة لا ينتفع من ثمرها لكنه ينفع من يأتي من بعده فيكون من آثاره التي يكتبها الباري عز وجل له.

ولذا ورد في الروايات الشريفة: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم الفسيلة فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣، الباب ١ من أبواب كتاب المزارعة والمساقاة، ص٤٦، ح١٥٨٩٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٨، ص٤٣١، ح١٠.

لأن هذا الزرع يكون من الآثار التي تنفع الإنسان، ولذا ورد في الاحاديث الشريفة: «إضاعة الفرصة غُصّة»[١] لأنك إن لم تستثمرها ستندم عليها وتفوتك آثارها.

الثانية: أنها تكشف سر خلود بعض الناس في العذاب مع أن أعمالهم في حدودها بحسب الموازين المادية محدودة، فإن شكل العمل ومدته محدودة لا تستحق الخلود في النار إلّا أن آثاره الباقية توجب الخلود، فمثلاً الباري عز وجل يقول: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا**﴾[٢] فربما يتصور البعض بأن القتل وإزهاق روح واحدة تستحق العذاب مدة خصوصاً إذا تاب القاتل، أو دفع الدية، أو اقتص منه، ولكن آثار هذا القتل باقية ولا تنتهي، فإن المقتول يبقى مظلوماً وذريته حرموا منه وأهله وكل من له ارتباط به، وما كان يمكن أن يقدمه لحياته الدنيوية والأخروية من أعمال صالحة حرم منها، فإن هذه الآثار لا تنتهي وتبقى مستمرة مع الأجيال، وآثارها وجزاؤها كلها تعود على القاتل، ومثل ذلك يقال في سائر الذنوب والمعاصي، كما أنها جارية في أعمال الخير.

فالآية المباركة في نفس الوقت الذي تتضمن التحذير تتضمن التبشير، وتفتح باباً واسعاً أمام العباد للحياة الطيبة بشرط أن يستثمرها الناس ويستفيدوا منها في حياتهم فيصلحوا نواياهم، وليكدوا ويعملوا ولا

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٢٨، الرقم (١١٨)؛ الوسائل: ج١٦، الباب ٩١ من أبواب جهاد النفس، ص٨٤، ح٢١٠٤٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٩٣.

يفوتوا فرصة تمر دون استثمار؛ لأن كل ذلك مدون في سجل أعمالهم ومحصي في آثارهم.

الثالثة: أن كل إنسان يمكنه أن يستثمر مالديه من قوى وطاقات ومواهب لتكون له آثار طيبة، فلو اعتنى الإنسان بأهله وأولاده ورباهم التربية الصالحة كان له الأثر الطيب، ولو تفقه في دينه وتعلم العلم وعَلّم به كان له الأثر الطيب، ولو سن سنة حسنة من قول أو فعل أو حسن خلق فإنها تبقيه إلى يوم القيامة.

إن الإنسان ربما بعمره القصير لا يستطيع أن ينجز الكثير، ولا يفعل ما يوجب خلوده في الجنة، لكنه إذا فكر في آثار الأعمال وأنجز من الأعمال ماله الآثار الطيبة بلغ الغاية في ذلك كله، فمصير الإنسان في النعيم وفي الجحيم بيده، وخلوده الدنيوي والأخروي بيده، فلا ينبغي أن يغفل عن هذه الحقيقة وهي أن كل شيء يكتب ويجمع ولا يغادر منه شيء.

هذه الحقائق الثلاث أي الالتفات إلى قيمة العمل وآثار العمل والسعي إليها لو كانت في الفرد كان سعيداً في دنياه وأخراه، ولو صارت صفة عامة في المجتمع صار مجتمعاً متفوقاً متقدماً يبني ويربي أجيالاً صالحة، ويضمن لهم حياة طيبة.

وهذا أحد معاني هداية القرآن للتي هي أقوم؛ لأنه ينمي الفرد والمجتمع والحضارة بهذا النهج السهل في مضمونه وخطواته.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ
الْقَرْيَةِ إذ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ✿ إِذْ
أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا
بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ

يس/ ١٣-١٤

الآيتان بمنزلة آية واحدة، لعدم اكتمال معنى الآية الأولى إلّا بالثانية، ولذا نبحثهما معاً، والبحث فيهما يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآيتين

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَاضْرِبْ﴾

فعل أمر توجه إلى النبي المصطفى صلى الله عليه وآله بأن يضرب مثلاً للذين بعث إليهم وكانوا معاندين مكذبين، وقال عنهم الباري: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1] وتأمر بأن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية الذين جاءهم مرسلون، مرة جاءهم اثنان مجتمعين ثم جاء ثالث وكذبوا الجميع، وهو نوع تسلية لفؤاده صلى الله عليه وآله ولبيان حالها يقول: إن كذبك قومك وأنت واحد فهؤلاء ثلاثة وكذبوهم؛ لوجود شبهة حصلت في أذهانهم، وهي أنهم لا يتعقلون أن يكون المبعوث الإلهي من البشر كما سنمر على تفصيله، ففي مقابل هذه الدعوى قال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾.

فالآيتان المباركتان تكملان مدلول الآيات السابقة وتمهد أن للآيات التالية، فإن الآية السابقة نصت على أن الباري عزّ وجل يحيي ذات الأموات، ويحيي أعمالهم وآثارهم بالكتابة، ويحصي الجميع في إمام مبين، وفي هاتين يقول عز وجل واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦.

والغاية من إرسال الرسل هي إحياء أرواحهم وعقولهم وقلوبهم بالقيم، وحيث إن كل مرسل إلهي لابد وأن تقترن معه المعجزة الدالة على صدقه، فإن معجزة المرسلين كانت إحياء الموتى، وبهذا تكون الآية الأولى بمنزلة بيان القاعدة العامة، وهذه تكون تطبيقها وبيان مصداقها، وفي عين الحال تمهيد للآيات التالية التي تتحدث عن المعاد وحشر الناس من قبورهم للحساب والإجابة عن شبهات الملاحدة المنكرين للمعاد، وبذلك تظهر وحدة الموضوع الذي تشترك فيه هذه الآيات، والدليل على ذلك شأن النزول.

المفردة الثانية: ﴿الْقَرْيَةِ﴾

وهي المدينة، وكل مكان اتصلت به بيوته واتخذ مجمعاً وقراراً[(١)]، وقد اختلف المفسرون في القرية ما هي؟ فقال جماعة إنّها أنطاكية من مدن الروم القديمة، وهي مدينة تقع في تركيا اليوم مقاربة لحلب السورية، وهي المدينة المقدسة الثانية للمسيحيين بعد بيت المقدس. وأنطاكية من أقدم مدن الشام بنيت بحدود ثلاثمائة سنة قبل الميلاد، وتعد من أكبر ثلاث مدن رومية في ذلك الزمان من حيث الثروة والعلم والتجارة، وتعتبر للنصارى كالمدينة المنورة للمسلمين. ابتدأ المسيح دعوته منها، تبعد مائة كيلو عن مدينة حلب وستين كيلو متراً عن الإسكندرية احتلها الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى، ولما أرادوا الخروج ألحقوها بالأراضي التركية لكيلا تتأثر بالمسلمين[(٢)].

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٢٢٦، (قرا)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٣٢، (قرى).
(٢) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٢٤، (بتصرف).

وقال آخرون غيرها، كما أن بعضهم قال إن الرسل هم رسل عيسى عليه السلام إليها، وقال آخرون إنهم رسل الله سبحانه، ولكن الروايات الواردة بطرقنا تؤكد أنّها أنطاكية، وأنّ الرسل من الله، وفي رواية أخرى أنهم رسل عيسى[(١)].

ووجه الجمع ظاهر؛ لأن رسول عيسى هو رسول الله سبحانه، وحيث لا أهمية لهذا البحث لان المهم هو معرفة العبرة والعظة نبحث في المهم وهو معرفة العلاقة بين وقائع أنطاكية والملك بالجاهلين الذين بعث إليهم النبي صلى الله عليه وآله، حتى أمر المصطفى بأن يضرب لهم مثلاً بأنطاكية وقومها يقول عزّ وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إذ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾[(٢)] ولعل قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ يدل على أن أنبياء عديدين جاؤوهم ودعوهم إلى الإيمان ولما لم ينفع معهم أرسل اليهم اثنين ثم عزّزهما بثالث. كما يفيده تكرار (إذ) الحينية وصيغة الجمع.

المفردة الثالثة: قوله: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾

يحتمل معنيين:

الأول: كبراء القرية ورؤساؤها وأثرياؤها والمالكون لها كما هو الظاهر من نسبة الإضافة.

---

(١) تفسيركنز الدقائق: ج١١، ص٤٣؛ بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٦؛ تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٣٥.

(٢) سورة يس: الآيتان ١٣-١٤.

الثاني: عموم أهل القرية، و الأول أقوى؛ لأنّ المعاندين عادة هم الكبار وأصحاب القرار؛ لأنهم يتوهمون التضرر بتصديق الأنبياء عليهم السلام، ولأنهم أصحاب القرار فيها لو آمنوا أو أنكروا يتبعهم الناس عادة، و: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا**﴾ ولم يقل (ذكرهم) أو (اقصص لهم) أو (علّمهم) ونحو ذلك يتضمن نكتة لطيفة، ولها آثار هامة.

وبيان ذلك: أن الضرب هو إيقاع شيء على شيء بحيث يؤثر الضارب في المضروب[1]، وهو في الماديات معروف كالضرب بالعصا واليد والسيف. قال تعالى: ﴿**أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**﴾[2] وفي المعنويات قال تعالى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ**﴾[3] ومنه ضرب المثل، ويراد به تشابه الحالتين وتشاكلهما في الموضوع والغاية والأثر والاختلاف في الصورة.

قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً**﴾[4] لبيان الاشتراك في ظهور الأثر، وعند أهل البلاغة أن المثل له مورد ومضرب، والمورد هو الحادثة الأولى التي وقعت وصارت مثلاً، والمضرب هو القضية الجديدة المشابهة له، وفي هذه الآية يقول تعالى لنبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾[5] والضارب هو النبي والمضروب له هو قومه، والمورد

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٠٥، (ضرب)؛ معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٣٩٨، (ضرب)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص١٠٤، (ضرب).

(٢) سورة الأعراف: الآية: ١٦٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٢.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢٩.

(٥) سورة يس: الآية ١٣.

هو أصحاب القرية بصفاتهم وخصوصياتهم، والمضرب هو قريش ومن بعث فيهم النبيﷺ كانوا معاندين وهم على طوائف كفار ومشركين؛ لذا تشابهت أساليبهم في مواجهة الرسل.

ويستفاد من قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ أن القوم كانوا يعلمون بقصة أهل أنطاكية وملكها والرسل الذين بعثوا إليهم فكذبوهم في بادئ الأمر، ثم آمنوا بهم بعد ما رأوا الآيات والمعجزات منهم.

ولو لم يعلموا بهم لم يكن وجه لضرب المثل، فإن ضرب المثل إنما يكون للعارف به وبقصته وأحداثه، وهذا هو الذي يفيد التأثير ويحقق الغاية من المثل، ولو لم يكونوا يعلمون بذلك لقال سبحانه: (وأعلمهم بأصحاب القرية) أو: (أقصص عليهم قصتهم) أو: (أخبرهم بقضيتهم) ونحو ذلك من عبارات، ولو قال ذلك لأنتقض الغرض واستلزم الخلف؛ لأن القوم كذبوا النبيﷺ في دعواه النبوة فكيف يصدقونه فيما يخبر عن القرية وأهلها؟ بل امتنع التصديق وصار داعياً أقوى للتكذيب؛ لأن الذي يتهم النبيﷺ بالكذب ولا يصدقه في دعواه النبوة كيف يصدقه في إخباراته الأخرى لاسيما وأنها تعتبر من العلم بالماضي الذي هو غيب بالنسبة لهم؟ ولو أخبرهم بما وقع في الماضي قاصداً العضة والعبرة لاتهموه بأنه يخلق الكلام لأجل أن يجذبهم إلى الإيمان.

وكيف كان، فالتعبير بقوله (اعلمهم أو اقصص عليهم أو أخبرهم ونحو ذلك) ممتنع؛ لاستلزامه الخلف ونقض الغرض، والثاني ظاهر، وأما الأول فلأن تصديقه فيما يقص ويخبر يتوقف على تصديقه في دعواه النبوة.

والخلاصة: أن قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً**﴾ يدل على أنّ قريشاً وأطرافها كانوا يعلمون بخبر القرية ومرسليها وما جرى بين أهلها وبين الرسل من محاورات، ويعلمون بأنّ عاقبة الحوار كان هو الإيمان، وواضح أن شواهد القضية التي ذكرناها في شأن النزول تدل على أنّ أنطاكية كانت مدينة متحضرة لها دولة ومجتمع، ولها ملك وجهاز حكم وسلطة وقضاء ونظام عقوبات، فكان العرب يعلمون بحالها، وأن لها من العلم والفكر ما يعينها على فضح الكاذب وتصديق الصادق، فإذا لاحظوا أن أهل أنطاكية وملكها آمنوا برسلهم بعد ظهور الآيات والمعجزات لكان ذلك أدعى لإيمانهم برسول الله صلى الله عليه وآله إذا دعاهم إلى ذات الدعوة وأظهر لهم الآيات والمعاجز، فلا داعي للعناد والمكابرة.

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا يُكذِّبون الأنبياء؟

أن أهم ما يثيره المعاندون والكفار من إشكالات في مواجهة الأنبياء إشكالان:

الأول: بشريتهم، وكيف أن الأنبياء بشر يعيشون في الأرض ويكونون كسائر الناس؟ وهذا يدعو الكبراء والزعماء إلى التكذيب غالباً بدافع الحسد والخوف على زعامتهم.

وقد وردت في بيان ذلك عدة روايات منها ما رواه الطبرسي في مجمع البيان، وكذا في تفسير البرهان:

عن وهب بن منبه قال: بعث عيسى عليه السلام هذين الرسولين إلى أنطاكية، فأتياها ولم يصلا إلى ملكها، وطالت مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبّرا وذكرا الله، فغضب الملك وأمر بحبسهما، وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، فلما كُذّب الرسولان وضُربا بعث عيسى عليه السلام شمعون الصفا رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلدة متنكراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى آنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه، ورضي عشرته وأنِسَ به وأكرمه.

ثم قال له ذات يوم: أيها الملك! بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل سمعت قولهما؟ قال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطّلع ماعندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء لا شريك له. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمنّاه، فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعا في حدقتيه، فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك ولإلهك شرفاً؟ فقال الملك: ليس لي عنك سر، إنّ إلهنا الذي نعبده لا يضر ولا ينفع، ثم قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنا به وبكما.

قالا: إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن ههنا ميتاً منذ سبعة أيام لم ندفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاؤوا بالميت وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربه سراً، فقام الميت وقال لهم: إني قدمت منذ سبعة أيام، وأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله، فتعجب الملك، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك دعاه إلى الله فآمن، وآمن من أهل مملكته قوم، وكفر آخرون[١].

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٥؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩٠، ح٢.

وفي رواية علي بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام: «أنّ الميت الذي أحياه الله تعالى كان ابن الملك، وأن أهل المملكة آمنوا كلهم بعد إيمان ملكهم»(١).

ويمكن الجمع بحمل أهل المملكة كلهم على حاشية الملك وكبار الدولة والمجتمع؛ لجريان العادة على تسمية الجماعة بأسماء رؤسائها لتبعية الناس لزعمائهم عادة.

ونلاحظ من أحداث القصة أن الآيات المباركة تتحدث عن إحياء أمة كانت عقولها وقلوبها ميتة؛ لأنهم كافرون، وإحياء ميت بإذن الله سبحانه يكون دليلاً وجدانياً حسياً يدل على حقيقة أن الباري يحيي الموتى بإرادته وبإذنه.

وواضح أن الإحياء كما يمكن أن يفعله الباري بإرادته فإنه يمكن أن يفوضه لبعض أوليائه فيحيوا الموتى بإذنه، كما أعطاه لعيسى عليه السلام فكان يحيي الموتى بإذنه، وبذلك يندفع الإشكال الذي قد يخطر في أذهان البعض بما قلنا من أن حياة الأشياء وبقاءها يكون بالإمام عليه السلام، وأن به إحصاء كل شيء.

لأنهم إذا آمنوا بالرسل لتعين عليهم أن يسلِّموا لهم السلطة والحكم، لكنهم خوفاً على ذلك يكذبون، ولا يعلمون بأن مهمة الأنبياء الأولى ليست الحكم والسلطة، بل التعليم والتربية والتهذيب وتكميل العقول والأرواح لا إشباع البطون وتوفير العيش المرفه والمال والسلطة.

هذه الحقيقة التي يغفل عنها بعض الجاهلين بالغايات الإلهية ومهمات الأنبياء، واليوم كثيراً ما يثير الملاحدة والماديون هذه الشبهة ويقولون بأن

---

(١) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٨٧؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩١.

الدين لماذا لم يصنع الطائرة ولم يصعد إلى القمر ولم يصنع الحاسوب ولا الأنبياء صنعوا ذلك؟ فلو كانوا يعلمون لماذا لم يأتوا بذلك فإنّ الجواب عن ذلك مفصل لكننا نشير إلى بعض الجواب هنا ونوكل التفصيل إلى محله.

فنقول: إن الصناعات المذكورة هي نتاج عقل البشر وتجاربه، وهذا الفعل نفسه والروح التي تقف وراء الصناعات من يصنعها ومن يهذبها ويجعلها إنسانية في التفكير والمواقف والغايات؟ لاشك أن هذه هي مهمة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولو كان العالم يأخذ بتعاليم الأنبياء لعاش في أعلى درجات السعادة والرفاه والرقي الإنساني والحضاري، ولكنه ابتعد عن ذلك واستغنى بما لديه من علوم، فانظر كيف ساد الظلم والفساد والفوضى في العالم أجمع، ويكاد يجزم المنصف بأن الأرض لا يوجد فيها عدل ولا إنصاف، بل القوي يتغلب على الضعيف، والغني على الفقير. نعم قد تختلف نسبة الفساد والظلم من بلد لآخر إلّا أنها في المجموع تعيش الظلم والفساد، فقل لي في أي مكان من العالم هناك عدل وإنصاف حتى أبيّن لك موارد النقض؟ والمسألة لشدة وضوحها لا تحتاج إلى مزيد بيان.

فلا ينبغي أن نغفل عن هذه الحقيقة ونتصور أن مهمة الدين والأنبياء أن يصنعوا طائرة، لا أبداً هذه ليست مهمتهم؛ لأن هذه مهمة سهلة يمكن للإنسان العادي إذا تعلم وارتقى في العلم أن يصنع ذلك كما حدث بالفعل، وإنّما مهمة الأنبياء هي صناعة الإنسان الذي تعجز كل العلوم عن صناعته، بل العلوم والمعارف على طرفي نقيض مع صناعة الإنسان؛ لأن العلم كلما ارتقى توغل في المادة والماديات، وقادته المصالح السياسية، وضيّع الإنسان، والذي يصنع الإنسان ويصيره إنساناً راقياً متحضراً في

مبادئه وغاياته هو الدين وتعاليم الأنبياء، لذلك يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾(١) فالحياة الحقيقية للبشر ليست في الهندام ولا في العمارات التي يسكنها، ولا السيارات المرفهة، بل في عقله وروحه وضميره الحي.

فلو سألنا كل عاقل عمّا هو الأفضل العدل أم الحضارة المادية والإنسانية، أم السيارات والعمارات وكرامة الإنسان وسعادته الروحية، أم صعوده للقمر؟

لكان الجواب أن ما يهم الإنسان أولاً هو نفسه وسعادته الذاتية، وأما الأمور الأخرى فهي وسائل لإسعاده، وهذا هو ما يقوم به الأنبياء.

وهو ما تشير إليه الآية المباركة، فإنّ الأقوام وزعماءهم يكذبون الأنبياء ليس لأنهم لا يقرون للأنبياء بالنزاهة والطهر والعلم، بل لأنهم يخافون على مصالحهم فلا يؤمنون؛ لذا أشار الباري عزّ وجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن يضرب لهم مثلاً في أنطاكية التي كانت متحضرة ولهم ملك، ولكنهم آمنوا بعد أن كذبوا ولم تتضرر مصالحهم، ولم يستلم الأنبياء منهم سلطة ولا حكماً؛ لأن هذه ليست غايتهم ولا رسالتهم، وهذا المصير نفسه سيلاقيه زعماء قريش وسادتهم إذا آمنوا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

والثاني: قضية المعاد وإحياء الناس وحشرهم بعد موتهم، وسبب إنكارهم ذلك يعود إلى الخلل في منهج التفكير؛ لأنهم ماديون لا يؤمنون إلّا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

بما يشاهدون ويحسون. أما الحقائق الغيبية لا يقبلونها لانهم لا يحسونها وهذه قضية مبتلاة بها المدارس المادية اليوم أيضاً؛ لذا أحيوا الرسل ميتاً لأهل أنطاكية وأخبرهم عن واقع حاله بعد الموت، فآمنوا لانسداد سببي الإنكار والجحود لديهم أي الخوف على المصالح والإتيان بالدليل المحسوس لهم، وهذا يفسّر لنا بعض السر في أن معاجز الأنبياء دائماً تكون محسوسة لا مجردة؛ لأنها حتى تهدي الناس لابد وأن تحاكيهم على مستوى عقولهم، وإلا فإن العلماء لا يحتاجون إلى دليل محسوس، بل يكفيهم صحة القول وعمقه وسلامته من الأخطاء.

اللطيفة الثانية: ما علاقة قريش بأهل القرية؟

قد يقال لماذا أمر الله سبحانه نبيه المصطفى أن يضرب لقريش مثلاً بأهل أنطاكية؟

والجواب: لأمور:

الأول: تقريب قريش والعرب إلى الإيمان وجعل النموذج العملي الذي يحتذى في الإيمان ليكون أدعى لإيمانهم وتصديقهم وعدم المكابرة والإصرار على العناد، فيكون المثل من مصاديق اللطف؛ لأنهم كانوا يعلمون قصتهم وتحضرهم وتطورهم الفكري، فلو آمنوا وأذعنوا دل على صحة الدعوة وصدقها؛ لأنهم أكثر تطوراً، ولا تربطهم بالنبي ﷺ مصالح، وبهذا تتحقق غاية المثل؛ لأنه من ضرب شيء بشيء يظهر الأثر، فما كان على النبي ﷺ إلّا أن يضرب لهم المثل بهؤلاء لتصديقه لسببين:

السبب الأول: لأن ذلك كان من الإخبار بالغيب، فلم يشهد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه قضية أنطاكية ولا رسلها، لكنه يخبر عن تفاصيلها لهم، وكان ما يخبر به موجوداً ويعلمون به عندهم، وبواسطته يمكنهم الوثوق بصدقه أكثر وأنه لا يخدعهم أو يكذب عليهم - والعياذ بالله - بالرغم من أنه كان معروفاً عندهم بالصادق الأمين.

السبب الثاني: لأن تحشيد الأدلة والشواهد يزيل الشك والوسوسة عنهم، خصوصاً لو كان من الشواهد المثال الذي يحتذى، فإن الإنسان بطبعه يقتدي ويتأثر بالتجارب السابقة؛ فالمرشد قد لا يؤثر نظرياً ولكن إذا ضرب لهم مثلاً أوجد لهم القدوة، وقريش كانت معاندة أي كبارهم وساداتهم.

بعضهم عاندوا عصبية، وبعضهم بسبب الحسد، وبعضهم بسبب المصالح، أي خوفاً على مصالحهم لا يذعنون للنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه؛ لأنهم يتصورون أنهم لو آمنوا بالنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه فقدوا زعامتهم، وهذه مشكلة عامة واجهها الأنبياء من قبل الزعماء، ولكن في أنطاكية ما حصل كان العكس؛ لأنهم آمنوا بما فيهم الملك، وما فقدوا زعامتهم، وبضرب المثل يشوِّق العرب وأهل الزعامة إلى أنكم إذا آمنتم مصالحكم محفوظة ولا تتضرر، والدليل على ذلك أنطاكية.

الثاني: تسهيل مهمة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه في رد شبهات زعماء قومه وخوفهم على مصالحهم وإنكارهم للمعاد؛ لأنّ في جواب الرسل وإظهار الآيات والبينات ما يكفي للرد والجواب.

ومن جهة أخرى تطييب خاطر النبيﷺ وتسلية فؤاده بالأمل بهذا المثل؛ لأنهﷺ كان حريصاً على هداية قومه. فأهل أنطاكية كذبوا الرسل أولاً وعذبوهم ثم أمنوا بهم، وهنا تطييب لقلب النبيﷺ إذا مرّ ﷺ بمثل ظروفهم فكذب وعذب فإن الصبر على ذلك سيقود إلى الإيمان؛ لأن عاقبة الصبر الظفر؛ لذا قال سبحانه: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾[1] و: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**﴾[2] وواضح أن صبر أنبياء أنطاكية كان أقل من صبر النبيﷺ؛ لأن مهمتهم خاصة بمدينة صغيرة فما بالك بمن أرسل للعالم كافة بشيراً ونذيراً؟ فإن الصبر يجب أن يكون على قدر المهمة والمسؤولية.

الثالث: تأسيس منهج الاستدلال المرن والمحاورة الإقناعية مع الكفار والمشركين، وذلك لأنّ المعهود في مناهج الاستدلال الاعتماد على طريقين العقل والنقل، فإذا كان العقل قاصراً عن بلوغ المعاني العميقة أو البعيدة عن الحس والوجدان كالمعاني الغيبية ولا يمكن الاستدلال بالنقل في مثل هذه الموارد لأنه متهم لعدم ثبوت أصله لديهم فلابد من اللجوء إلى طريق ثالث للاستدلال، وهو طريق الحس والوجدان الذي يعبر عنه بطريق التجارب، ووصفه القرآن بضرب المثل، وهذا ما يقوله أهل المعرفة التجربة أكبر برهان، والمناطقة يقولون أدل دليل على إمكان الشيء وصحته وقوعه في الخارج، وهذه القضية كانت صادقة في قريش وأهل الجاهلية؛ لأن

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٢) سورة لقمان: الآية١٧.

عقولهم قاصرة وهم يكذبون النبي صلى الله عليه وآله فلم يبق للإيمان من طريق يقنعهم إلّا الالتجاء لطريق التجربة التي يعدونها غير متهمة.

إن قلت: أليس المعجزة كانت دليلاً؟

فالجواب: نعم المعجزة دليل لغير المعاندين. أما المعاندون فالمعجزة نفسها متهمة؛ لذلك وصفوا النبي صلى الله عليه وآله بالساحر، واتهموه بأمثال ذلك؛ لأنهم كذبوا معجزته عناداً فاتهموه بذلك، فلم يبق من طريق إلّا ضرب المثل، وبيان أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله يقودهم إلى الفلاح ولا يضر بمصالحهم حتى يؤمنوا، والدليل على ذلك أنطاكية وملكها.

اللطيفة الثالثة: لماذا عززهم بثالث؟

بتعزيز الرسل بثالث يترسخ في أذهان الناس غاية النبوة والقرآن والإمامة وبيان دور كل منها في الهداية الإرائية والهداية الإيصالية.

وتوضيح ذلك: أن الضوابط الثلاث التي تقدمت في الجمع الدلالي بين القرآن والسنة، أو الظاهر والباطن القرآني، ولغة الإشارة التي يفهمها الخواص، فإن قوله: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ**﴾(١) يشير إلى النبي صلى الله عليه وآله والقرآن ﴿**فَكَذَّبُوهُمَا**﴾(٢) وهذا هو الواقع؛ إذ كذبوا النبي صلى الله عليه وآله واتهموه، كما كذبوا القرآن واتهموه ﴿**فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾(٣) وهو أمير المؤمنين عليه السلام كما أشارت إليه

---

(١) سورة يس: الآية ١٤.

(٢) سورة يس: الآية ١٤.

(٣) سورة يس: الآية ١٤.

بعض الأقوال، ولعل الأخبار، وذلك إما لجهة التوسعة في مفهوم الرسول أو الاشتراك في الأثر بين الرسل الثلاثة في أنطاكية والرسل الثلاثة لقريش.

والتعزيز والغلبة تمت بالثالث؛ لأن هدايته كانت ايصالية إلى المطلوب، بخلاف الرسولين فإنّ هدايتهما كانت إرائية للطريق، فالحد الأدنى من الهداية هو إراءة الطريق وقد تم بالرسولين للملك وحاشيته. أما الإراءة الإيصالية التي قادتهم إلى الإيمان فكانت هداية الثالث، وكذا النبي صلى الله عليه وآله والقرآن فإنه لو لا الإمام لا يصلان إلى الغاية، ولذا اتفق أهل الكلام على أن الدين يكتمل بالإمامة، وأن الهداية تتم بالإمام، وفي ذلك ترسيخ لهذا المبدأ في قريش وغيرهم وإلى يومنا هذا، فينبغي أن يعرف المسلمون أن الدين والهداية والفلاح في الدنيا والآخرة لا يتحقق من دون الإمامة والإمام.

فإن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله واجب وكذا القرآن؛ إلّا ان بلوغ غاية النبوة والقرآن لا يكون إلّا بالإمام، وهذا ما اشارت إليه الآية السابقة: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ واشارت إليه الآيات الأولى من السورة المباركة، أي قوله تعالى: ﴿**يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ۞ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ والصراط المستقيم هو الإمامة والإمام المنصوب من الله سبحانه بعد النبي صلى الله عليه وآله هو أمير المؤمنين عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ**﴾ فالذي لا يتبع الذكر لا يهتدي ولا يهديه الإنذار، والذكر هو أمير المؤمنين عليه السلام، وفي ذلك تعليم هام للمسلمين على مدى التأريخ وإلى يوم القيامة أن الهداية والإيمان في الإمامة والإمام.

المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين

وهي كثيرة وبضميمة ما ورد في شأن نزولهما نستعرض بعض المهم منها:

التعليم الأول: ثلاثة عناصر لنجاح الأفراد والدول

أنّ النجاح والتفوّق في الحياة يتحقق بالنظر إلى الغايات دائماً، فإن النجاح في حياة البشر يقوم على عناصر أهمها ثلاثة:

الأول: وجود هدف وغاية؛ لأن الهدفية تخرج الإنسان من الفوضى والتضيّيع.

الثاني: وجود نظام وبرنامج مدروس يوصل إلى الغاية، فإنه السبب الثاني المكمل؛ لأن وجود الغاية وحدها لا يوصل إلى المطلوب، بل لابد من طريق وخطة توصل إليه.

الثالث: العمل الدؤوب ضمن الخطة المرسومة، فلو اجتمعت هذه الثلاثة تمكن الإنسان من الوصول إلى الغاية، وأما إذا كانت له غاية ولكنه لا يملك البرنامج أو يملك البرنامج إلّا أنه لا يعمل أو يعمل ولكنه ينشغل بالجزئيات والشواغل والصوارف التي تنسيه الهدف والغاية فإنه لا يصل إلى مطلوبه، ولو درسنا حياة الناجحين والفاشلين في حياتهم وجدنا هذا هو الميزان الذي يسبب نجاح البعض إذا عمل به وفشل الآخر إذا لم يعمل.

وبهذا الميزان لا يفترق المؤمن عن غير المؤمن. نعم المؤمن يزيده الباري عز وجل توفيقاً وبركة، ولكن التوفيق والبركة معلولان لإرادة الإنسان

وعمله الصحيح؛ لذا يقول تعالى بأنه لا يمنع أحداً من عطائه، ويمنح الجميع فرصة النجاح بشرط أن يأخذ بالأسباب؛ إذ قال سبحانه: ﴿**كُلّاً نُّمِدُّ هؤُلاَءِ وَهؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾(١) هذا كله في ميزان الدنيا. وأما في ميزان الآخرة فيعطي الباري للمؤمن من النعم ما لا يعطيها للكافر.

هذا التعليم نستفيده من الآيتين المباركتين؛ لأنهما وردتا في قضية هامة أمر بها النبي صلى الله عليه وآله أن يضرب مثلاً لقومه في أصحاب قرية أرسل إليهم الرسل ولكنها لم تسم القرية، ولم تسم الرسل، ولم تتعرض إلى قومية أصحاب القرية ولا إلى لغتهم، ولا إلى أحوالهم؛ لأن الأسماء والعناوين ليست هي المهمة، وإنما المهم الغاية من ضرب المثل، وهي حصول الأثر المطلوب، فينبغي أن نتعلم من القرآن كيف يرسم لنا الطريق ويعلمنا كيف ينبغي أن ننظر إلى الأمور ولا ننشغل بالهوامش والأشياء غير المهمة، بل دائماً ننظر إلى الغاية.

فأولاً: يجب أن يكون لكل إنسان ومجتمع غاية، وكذلك لكل دولة، فإنه بدون الغاية يضيع ولا يصل إلى شيء.

وثانياً: أن توضع لكل غاية خطة مناسبة.

وثالثاً: العمل لأجلها. هذا هو سر تقدم البعض وفشل البعض، وسر تقدم الدول وتراجعها.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

نعم ذكر المفسرون أن الرسولين الأولين هما يحيى ويونس والثالث شمعون، وقيل هما شمعون ويوحنا والثالث يونس، وقيل صادق وصدق والثالث سلوم، وكل ذلك لا يهم في الغرض والغاية[1].

التعليم الثاني: بالإقناع يتم الإيمان

أن بلوغ الغاية في الفكر والعقيدة وهداية الناس وتعليمهم يجب أن يكون بأسلوب الإقناع، ويتم باحترام الطرف الآخر وجذبه نفسياً أولاً، لا تنفيره وطرده، وإلّا انتقض الغرض؛ لذا نلاحظ أن الرسولين الأولين كذبا وضربا وحبسا، لماذا؟ لأنهما شددا في الدعوة وفاجآ الملك بما لا يعتقد فلم يسمع لهما، ولكن الثالث نصرهما ونجاهما وعزز دعوتهما بالرفق واللطف، فهدى الملك وأصحابه إلى الإيمان وبلغ الغاية.

وهذا ما يستفاد من شأن النزول الوارد في رواية علي بن إبراهيم عن الباقر عليه السلام إذ وردت بعض التفاصيل الهامة التي تؤكد هذه الحقيقة، فقد روى علي بن إبراهيم بسنده عن أبي حمزة الثمالي عن الباقر عليه السلام قال: سألته عن تفسير هذه الآية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾[2] فقال: «بعث الله عز وجل رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية فجآهما بما لا يعرفون، فغلّظوا عليهما فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام، فبعث الله الثالث فدخل المدينة فقال: أرشدوني إلى باب الملك. قال: فلّما وقف على باب الملك قال: أنا

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٤٢.

(٢) سورة يس: الآية ١٣.

رجل كنت أتعبد في فلاة من الأرض، وقد أحببت أن أعبد إله الملك فأبلغوا كلامه الملك، فقال: أدخلوه إلى بيت الآلهة فأدخلوه، فمكث سنة مع صاحبيه، فقال لهما: بهذا ينقل قوم من دين إلى دين بالحذق أفلا رفقتما؟ ثم قال لهما: لا تقرّا بمعرفتي، ثم أدخل على الملك فقال له الملك بلغني أنك كنت تعبد إلهي فلم أزل وأنت أخي فاسألني حاجتك، فقال: مالي من حاجة أيها الملك، ولكن رأيت رجلين في بيت الألهة فما بالهما؟ قال الملك: هذان رجلان أتياني ببطلان ديني، ويدعواني إلى إله سماوي، فقال: أيها الملك! مناظرة جميلة، فإن يكن الحق لهما أتبعناهما، وإن يكن الحق لنا دخلا معنا في ديننا وكان لهما مالنا وعليهما ماعلينا. قال: فبعث الملك إليهما، فلما دخلا إليه قال لهما صاحبهما: ما الذي جئتما به؟ قالا: جئنا ندعوه إلى عبادة الله الذي خلق السماوات والأرض، ويخلق في الأرحام ما يشاء، ويصور كيف يشاء، وأنبت الأشجار والثمار، وأنزل القطر من السماء. قال: فقال لهما: إلهكما هذا الذي تدعوان إليه والى عبادته إن جئنا بأعمى يقدر أن يرده صحيحاً؟ قالا: إن سألناه أن يفعل فعل إن شاء الله...

قال: أيها الملك! عليَّ بأعمى لم يبصر قط. قال: فأتي به، فقال لهما: ادعوا إلهكما أن يرد بصر هذا، فقاما وصليا ركعتين فإذا عيناه مفتوحتان وهو ينظر إلى السماء، فقال: أيها الملك! عليّ بأعمى آخر فأتي به. قال: فسجد - أي الثالث - سجدة ثم رفع رأسه فإذا الأعمى بصير، فقال: أيها الملك حجة بحجة. عليّ بمقعد فأتي به، فقال لهما مثل ذلك فصليا ودعيا الله فإذا المقعد قد أطلقت رجلاه وقام يمشي، فقال: أيها الملك! عليّ بمقعد آخر فأتي به، فصنع

به كما صنع أول مرة فانطلق المقعد، فقال: أيها الملك قد أتيا بحجتين وأتينا بمثلهما، ولكن بقي شيء واحد فإن هما فعلاه دخلت معهما في دينهما، ثم قال: أيها الملك! بلغني أنه كان للملك ابن واحد ومات، فإن إحياه إلههما دخلت معهما في دينهما، فقال له الملك: وأنا أيضاً معك، ثم قال لهما: قد بقيت هذه الخصلة الواحدة قد مات ابن الملك فادعوا الهكما أن يحييه. قال: فخرا إلى الأرض ساجدين لله عز وجل وأطالا السجود ثم رفعا رأسيهما وقالا للملك: ابعث إلى قبر ابنك تجده قد قام من قبره إن شاء الله. قال: فخرج الناس ينظرون فوجدوه قد خرج من قبره ينفض رأسه من التراب. قال: فأتي به إلى الملك فعرف أنه ابنه، فقال له: ما حالك يا بنيّ؟ قال: كنت ميتاً فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين يسألانه أن يحييني فأحياني. قال: تعرفهما إذا رأيتهما؟ قال: نعم. قال: فأخرج الناس جملة إلى الصحراء فكان يمرَ عليه رجل رجل فيقول له أبوه: انظر فيقول: لا لا، ثم مرّوا عليه بأحدهما بعد جمع كثير فقال: هذا أحدهما، وأشار بيده إليه، ثم مرّوا أيضاً بقوم كثيرين حتى رأى صاحبه الآخر فقال: وهذا الآخر. قال: فقال النبي صاحب الرجلين: أما أنا فقد آمنت بإلهكما، وعلمت أن ما جئتما به هو الحق. قال: فقال الملك: وأنا أيضاً آمنت بإلهكما ذلك، وآمن أهل مملكته كلهم»[1].

وقد وردت الأحاديث بروايات عديدة متقاربة في المضمون[2].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٢ فما بعدها؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٧٩، ح٣٠؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩٠.

(٢) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٥٨؛ روح البيان: ج١٧، ص٣٧٨.

وفي هذه القصة قضايا كثيرة ومهمة تستدعي البحث والتنقيح، وفيها تعاليم كثيرة نشير إلى بعضها في صيغة أسئلة ونوكل الجواب إلى محله.

منها: لماذا أظهر الرسول الثالث معجزة وقابل حجة الرسولين ففتح الأعمى وأقام المقعد؟ هل لأجل أن يثبت للملك أنه ولي ويملك قدرة ربانية على التصرف، أو لكسب مزيد الثقة من الملك أم لهما؟

ومنها: لماذا جعل الإيمان يدور مدار إحياء الميت مع أنه كان قادراً على إحياء الميت لأن مقامة أعلى؟

ومنها: لماذا كانت المعجزة أو الكرامة تظهر بصلاة الرسولين ودعائهما أما هو كان يظهرها بالسجود وبالدعاء فقط؟ هل يدل ذلك على تفاوت المقامات بينهما؟

ومنها: لما أرادا إحياء ابن الملك لماذا أطالا السجود وكانت هذه على خلاف تفتيح البصر وإقامة المقعد؟ هل قوة الكرامة لها مدخلية في ذلك؟

ومنها: كيف رأى الميت الرسولين ساجدين وهو في عالم البرزخ وهما في عالم الدنيا؟ هل الانقطاع بالدعاء يدخل العبد في عالم الملكوت حتى يشاهده أهل الملكوت؟

ولكل سؤال جواب ولكننا نكتفي بالتعليم المستفاد من هذه القصة، وهي أن الذي يريد أن يرشد ويهدي ويعلم يجب أن يتبع الإرفاق والإقناع وكسب الثقة حتى يؤمن به الناس، وإلّا لا يتوقع أحد أنه بالخرق أو بالشك والريب يكسب ثقة الناس فيؤمنوا به.

ولا يخفى أن هذه الرواية تثبت أن الميت كان ابن الملك، بينما الرواية الأولى قالت كان أبوه غائباً بما تفيد أنه ليس ابن الملك، ولابد أن يحمل على أحد المحملين.

الأول: أن نقول بتعدد الواقعة في إحياء الميت، أي كان أكثر من ميت.

الثاني: أن تحمل أبوة الملك للميت على الأبوة المعنوية.

التعليم الثالث: أثر التعزيز بثالث

أن الآية قالت: ﴿**فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾[(١)] والتعزيز هو الغلبة[(٢)]، ومنه قوله تعالى في قضية الخصمين اللذين ترافعا إلى داود عليه السلام: ﴿**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾[(٣)] أي غلبني، ويستفاد من الآية أن غلبة الرسولين تمت بالثالث فماذا صنع؟ والجواب، صنع ثلاثة أمور:

الأول: نصر موقف الرسولين وأثبت حقانية دعواهم.

الثاني: عزز موقف الإيمان في القلوب بالحكمة والرفق والإقناع.

الثالث: هداية أصحاب القرية إلى التوحيد وغلبته على عبادة الأصنام، وبذلك يكون قد أحياهم بعد أن كانوا أمواتاً، وفي ذلك كله نكات تعليمية هامة:

منها: أن الحجة يجب أن تعزز؛ لأن التعزيز لا يخلو من فائدتين فائدة ذاتية تتم بالتحشيد والتعاضد، وفائدة غائية بأن تزيد في نسبة التأثير في المنكرين.

---

(١) سورة يس: الآية ١٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٤، (عز).

(٣) سورة ص: الآية ٢٣.

ومنها: أن الثلاثة هو أفضل عدد يتم به الاحتجاج والتحاشد والحوار والتفاوض وإرسال الوفود، وهذا تعليم هام يعلمنا الأسلوب الأفضل في بناء التحالفات على مختلف الصعد.

ومنها: أن التعزيز يجب أن يقوم على ركنين:

أحدهما: أن يكون للمبدأ الحق والموقف وليس للأشخاص والأفراد؛ لأن تعزيز الأفراد متهم بالمصالح أو بالعصبية، بخلاف تعزيز المبدأ؛ لذا الآية قالت: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾[١] ولم تقل (فعززناهم) لأن الموضوعية ليست للأفراد، بل للمبدأ الذي يدعون إليه.

ثانيهما: أن يسد الخلل الحاصل، فإنه لو فشل الوفد الأول في الحوار والوصول إلى الغاية فإن التعزيز يجب أن يتم بتغيير الأسلوب وتلافي الخلل، وليس البقاء على ذات النهج؛ لأن الاستمرار على النهج نفسه لا يحل المشكلة، بل يزيدها؛ إذ لو كان الاسلوب الأول مجدياً مع المعاندين لم تكن حاجة للتعزيز، إلّا أنه حيث لم يستجب القوم وتعالوا كان لابد من تغيير الطريقة مع الحفاظ على أصل المبدأ، وكان فيه غاية الأثر والتأثير؛ لذا قال الثلاثة: (إنا لمرسلون) مع أن الإرسال جاء تدريجياً، فأولاً جاء اثنان ثم الثالث، لكن حيث إن الجميع على مبدأ واحد وغاية واحدة قالوا: إنا إليكم لمرسلون وإن اختلفت الطريقة فلابد أن يلتفت المفاوضون والمتخالفون والمصلحون إلى هذه الحقيقة الهامة، وهي الحفاظ على المبدأ وتغيير

---

(١) سورة يس: الآية ١٤.

الأساليب، وهذا يوجب عليهم مراجعة الخطط وتقويم اعوجاجها دائماً، ويؤكد هذا أن أهل القرية لما استمعوا للثالث أجابوهم وقالوا: ﴿**مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ**﴾[1] فأبدوا نظرهم حينما لم يجيبوا على الرسولين، بل ضربوهما وحبسوهما، لأنهم وجدوا في الثالث ما يفرض عليهم الجواب.

ومنها: أن التأييد والنصرة لا يجب أن يكون للأشخاص وإنما للمبادئ والمناهج، وهذا تعليم عام يظهر أثره كثيراً في الجانبين السياسي والاجتماعي، فلا ينبغي للمؤمن أن يتبع الأفراد لفرديتهم، بل لمبادئهم وسيرتهم؛ لأن الأفراد يتبدلون ويخطؤون ويصيبون. أما المبادئ فلا تتبدل.

فلو أراد أن يختار رئيساً أو وزيراً أو مديراً أو ينتمي إلى جماعة فلا ينظر إلى شخصه فقط، بل إلى برنامجه أيضاً، وإن كانت للشخصية الأثر البالغ في القناعة والوثاقة، إلّا أنّ الشخص الثقة إذا لا يمتلك مبدأ صحيحاً ولا سياسية ناجحة لا يوصل إلى المطلوب، كما أنّ الذي يمتلك سياسة صحيحة لكنه غير موثوق لا يمكن الاطمئنان إليه والركون إلى سيرته، والذي يوصل إلى المطلوب هو السياسة الصحيحة إذا مثلها الثقات، وهو الذي عبر عنه القرآن (بالقوي الأمين) وبهذا يكون الاختيار واعياً، وبه يستطيع الناس أن يضمنوا لهم ولأولادهم حياة أفضل.

---

(١) سورة يس: الآية ١٥.

التعليم الرابع: مبادئ الإدارة والقيادة

أنّ الآية تشير إلى أربعة مبادئ هامة في الإدارة والتدبير لو التفت إليها المدراء المعنيون بالقيادة استطاعوا تحقيق الكثير:

المبدأ الأول: أن لكل مهمة يجب أن يكون هدف وبرنامج وأسلوب ومدراء أكفاء.

المبدأ الثاني: إذا أوكلت مهمة إلى شخص فلا تتركه وحده، بل راقب عمله وإنجازه، فإن أخطأ قوّمه، وإن افتقر إلى قوة عزّزه، وإلّا خسرت المشروع والفرد معاً، واتهمت بالعجز.

المبدأ الثالث: التحلي بالصبر والمقاومة وعدم التراجع عن الغاية الصحيحة، فإنّ كل عمل ينجزه الإنسان أو غاية يطلبها لايخلو من مشاكل ومعوقات، فليس الحل هو الهروب من المواجهة، بل مواجهتها والصبر عليها وردم الخلل الحاصل فيها، فلما كذَّب القوم الرسولين أرسل الباري عزّ وجل إليهم الثالث، وبالثالث تحققت الغاية مع أنّ أجواء التكذيب والعناد واليأس كانت هي السائدة أولاً.

المبدأ الرابع: تعدد الكفاءات وكثرتها مبدأ أساس لتحقيق النجاح في أي عمل، وهذا يستدعي أن تشتمل الخطط على ضوابط تحفظ الطاقات الجيدة الموجودة، ومنهج للتربية والتنمية للطاقات الجديدة لكي يكون العمل دائماً متوفراً على الكفاءات التي بها يدوم العمل وينجز ويبلغ الغايات.

التعليم الخامس: التعزيز بثالث ودلالته الأصولية

إن إرسال الرسولين ثم التعزيز بثالث يتضمن عدة دلالات في أصول الفقه:

الدلالة الأولى: حجية خبر الواحد في المسائل الأصولية الاعتقادية فضلاً عن الفقهية الفرعية، لاسيما على القول بأن الرسل كانوا مبعوثين من قبل عيسى عليه السلام.

الدلالة الثانية: أن الاستفاضة في النقل بل التواتر يتحققان بالثلاثة فما فوق. أما الأول فواضح بناء على أن الاستفاضة من أخبار الآحاد، وأما الثاني فلأن في الثلاثة لاسيّما مع توفر قرائن الصدق مما يفيد العلم.

الدلالة الثالثة: أن الخبر الواحد بالواسطة حجة فلا يشترط في حجية الخبر النقل المباشر، فتصح العنعنة في الأخبار بناء على أن عيسى عليه السلام هو الذي أرسلهم.

الدلالة الرابعة: أن الأمر بالأمر بالشيء أمر، فيثبت له من اللوازم ما يثبت للأمر المباشر، كوجوب الطاعة وحرمة المخالفة واستحقاق المثوبة والعقوبة على الفعل والترك.

الدلالة الخامسة: أن الحجية طريقية لا موضوعية، فلو توقف إيصال العباد إلى الهداية إرسال أكثر من حجة في زمان واحد ولمورد واحد وجب من باب اللطف أو مقدمة الواجب.

التعليم السادس: بصائر للمبلغين والمصلحين

إن التعزيز بثالث يتضمن بصائر هامة للمبلغين والمصلحين:

الأولى: ينبغي معرفة الأقوام الذين يراد هدايتهم في تأريخهم ومعتقداتهم وما يحبونه وما يبغضونه؛ لذا قال سبحانه: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً**﴾(١).

الثانية: أن لا يتوقع المبلغ أن الناس يأتونه ويبدون له الاحترام والتقدير حتى يبلغ الرسالة، بل عليه أن يذهب بنفسه إليهم؛ لذا قال: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ**﴾(٢) و: ﴿**فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ**﴾(٣).

الثالثة: أن يدخل إليهم برفق ولطف ليكسب ودهم وثقتهم في العلم والكفاءة والصدق حتى يستمعوا له، فإن من دون المحبة والوثاقة لا يمكن التأثير.

الرابعة: أن لا يطلبوا أجراً أو منفعة خاصة لعملهم، بل يبلغوا للحق ومبادئه، وإلّا دخلوا في سلك التجار لا الرسل والمبلغين.

الخامسة: أن يصبروا على التكذيب والمعاندة والعذاب النفسي أو الجسدي، فإن عاقبة الصبر الظفر.

السادسة: أن ينشغلوا بالهدف الأصلي الذي بعثوا لأجله وجاؤوا يبلغونه ولا يهتموا بالهواش والصوارف التي تعيق مشروعهم الإصلاحي

---

(١) سورة يس: الآية ١٣.

(٢) سورة يس: الآية ١٤.

(٣) سورة يس: الآية ١٤.

مهما حاول المخالفون أن يشغلوهم به، فإن من طبيعة أهل المصالح أن يتهموا المصلحون ويسعوا لإسقاطهم من القلوب بالتهم والدعايات الكاذبة أو الحبس والطرد، ولكن النظر إلى الهدف الأصلي من شأنه أن يربط على قلوبهم ويمنحهم مزيد الفرص للنجاح.

السابعة: أن الأسلوب الأنجح في إيصال الرسالة هو الرفق والحوار والإقناع لا الفضاضة والعنف؛ لأن العنف يؤدي إلى العزلة ثم العنف المضاد، ويجهض المشروع برمته كما أشارت إليه رواية علي بن إبراهيم المتقدمة[1].

التعليم السابع: علائم المنتحلين والدجالين والسحرة

وهو تعليم لعموم الناس، يرشدهم إلى كشف المنتحلين وأصحاب الادعاءات الكاذبة الذين يأتونهم ويدعون أنهم يملكون كرامات ومقامات معنوية لاستدرار أموالهم، أو لكسب ودهم أو خديعتهم وتضليلهم كالسحرة والدجالين، ويتم كشفهم عبر ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ملاحظة الغاية إلى ماذا يدعون؟ فالمنتحلون يدعون لأنفسهم، ويطلبون من الناس اتباعهم أو المال، ولا يدعون إلى الله سبحانه، أما الأولياء وأصحاب الكرامات فلا يطلبون من الناس مالاً، ولا يدعون لأنفسهم ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾[2].

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٢، فما بعدها؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٧٩، ح٣٠.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٧.

الأمر الثاني: ملاحظة تأريخهم وسيرتهم، هل معروفون بالعلم والعدالة والتقوى؟ وهل درسوا عند العلماء المعروفين؟ وهل سلوكهم مطابق لموازين الشرع أم لا؟ فلا يصح أن يصدق الناس أصحاب الدعوات روحية كانت أو سياسية حتى يعاشروهم ويعايشوهم فيتعرفوا على واقعهم، فإذا وثقوا بهم يتبعونهم؛ لذا بقي الرسول الثالث في المدينة مدة مديدة حتى عرفه الناس ووثقوا به فقربوه واستمعوا له.

أما إذا كل من ادعى شيئاً صدقه الناس فهذا خطأ كبير يقودهم إلى الضلالة في كثير من الأحيان، ولا عذر لهم أمام الله سبحانه إذا اتبعوا دون تحرٍّ ودون معرفة وتوثيق، ومن العجب ان الناس لا يعطون أموالهم لشخص يريد أن يعمل لهم من دون سؤال وتحر وتوثيق فكيف يسلّمون دينهم ومصيرهم إلى أناس دون معرفة علمية دقيقة وتوثيق؟

الأمر الثالث: ملاحظة الأساليب، فإنّ المنتحلين والسحرة والذين يسخرون الجن يستعملون أساليب متقاربة، وفي الغالب تتضمن الخديعة والزيف. منها استعمال الأبخرة والعطورات، وطلب اسم الأم أو ملابس، أو يطلبون أطعمة أو أشياء معينة يجب أن يأتي بها الشخص حتى يؤثر فعلهم، أو يظهرون للناس بعض الأفعال العجيبة ليقنعوهم بأنهم يملكون مقامات معنوية، ولكن عند الامتحان يسقطون، فإن ما يقدر عليه هؤلاء هو نوع من السحر وتسخير الجن الذي يتصرف تصرفات خفية عن البصر يتصورها الناس أعاجيب وليس كذلك.

وفي الغالب قدرتهم محدودة، فلا يقدرون إلّا على بعض الأعمال، فإذا طولبوا بغيرها عجزوا؛ لذا تجد المتحلين والدجالين هم يبادرون الناس باظهار الأعاجيب، وأفضل طريق لكشفهم أن يطالبهم الناس بأعاجيب أخرى سيعجزون عنها، ويظهر عجزهم.

ولذا نلاحظ في شأن نزول الآية أن الرسل الذين بعثوا لأنطاكية حينما طولبوا بالآية قالوا: ما شئتم نظهره لكم؛ لأنهم يرتبطون بالله، والله سبحانه قادر على كل شيء؛ ففتحوا الكفيف، وأقاموا المقعد، وأحيوا الميت. هذه هي معاجز الأنبياء التي يقصر عن مثلها السحرة والكذابون، فلابد أن يلتفت الناس إلى هذه الحقيقة لكيلا يقعوا في فخ أهل الدنيا والدجالين الذين يضيعون عليهم دينهم ودنياهم.

هذا بعض ما يستفاد من الآيتين المباركتين، وفي الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جواب أهل أنطاكية وسبب تكذيبهم لهم.

قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ

يس/ ١٥

تتعرض الآية المباركة إلى الأسلوب الذي واجه به أهل انطاكية الرسل والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة، وعمدتها تكرر النفي والإستثناء ثم الإثبات بعده، فبعد أن دعاهم الرسل إلى الإيمان فإن أول رد فعل كان لهم أن قالوا: ﴿**مَا أَنتُمْ إِلّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلّا تَكْذِبُونَ**﴾.

وهذا الجواب يكشف عن أمور:

أحدها: المستوى الفكري والاعتقادي الذي يحمله هؤلاء في فهم النبوة والأنبياء.

ثانيها: العناد واللجاجة التي يتصفون بها.

ثالثها: الجهل المركب.

ومن أصعب ما يواجهه الأنبياء حينما يواجهون أناساً مستواهم الفكري سطحي، ومزاجهم النفسي معاند، ويعتقدون أنهم على علم، فإن الإنسان الجاهل غير المعاند سرعان ما يؤمن إذا رأى الحجة ظاهرة أمامه.

والإنسان العالم بالعلم البسيط تتأكد عنده الحقائق إذا لاحظ الدليل أو البرهان، ولكن الذين يجهلون ويجهلون أنهم يجهلون ومعاندون كيف يمكن أن يهديهم؟ وهذه مشكلة صعبة من أصعب ما واجهه الأنبياء مع أقوامهم.

والدليل على أن هؤلاء كانوا كذلك منطوق الآية المباركة، فإنّها صرحت بأنهم كانوا يؤمنون بوجود الله سبحانه، وأنّ له رسلاً وتعاليم

ينزلها إلى الناس ولكن كفرهم كان كفر الشرك لا الإلحاد، لأنهم يعبدون الأصنام؛ لذا قالوا: ﴿**مَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ**﴾[1] لكنهم بدلا من أن يطالبوا الرسل بالدليل على صدق دعواهم أنكروا وقالوا: أنتم بشر مثلنا، وقد وقعوا هنا في تناقض صريح؛ لأنهم أمروا بوجود وسائط بين الله وبين عباده؛ لذا عبدوا أصنامهم وجعلوها وسائط يتقربون بها إلى الله سبحانه، لكنهم أنكروا وساطة البشر مع أنهم أشرف من الأصنام، فلوكان التوسيط واقعاً فلماذا يقع للأصنام ولا يقع للبشر، لكنهم نظروا إلى الموضوع من غير جهة الحق والإيمان، وإنّما من جهة الحسد الذي يستبطن الخوف على المصالح، فما المانع من أن يكون الرسول بشراً؟ فإنّ العقل لا يمنع من أن يكون الرسل بشراً، بل يوجبه.

فالجواب الذي ذكروه ينم عن أن مواقفهم الاعتقادية لا تستند إلى وجه علمي أو عقلي، بل إلى المزاج والعصبية والمصالح. **هذا أولاً**.

وثانياً: صيغ الحصر مرتين و النفي الجازم والتصريح الشديد بالكذب التي استخدموها في الآية ﴿**مَا أَنتُمْ إِلّا بَشَرٌ**﴾[2] و: ﴿**إِنْ أَنتُمْ إِلّا تَكْذِبُونَ**﴾[3] و:﴿**مَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ**﴾ تدل على شدة العناد واللجاجة التي كانوا يعيشونها.

---

(١) سورة يس: الآية ١٥.

(٢) سورة يس: الآية ١٥.

(٣) سورة يس: الآية ١٥.

وثالثاً: قولهم ﴿**وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ**﴾[١] يدل على أنّهم كانوا يؤمنون ولكن يدّعون أنهم عالمون بالغيب، بل وأعلم به من رسله، وأنه هل أنزل شيئاً أم لم ينزل؟ وهذا جهل مركب ومضاعف، بل تقوّل وافتراء، ولأنّهم استشعروا الكذب ألقوا هذه التهمة على الرسل، ووصفوهم بالكذب كما هو عادة أهل العناد والمكابرة يلقون النواقص على غيرهم ويبرئون ساحاتهم منها.

---

(١) سورة يس: الآية ١٥.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: ما هي أسباب تكذيب الرسل؟

تضمنت الآية ثلاثة مدعيات لأهل أنطاكية كلها تصل إلى نتيجة واحدة، وهي تكذيب الرسل والبقاء على شركهم.

المدعى الأول: أن الرسل الذين جاؤوهم بشر ولا ينبغي أن يكون الرسول بشراً.

المدعى الثاني: أنّهم مطلعون على فعل الرحمن وما أنزل شيئاً.

المدعى الثالث: أن الرسل الذين جاؤوهم يكذبون، وتحليل مضمون كل واحد من هذه المدعيات وغايته يتم على التوالي.

المدعى الأول: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[1] لماذا قالوا هكذا ولأي غاية؟

والجواب: أنّهم كانوا يتوقعون أن الرسول عن الله سبحانه يجب أن يكون من عالم الغيب، فلا يمكن أن يكون بشراً، لسببين:

السبب الأول: لأن عالم الغيب مجرد عن النواقص والعيوب فما يأتيهم منه يجب أن يكون مجرداً ملكوتياً لا بشرياً، والبشر يلازم النقص لحاجته إلى الطعام والشراب والدواء والنوم والراحة، وكل ذلك دليل النقص والقصور، فكيف يكون الناقص مبعوثاً للكامل؟

---

(١) سورة يس: الآية ١٥.

السبب الثاني: لأنهم قاسوا الأمور على أنفسهم، فلما وجدوا أنفسهم قاصرة بالجهل والظلم وارتكاب القبائح تصوروا أن كل بشر كذلك، فلا يوجد في البشر من هو كامل؛ لذا قالوا: ﴿**مَا أَنتُمْ إِلّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ فكما نحن ناقصون فإنكم مثلنا، وحيث إننا لسنا برسل فأنتم كذلك، وحيث نظروا إلى الأمور بالقياس والمقايسة وقعوا في الشبهة وضلوا الطريق ولكنهم لو التفتوا وتبصروا في حقائق الأمور لعرفوا خطأهم.

وبيان ذلك: أنّ الرسول يجب أن يكون بشراً؛ إذ لو لم يكن بشراً فماذا عساه أن يكون؟

والجواب: يجب أن يكون ملكاً، فهو الفرض الوحيد الذي يتصور أن يكون رسول من العالم العلوي كما عهد ذلك من مختلف الأقوام، حيث طالبوا أن يكون الرسول ملكاً، ولكن إذا كان ملكاً استحال الإرسال والهداية؛ لأن عالم الغيب له قوانينه وخواصه، ولعالم الشهادة قوانينه وخواصه، فلو أريد أن يطبق قانون عالم الغيب على عالم الشهادة وجب أحد أمرين. إما أن ينّزل عالم الغيب إلى الشهادة ويفقد خواصه الغيبية، أو يرتقي عالم الشهادة ويفقد خواصه المادية ليليق بعالم الغيب؛ لضرورة التناسب في العوالم، وإلّا استحال التحوّل.

ونقرّب هذا بمثال محسوس وهو الطاقة والمادة، فإن للطاقة خواصها و آثارها، وللمادة خواصها وآثارها، فلو أريد أن تتحول الطاقة إلى مادة يجب أن تفقد خواصها وتتلبس بخواص المادة، ولو أريد أن تتحول المادة إلى طاقة لا بد أن تفقد خواصها وتتحول إلى طاقة؛ لضرورة التناسب في

القانون، فلا يعقل أن يبقى الشيء مادة ويمتلك خواص الطاقة، ولا يعقل أن يمتلك الشيء خواص الطاقة ويكون مادة، وهذا قانون عام.

مثلاً: الماء والنار لكل منهما خواصه وآثاره، فلا يتبدل أحدهما للآخر إلّا بفقدان خواصه، كذلك عالم الملك الذي هو عالم البشر وعالم الملك الذي هو عالم الملكوت، فلكل منهما خواصه وآثاره، ويستحيل أن يكون البشر ملكاً كما يستحيل أن يكون الملك بشراً، فلو أرسل الله سبحانه للناس ملكاً رسولاً لوجب أن يصيّره بشراً أولاً حتى يتناسب مع عالم الملك والشهادة، ولو صيّره بشراً لا يهتدون؛ لأن إشكال الكفار يبقى على حاله، ولقالوا إنما أنت بشر مثلنا، و ما أنزل الرحمن من شيء.

ولو أبقاه ملكاً استحال الارسال والهداية؛ لأنه يستدعي حصول أحد أمرين كلاهما محال.

أحدهما: أن يرتقي البشر إلى مستوى الملك ويصيروا ملكوتيين حتى يقبلوا به ويدركوه، أو يتنزل الملك من وجوده الملكوتي إلى وجود ملكي فيتصل بهم، وكلاهما ممتنع، فلم يبق إلّا حل واحد وهو أن يرسل إليهم بشراً يتمتع بالميزة الملكوتية والميزة الملكية حتى يتوسط العالمين، فهو بوجوده الروحي والعقلي ملكوتي النشأة، وبوجوده البدني المادي بشري النشأة، فبالجهة الأولى يستفيض ويتصل بعالم الملكوت، وبالجهة الثانية البشرية يفيض ويهدي العالم.

ولذا أنبياء الله ينبهون الناس إلى أنهم بشر يوحى إليهم، وأن الله سبحانه يريهم ملكوت السماوات والأرض، وأنه صفّاهم وطهرهم واصطفاهم على

العالمين، أي اصطفاهم في العنصر والصفة والعمل حتى صاروا ملكوتيين لا يعصون الله سبحانه في نفس الوقت الذي جعلهم بشراً يمشون في الناس حتى يعلموهم ويهدوهم، ولولا ذلك لاستحال الإرسال واستحالت الهداية، وهذا مقتضى اللطف الإلهي أن يرسل إلى الناس بشراً مثلهم و إلّا كانوا في ضلال مبين.

ويتلخص: أن العقل والعلم كلاهما يقضيان بأن الرسل يجب أن يكونوا بشراً، ولو لم يكونوا كذلك لا ستحالت الهداية وانتقض الغرض؛ لتعذر التواصل والتعليم والتعلم، بل ولانعدمت القدوة والأسوة؛ بداهة أن الإنسان يتعلم من الإنسان ويقتدي به، فلو كان الرسول ملكاً لتعلل المعاندون وبرروا عصيانهم بأن الرسول إنّما ارتقى في العلم والعمل والتقوى والعبودية لأنه ملك ونحن بشر أقل منه أو أدنى فلا يقاس هذا بهذا، ويشهد لهذه الحقيقة شاهدان:

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِي الأَرض مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً**﴾[١] ولم يقل بشراً؛ لأن التسمية والتناسب لازمان، فلو كان المرسَل إليه ملائكة لكان رسولهم كذلك، ولو كانوا بشراً كانوا مثلهم؛ لأن الأبصار تقصر عن رؤية الملك بالعيون الجسمانية.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ**﴾[٢] في مقام الرد على مطالبة الكفار أن يرسل الله سبحانه

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩.

ملكاً حتى يؤمنوا، فأجابهم لو استجبنا لكم وأرسلنا ملكاً لجرّدناه عن الخصوصية الملكية وصيّرناه رجلاً يعيش على الأرض؛ لاستحالة التواصل بين العالمين دون فقدان الخصوصيات، وإذا كان كذلك عادت الشبهة من جديد ولم يتحقق الغرض؛ لأن ما قيل في الرسول الأول بأنه بشر مثلهم يقال في الثاني فيكون الإرسال لغواً.

اللطيفة الثانية: هل العقل يغني عن النبوة؟

بالبيان المتقدم يتضح الجواب عن شبهتين:

الشبهة الأولى: للكفار المعاندين الذين توقعوا أن يكون الرسل ملائكة.

والشبهة الثانية: لبعض الحكماء الذين نفوا الحاجة إلى النبوة و ادعوا بأن في العقل ما يغني عن النبوة، وتقرير شبهتهم أن مايأتي به الأنبياء لا يخلو إما أن يكون موافقاً لحكم العقل أو مخالفاً له، فإن كان من الأول فلا حاجة إليهم؛ لأنّ في العقل ما يكفي، وإن كان من الثاني وجب رده؛ لأنّ ما يخالف العقل باطل(١).

والجواب عن هذه الشبهة يتم بالنقض والحل. أما النقض فبالعلماء والعلوم؛ لأن ما يأتون به إما يوافق العقل أو يخالفه، وعلى التقدير الأول يكون في العقل ما يكفي، وعلى الثاني يجب رده.

وأما الحل فمن وجهين:

---

(١) انظر كشف المراد: ص٢٧٣.

الوجه الأول: أنّ العقل لا يدرك الأشياء إلّا إذا تعقّلها وأحاط بها، وأما الأشياء التي لا يتعقلها ولا يدركها فإنه يجهلها، والجهل بالشيء لا يعني أنّه غير معقول، وقد وقع القائلون بذلك بهذه الشبهة فتصوروا أن ما لا يعقله العقل هو باطل، والحال أن المدركات العقلية ثلاثة:

الأول: ما يدرك العقل وجوب وجوده مثل حسن العدل وقبح الظلم ووجوب مقدمة الواجب وأن المجتمع بحاجة إلى نظام، والنظام بحاجة إلى قانون، والقانون بحاجة إلى قوة تنفيذ وقوة القضاء.

الثاني: ما يدرك العقل بطلانه واستحالته نظير جمع النقيضين وسائر المحالات العقلية.

الثالث: ما يجهله العقل فلا يحكم بوجوب وجوده ولا بامتناع وجوده، وهذه الأمور حقائق واقعية لا يمنع العقل من وجودها، ولكن لا يحكم بها لقصوره عن إدراكها، نظير الحقائق الغيبية بحياة ما بعد الموت، وحياة البرزخ والجنة والنار، وحالات أهلهما، وهذه الحقائق لا يدركها العقل؛ لأنه لا يتصورها ولا يحيط بها علماً، والعقل مالم يتصور الشيء لا يمكن أن يحكم عليه بإيجاب أو سلب.

مثل هذه القضايا لا يمكن الرجوع فيها إلى العقل و إنّما إلى الدين؛ لأن الدين من عالم الغيب، وهو الذي أحاط بذاك العالم فيخبر عن حقائقه وقوانينه، ولو تدخل العقل فيها تاه.

إذا اتضح هذا نعرف أن الأنبياء لا يأتون بكل ما يحكم به العقل، وإنّما يأتون بكل ما لا يمنعه العقل، فربما يدركه فلا يمنعه، أو يجهله فلا يمنعه، وهي الحقائق الغيبية.

فإن جاؤوا بما يدركه العقل ويحكم به كان حكم الأنبياء مؤكداً ومعززاً لحكم العقل، بل ومصِّوباً له؛ لأن الأحكام العقلية تتوقف على التصور والتصديق فقد تبتلى بالجهل المركب، فإذا وافقها الأنبياء كشف عن صوابها وإذا لم يدركها العقل لقصوره أحياناً فإنه يحكم بوجوب اتباعها والإذعان لها؛ لأنها صادرة عن الصادق العالم المحيط بذاك العالم، والعقل يلزم الإنسان الجاهل باتباع العالم.

فيتحصل: أن دعوى الحكماء بالاستغناء بالعقل عن النبوات مخالفة لحكم العقل نفسه.

الوجه الثاني: فإن العقل يحكم بأن التعاليم والأنظمة معان مجردة لا يمكن أن تتحقق في الخارج إلّا بوجود الأسوة والقدوة، فحتى إذا افترضنا جدلاً بأنّ ما يأتي به الأنبياء موافق لحكم العقل إلّا أنّ الموافقة وحدها لا تنفي الحاجة إلى الأنبياء لبقاء الحاجة إلى القدوة الذي يقتدي به الناس في تطبيق التعاليم والالتزام بها، فالحاجة إلى الأنبياء والنبوات ضرورة عقلية لا يمكن أن يستغني عنها الناس، وهذا ماوردت به النصوص الشريفة.

ففي حكمة إرسال الرسل من البشر قال أبو عبد الله عليه السلام للملحد الذي سأله: من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال عليه السلام:

«إنّه لما أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه، يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه

فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعزّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس - على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب - في شيء من أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته﴾[1].

وفي جواب المشركين الذين طلبوا أن يكون الرسول ملكاً وردت محاجة بين النبي صلى الله عليه وآله ومشركي قومه رواها الطبرسي قدس سره في الاحتجاج عن الإمام العسكري عليه السلام: قال:

﴿قلت: لأبي علي بن محمد: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: بلى مراراً كثيرة. إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة ... إذ ابتدأ عبد الله بن أمية المخزومي فقال: يامحمد! لقد ادعيت دعوى عظيمة، وقلت مقالاً هائلاً. زعمت أنك رسول رب العالمين، وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشر مثلنا ... ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً لكان يبعث الينا ملكاً لا بشراً مثلنا. ما أنت يا محمد إلّا رجلاً مسحوراً ولست بنبي ... فقال رسول

---

(١) الكافي: ج١، ص١٦٨، ح١؛ وانظر الاحتجاج: ج٢، ص٧٧.

الله صلى الله عليه وآله: اللهَّم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شيء، تعلم ما قاله عبادك ... فأنزل الله عليه: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾(١) إلى قوله: ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾(٢)... ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وأما قولك لي: لو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، فالملك لا تشاهده حواسكم؛ لأنه من جنس هذا الهواء، لا عيان منه، ولو شاهدتموه - بأن يزاد في قوى أبصاركم - لقلتم ليس هذا ملكاً، بل هذا بشر؛ لأنه إنما يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه لتفهموا عنه مقالته، وتعرفوا خطابه ومراده، فكيف كنتم تعلمون صدق الملك وأنّ ما يقوله حق؟ بل إنّما بعث الله بشراً رسولاً، وأظهر على يده المعجزات التي ليست في طباع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة، وأن ذلك شهادة من الله بالصدق له، ولو ظهر لكم ملك وظهر على يده ما يعجز عنه البشر لم يكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك ليس في طبائع سائر أجناسه من الملائكة حتى يصير ذلك معجزاً، ألا ترون أن الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجز؛ لأنّ لها أجناساً يقع منها مثل طيرانها، ولو أنّ آدمياً طار كطيرانها كان ذلك معجزاً، فإنّ الله عزّ وجل سهّل عليكم الأمر وجعله بحيث تقوم عليكم حجته وأنتم تقترحون عمل الصعب الذي لا حجة فيه»(٣).

(١) سورة الأنعام: الآية ٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩.

(٣) الاحتجاج: ج١، ص٢٩- ٣٠؛ تفسير الصافي: ج٢، ص١٠٩، وفيه: (أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا).

اللطيفة الثالثة: القياس من أسباب إنكار النبوات

يستفاد من الآية أن القياس أحد أسباب إنكار النبوات، فإن المشركين نظروا إلى المماثلة الجسدية فلاحظوا أن الرسل مثلهم بشر يأكلون الطعام ويمشون ويمرضون ويموتون، وغفلوا عن حقيقة أهم، وبها تكون إنسانية الإنسان، وهي الروح والروحانية، فإن المماثلة في الجسد لاتعني المماثلة في الروح والفكر ونقاء الجوهر وطهارة الضمير و العصمة من الذنوب، فمثلهم مثل من لا يتعلم من العالم، ولا يقبل منه الحقيقة العلمية، ويحتج عليه بأنه بشر مثله، ويغفل عن مستواه الفكري والعلمي الذي يحظى به و يفقده الجاهل.

ولو طبق هذا المعيار الذي اتخذه المشركون ذريعة لتكذيب الأنبياء لم يبقَ مجال لعلم وتعلم، ولا فكر، ولا جامعة، ولا مدرسة، ولا مناهج تربية، ولا مربين، كما لم يبقَ مجال لقائد ولا لقيادة ولا لرئيس ومرؤوس؛ لأن الجميع يشتركون في الجانب الجسدي، وكلهم بشر، ولكن يتفاوتون في العقول والأرواح والعلوم والمعارف، والناقص بمقتضى حكم العقل يجب أن يتبع الكامل ويتلقى منه.

وهذه المقايسة إذا أخذت بالحسبان قادت البشرية إلى الجمود والانحطاط والهلكة في الدنيا والآخرة، ويكون قياسهم أسوأ من قياس إبليس لمّاّ تمرد على أمر الله سبحانه وأبى أن يسجد لآدم، وعلّل ذلك بقوله:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(١) وقد قدم ذكر نفسه على آدم تكبراً وغروراً، وتصور أنه أعظم منه، والذي ساقه إلى هذه النظرة التي أهلكته أبد الأبدين هو النظر إلى الجانب الجسدي في آدم، وغفل عن الجانب العقلي والروحي، فتصوّر أنّه أفضل منه، وقد وقع بهذا في خطأين.

أحدهما: أن المقايسة مبنية على ادعاء لم تثبت حقانيته، وهو أن النار أفضل من التراب؛ لأنها حقيقة لطيفة مشرقة علوية فعّالة، والتراب كثيف ثقيل مظلم منفعل، والحال أن التراب قد يكون خيراً من النار من وجوه عديدة، وخيراته وبركاته أعظم من النار.

فمن التراب تخرج الأحجار الكريمة والدرر والجواهر الثمينة، وبعضها لا يقدر بثمن، ومنه تخرج الثمار و الأزهار والحدائق والجنان، ومنه الطيور والحيوانات الجميلة، ومنه الطعام والشراب، بل النار أصلها التراب في قدحها ووقودها، ومنه خلق الله سبحانه أجساد الناس، بل و الأشياء و الأولياء، بينما خلق الجن من النار وهم أدنى رتبة من البشر، وقد خلقه الله سبحانه من نار السموم كما قال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾(٢) والسموم وصف للنار، ويراد بها شديدة الحر النافذة في مسام الأجسام، والسم هو ثقب في الشيء منه سم الخياط، وسمي السم سماً لأنه يدخل الجسد وينتشر في أجزائه حتى يحرقه ويتلفه، وبهذه الصفة يخترق الجن الأجسام ويتشكل.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢.

(٢) سورة الحجر الآية ٢٧.

ثانيهما: أنه غفل عن علو آدم الروحاني الذي نال به مقام الخلافة عن الله سبحانه، وكان حجته وشاهده، وفيه أودع روحه، فالقصور البدني فيه - على فرض صحة دعوى إبليس - لا يلزم القصور الروحي والعقلي، بل و المقامي؛ لأن التراب أرقى رتبة من النار في العبودية؛ لأن التراب مثال الخضوع والتواضع والسجود الذي به إظهار كمال العبودية بخلاف النار، فالتراب أوفق بغرض الخلقة من النار لكن لا يدركه إلّا العارفون(١).

ونلاحظ أن إبليس قايس بين عنصرين مختلفين وتوهم علو مقامه، إلّا أنّ المشركين قايسوا بين عنصرين مشتركين وهم يشاهدون بأعينهم وجود حكماء وعلماء وأدباء وساسة في البشر يتفوقون على غيرهم روحياً وعقلياً ومع ذلك يكذبون الأنبياء بحجة أنهم بشر، ويغفلون عن بعدهم الروحاني العظيم.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام بيان لهذه الحقيقة حينما دخل عليه أبو حنيفة فقال: «يا أبا حنفية! بلغني أنك تقيس؟» قال: نعم. قال: «لا تقيس فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فضل ما بين النورين وصفاء أحدهما على الآخر»(٢) بداهة أن نور النار مخلوط بالحرارة والدخان، أما نورانية آدم نقية زكية؛ لأنها من نور الله سبحانه، فالغفلة عن هذه الحقيقة أوقع إبليس في العذاب الدائم، ومما يؤسف له أن هذا المعيار

---

(١) انظر بيان السعادة: ج٢، ص٤٠٠، تفسير الآية ٢٧ من سورة الحجر.

(٢) الكافي: ح١، ص٥٨، ح٢٠؛ علل الشرائع: ج١، ص٨٦، ح١؛ الاحتجاج: ج٢، ص١١٧.

موجود عند بعض الناس، ومنهم الذين يقايسون الأمور بحسب عقولهم القاصرة فينكرون منها ما ينكرون، ويقبلون ما يقبلون، ولأن الدين أكبر من العقل، وأحكامه ناظرة إلى واقعيات الأمور، والعقل والعلم ليسا دائماً يدركان الواقع، فيرفضون الدين لأنهم حينما يقايسونه بعقولهم القاصرة لا يدركون أحكامه وغاياته، وهذه هاوية سحيقة تخالف المنهج العلمي، وتقود الإنسان إلى الضلالة، لذا قال الصادق عليه السلام: ﴿لو قيس دين الله بالعقول مُحق الدين﴾[1] أي لا يبقى دين، بل أوهام بشر وخيالاتهم، فإن العقل مهما بلغ من القدرة و العبقرية فهو قاصر، وما يجهله أكثر مما يعلمه، فلا بد من التعامل مع حقائق الدين بنظرة الإيمان والتسليم والإذعان، كما نلاحظ أن بعض المثقفين وقعوا في مشكلتين أسسهما الشيطان ونهجهما.

الأولى: مشكلة العنصرية التي تدعو إلى تفريق الجنس والعنصر، وتوهم التفوق العنصري. هذه النظرية التي لايزال بعض الناس يعتقدون بها، وعلى أساسها يرتكبون الفضائع ضد الأدنى منهم كما يزعمون .

الثانية: مشكلة مادية والسيطرة المادية للامور مع الغفلة عن البعد الروحي والعقلي، وهذا هو الذي جاء بالعلمانية وبمظاهرها السياسية والاقتصادية كالرأسمالية والشيوعية وأمثالها.

---

(١) الكافي: ج١، ص٥٧، ح١١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، ص٤١، ح٣٣١٦٠، ﴿يا أبان! إن السنّة إذا قيست محق الدين﴾؛ وفي البحار: ج٢، ص٣٠٣، ح٤١، عن علي بن الحسين عليهما السلام: ﴿أن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة﴾.

وكل ذلك مرجعه إلى الفكر الشيطاني والشعور الإبليسي، ولو لجأ الناس إلى الأنبياء والدين لأذاب الدين الفوارق والتفوق المتوهم، وجعل المعيار الحق والعدل والعمل الصالح، ولا يخفى أن إشكال المشركين في نفسه متهافت؛ لأنهم أقروا بوجود الرحمن، و أقروا بوجود رسل له ولكن كذبوا الرسل الذين جاؤوهم، مع أن الذي يقر بوجود الباري عز وجل لا بد أن يقر أنه يرسل من يشاء ويختار، و لا خيرة للعباد في النبوة و الإرسال، فإشكالهم مع معتقداتهم لا ينسجمان؛ لأن الإقرار بالرحمن يستدعي الإقرار بإرسال من يختاره للنبوة والرسالة وتكذيب القول بعد ظهور آياته يستلزم الإنكار والجحود، وهو ينافي الإقرار، وذلك شاهد صدق على أنهم إنّما كذبوا الرسل وتعللوا لذلك بأنهم بشر مثلهم كان ناشئا من العناد والمصالح.

فيتلخص مما تقدم: أن الغاية في قولهم: ﴿**مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾[(١)] يستبطن الجهل والعناد والمكابرة؛ لأن الرسل إلى البشر يجب أن يكونوا بشراً، و يستحيل أن يكونوا من غيرهم.

اللطيفة الرابعة: لماذا نسبوا الإنزال للرحمن؟

وتتعلق بالمدعى الثاني وهو قولهم: ﴿**مَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ**﴾[(٢)] فإنهم وضعوا أنفسهم موضع العالم بالله، المطلع على أفعاله، وأنه أنزل رسولاً من السماء أو لم ينزل، وما ذكروه يتضمن ثلاث دلالات:

---

(١) سورة يس: الآية ١٥.

(٢) سورة يس: الآية ١٥.

الأولى: أنّهم كانوا مؤمنين بوجود الله سبحانه ووحدانيته لكنهم مشركون في العبادة؛ لأنهم يعبدون الأصنام بتوهم أنها تقربهم إلى الله زلفى.

الثانية: أنّهم توهموا بأن الرسل ينزلون من السماء، ولذا توهموا أن يكون الرسول ملكاً، والحال أن الإرسال بعث، والبعث يكون في الأرض، والذي يأتي من السماء الوحي .

الثالثة: أن الإنزال يكون من جهة الرحمة الإلهية؛ لذا قالوا: ﴿**مَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ**﴾ وفي كلمة الرحمن بحثان: بحث في المادة أي الرحمة، وبحث في الهيئة أي الرحمن، وهو صيغة مبالغة على وزن فعلان؛ إذ التفسير بكل واحد منهما له سرّ، أما التعبير بالرحمة من جهة المادة دون غيرها من صفات الخالق يعود لسببين:

السبب الأول: أنّ الإنزال يكون من جهة الرحمة الإلهية لأنه يتعلق بالفيض، والفيض من الرحمة ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[(١)] ولو لا أن يرحم الله العباد ويرسل إليهم الأنبياء والرسل لتاهوا وهلكوا، ومن مقتضى رحمته بعباده ان يستجيب لهم، ويرسل لهم ملكاً رسولاً؛ لأنهم بحسب زعمهم يصدقون الملك، ومقتضى الرحمة أن يرسل إليهم مايؤمنون به.

السبب الثاني: أن الرحمة تستدعي أن يفعل الباري عزّ وجل ما يوجب الفهم وهدايتهم ويوحدهم ويجمع كلمتهم ويعطيهم الحرية في الأقوال و الأعمال ولا يكلفهم شيئاً، وهذا يتنافى مع إرسال الرسل؛ لأنه يكلفهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

بالطاعات، ويلزمهم باجتناب المحرمات، وهو ما يشق عليهم، ويلزمهم بما يخالف شهواتهم ورغباتهم. هذا كله من جهة مادة الرحمة، فهم توهموا هذا وغفلوا عن أن إهمال الناس دون هداية وتكميل لنفوسهم وعقولهم ينافي الرحمة، وأن الرحمة هي إصلاحهم وهدايتهم. هذا هو شأن الله وشأن أنبيائه.

أما الاختلاف فهو من الناس أنفسهم؛ لأنهم يعاندون ويتبعون الهوى والقيم الجاهلية فيختلفون، وأما إذا حكّموا العقل والبرهان والفطرة السليمة لآمنوا جميعاً، ولما وجدوا سبباً للاختلاف، ولكنهم مختلفون لأن جماعة منهم يعاندون ويكابرون اتباعاً للهوى، فليس الأنبياء سبب الأختلاف وإنّما الهوى والشيطان.

وأما من جهة هيئة الرحمة أي وصف الباري عز وجل بالرحمن دون غيره من الأسماء والصفات كما لم يقولوا: **(مَا أَنزَلَ الرَّحْيم)** مع أنه من الرحمة أيضاً فإن السر في ذلك قد يعود لأحد أسباب ثلاثة:

الأول: لأن المقام مقام المنع لا الفيض في نظرهم، وهو يناسب صفة الرحمانية؛ لأنها صفة ذات بخلاف الرحيم فإنها صفة فعل، و لأنهم يريدون أن ينفوا الإنزال فإن الأنسب ذكر الرحمن؛ لأن صفة الذات لا تلازم الفعل بخلاف صفة الفعل.

الثاني: لأنهم لاحظوا أنّ الرحمن لم ينزل عليهم شيئاً فقالوا بعدم الإنزال تمسكاً منهم بدعوى عدم الوجدان تدل على عدم الوجود، وهي ذات دعوى الملاحدة الذين يؤمنون بكل شيء محسوس، و ينكرون كل ما لا يحسونه، مع أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، بل قد يدل على

عدم الوجود الخاص، ولكن لا ينفي الوجود بالمرة، فلو لم يجد الإنسان أباه في الغرفة دل على عدم وجوده فيها، و لا يدل على عدم وجوده في الدار، أو في محل العمل، والمسألة واضحة.

ولكن المشركين قديماً والملاحدة في هذه الأزمنة يتمسكون بهذه الدعوى الباطلة، فينفون وجود الغيب لأنهم لا يجدونه ولا يحسونه، وكانت هذه نظرة الجاهلين منهم؛ لأن بناء النتائج على عدم الوجدان مخالف للنهج العلمي.

والثالث: الحكماء منهم و أهل المعرفة لا يمكنهم الاستدلال بذلك على تكذيب الرسل، وإنّما استدلوا بصفة الرحمن ية لأنها صفة عامة تشمل الجميع، فلو كانت الرحمة تنزل على بعض الرسل لنزلت عليهم جميعاً، وحيث لم تنزل عليهم إذا لم تنزل على غيرهم.

وهذا ليس بالاستدلال في الحقيقة، وإنما له صورة الاستدلال؛ لأنهم نظروا إلى صفة الرحمانيّة وغفلوا عن أن الرحمن إذا فعل أو أرسل لا بد وأن يرسل من صفته الرحيمية، وهي خاصة؛ لأنها تدل على قدر الاستعداد والقابلية في القابل؛ لذا يختص الله سبحانه بعض عباده ويرسلهم للناس ولا يرسل الجميع، وبهذا يتضح الجواب عن السؤالين :

السؤال الأول: لماذا يختار الله سبحانه بعض عباده للنبوة ولم يختر غيرهم؟

والجواب: لأنّ الاختيار يكون على قدر الاستعداد والقابلية، وهي متوفرة في بعض الناس لا في جميعهم.

والسؤال الثاني: لماذا لم يستمر الإرسال في كل عصر وزمان؟

والجواب:

أولاً: لعدم وجود القابل؛ لأنّ كمال الإنسان انختم بالنبي الخاتمﷺ.

وثانياً: لعدم الحاجة؛ لأنّ الدين اكتمل وانختم.

وثالثاً: لوجود الإمام الذي يقوم مقام النبيﷺ، ويحقق غايات بعثته بالهداية الأكبر، وهي الهداية الإيصالية.

اللطيفة الخامسة: لماذا كذبوا الرسل وأقروا بصلاحهم؟

وتتعلق بالمدعى الثالث وهو نسبة الكذب إلى الأنبياء بالنسبة الجازمة القاطعة قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلّا تَكْذِبُونَ﴾ ولم يقولوا (كاذبون) وبين الصيغتين فرق، ففي الأولى تكون النسبة إلى الفعل، وفي الثانية إلى الذات، ونسبة الفعل تعني أنكم في دعوتكم هذه تكذبون، وليس بالضرورة في كل ما تقولون وتفعلون، فمدلولها خاص، بخلاف كاذبون فإنها تفيد نسبة الكذب إليهم في كل افعالهم وأقوالهم، فمدلولها عام.

وفي ذلك دلالة على أن الرسل الذين جاؤوا إليهم كانوا عندهم صالحين طاهرين ولكنهم كذبوهم في دعوى الرسالة فقط، ووجه التكذيب هو الشبهة التي حصلت لديهم، وهي أن الرسول لا يمكن أن يكون بشراً، بل ملائكة، فلولا هذه الشبهة لصدقوا، فعدم تصديقهم للأنبياء ليس من جهة عدم المقتضي أي من جهة أنهم يكذبون، بل من جهة وجود المانع، بخلاف صيغة (كاذبون) وبسبب هذه الحقيقة آمنوا بعد ذلك حينما وجدوا الآيات تامة على صدقهم كما نصت عليه الرواية؛ إذ لو كانوا عندهم كاذبين في كل أمورهم لاتهموهم بالسحر والدجل، ولكنهم لم يفعلوا، بل رأوا الآيات فآمنوا وأذعنوا.

و في قولهم ﴿**إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ**﴾ ما يدل على الحصر وضمير المخاطب (أنتم) ونسبة الكذب إلى فعلهم لا إلى أنفسهم سر آخر، وهو أنّهم نسبوا الكذب إلى رسلهم، ولا يريدون نسبة الكذب إلى جميع الرسل والأنبياء، وفيهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وهذا شاهد على أمرين:

أحدهما: أنّهم كانوا يؤمنون بوجود نبوّات ورسالات سابقة ولكنهم كذبوا رسلهم بهذه الشبهة، وفي ذلك دلالة على أن قولهم: ﴿**مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ دافعه الأصلي الحسد والمصلحة وليس العلم والمنطق.

وثانيهما: أنّ كفرهم لم يكن بالإلوهية وإنّما بالنبوة، وهو قسم من الإلحاد ينبني على تكذيب الأنبياء، وينفي وجود نبوّات بشرية، أو ينفي نبوة من دعاهم من البشر، ولا يريدون نفي وجود الخالق، ومنطوق الآيه شاهد على هذا.

فيتحصل من كل ما تقدم: أن منطوق الآية المباركة يدل على أن الكفار والمشركين حينما يفقدون الحجة العلمية في مواجهة دعوات الأنبياء يتعللون للتكذيب بالعلل والذرائع، ككون الأنبياء بشراً، والدافع الأصلي وراء كل ذلك هو المصالح والحسد عند الزعماء والكبار والقادة فيتبعهم الناس عليه، وإلّا فإن الحقائق العلمية والبراهين العقلية والفطرة السليمة كلها تتوافق على وجوب تصديقهم واتباعهم؛ لما في ذلك من دلائل تامة على الحق الذي يقودهم للسعادة الدنيوية والأخروية.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

تشير الآية المباركة إلى تعاليم عديدة تهمنا في حياتنا الخاصة والعامة نستعرض المهم منها على التوالي:

التعليم الأول: التعصب علامة الجهل

أن تقويم الأشخاص لا ينبغي أن يقتصر على ظاهرهم، بل على داخلهم، فإن الناس مخابر لا مظاهر، وقد لاحظنا أن أهل أنطاكية وقريش كذبوا أصدق الناس و أحرصهم على مصالحهم الذين جاؤوا لإنقاذهم من الظلمات والشقاوة بادعاء أنهم بشر، مع أن البشرية في الرسول ليست من المعايب، بل الذي ينبغي أن يقوم عليه التقويم والموازنة هو الأقوال والأفعال والمواقف. **هذا أولاً**.

وثانياً: على فرض أنهم نظروا إلى البشرية وتوهموا أن البشرية مانعة من النبوة ولكن العقل كان يقضي بلزوم الاستماع لمضمون ما يقولون، ثم يصدقون أو يكذبون، فإن البشر إن لم يكن نبياً فإنه يمكن أن يكون رسول نبي؛ لوضوح أن غير البشر لا يمكن أن يعاشر البشر ويخاطبهم ويخاطبوه، و في ذلك تعليم لنا جميعاً في أن لا نتعجل في الحكم على الأشياء ونحكّم العقل والمنطق في الأقوال والأفعال بلا تعصب في الحب ولا في الإنكار، فإن التعصب من علامات الجاهلية وثقافتها.

وكم يقع البعض في هذه المشكلة، فإذا أحب شخصاً اتبعه بلا بصيرة، وربما صحح خطأه، ولو أنكر شخصاً غض طرفه عن محاسنه وإنجازاته، وهذا نهج خاطئ يقع به الجاهلون، والقرآن الكريم يقول: ﴿**لاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾[1] والروايات تؤكد على وجوب إنصاف الناس وعدم ظلمهم ليس في الأموال والتجارات، بل حتى في تقديم الشخص والشخصية، ولكن البعض قد يجد العيب عند من يحبه كمالاً، وقد يرى الكمال عند غيره نقصاً، وإذا لاحظ عند شخص عيباً يغض النظر عن الكثير من إيجابياته، ويمحي صورته الحسنة في نفسه وعند الناس، وهذا من الظلم الفضيع، فإن الإنسان يخطأ ولا ينبغي أن يغفل عن إيجابيات الشخص لأجل عيب أو نقص لوحظ فيه، فالإنصاف يستدعي أن نشيد بالإيجابيات ونحترمها لا أن نمحيها.

وهذا ما لم يعمل به أهل أنطاكية وقريش لأنهم كانوا يقرون للنبي صلى الله عليه وآله بأنه أعدل الناس وأرقاهم أصلاً وقولاً وعملاً، وكانوا يصفونه بالصادق الأمين، ولما دعاهم إلى الهدى أنكروا كل ذلك واتهموه وآذوه وعذبوه.

وكذلك أهل أنطاكية نظروا لهم بأنهم بشر واتهموهم بالكذب مع إقرارهم لهم بأنهم أناس طاهرون صالحون.

فالبعض يتصور أن صفات الجهل والجاهلية مختصه بالزمان البعيد، بل كل من يعيش هذه الحالة ويتصف بصفات الجهل وأهل الجاهلية كان

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

جاهلياً، فالتعصب وتحكيم المصالح والحسد في تقويم الأمور من صفات الجاهلية ينبغي اجتنابها.

التعليم الثاني: هفوة الحداثوية والإلحاد

أن النفي والإثبات في المواقف والآراء يجب أن يكون عن دليل وليس عن عادة أو تسرع أو مزاج، فأكثر الفشل والخطأ ينشأ من ذلك، وأكثر الصواب ينشأ من الدليل. نستفيد هذا التعليم من قول أهل أنطاكية لرسلهم بنحو الجزم والنفي المطلق ﴿**مَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ**﴾(١) مع أنّ القضية غيبية لا يعرفها إلّا الله إلّا أنهم قالوا ذلك مكابرة وعناداً، وسرعان ما ينفضح فشل هذا الأسلوب؛ لأن أي عاقل منصف يقول من أين عرفتم أن الرحمن ما أنزل من شيء؟

وكان هذا على خلاف منطق العقل، لأن العقل يحتمل صدق الأنبياء ويدعو إلى الاستماع لمضمون دعواهم، ولا يستسيغ التعجيل في الرد قبل معرفة مضمون دعواهم، إلّا أنّهم خالفوا عقولهم، واتبعوا أمزجتهم ومصالحهم، ونفوا الإنزل، ونسبوا الكذب إلى الرسل ولكنهم واجهوا شمعون الحكيم الذي تحلّى بالصبر وسعة الصدر والمرونة في الاحتجاج حتى انتزع منهم الفرصة لإقامة الحجة على دعواهم، وقادهم إلى الإيمان والإذعان كما مرت شواهد القصة.

---

(١) سورة يس: الآية ١٥.

وبهذا التعليم ترشيد لبعض المتأثرين بالأفكار الحداثوية -كما يسمونها- والإلحادية في هذه الأيام لكي يطالبوا كل مدع جديد بالدليل، ولا ينساقون إلى الدعوات اتباعاً للمزاج، أو انبهاراً بالكلمات أو الشعارات، أو رد فعل من المجتمع أو بعض زعمائه، فإن ذلك على خلاف العقل والمنطق الصحيح، ويقودهم إلى الفشل.

قد نجد البعض يترك إيمانه وعقيدته الحقة فينفي ما هو ثابت بالأدلة القاطعة تأثراً منه ببعض الكلمات والشعارات التي لا تنهض أمام دليل أو برهان أو حكمة عقلية، وهم بهذا يتبعون أساليب الجاهلين لا المتحضرين المتعلمين.

التعليم الثالث: إرشاد للمعلمين والمربين

أن المصلحين والمعلمين والمربين والقادة في أي حقل ومجال كانوا وحتى يبلغوا الغاية من أعمالهم ويصلوا أهدافهم يجب أن يتعلموا من دعوات الأنبياء ويستهدوا بهم في أمرين:

الأول: أن يتخذوا الدليل والبرهان والمرونة الاخلاقية في عرض الأفكار والمواقف.

الثاني: أن لا يشعروا الناس بتهديد مصالحهم والإضرار بهم، فإنّ الناس - لاسيّما أصحاب الزعامة - إذا لم يشعروا بالثقة والأمان وعدم الخوف على مصالحهم فإنهم لا يؤمنون في الغالب، ويعدون العدة لإفشال أي مشروع وتحطيم رجاله.

لذا ما طالب الرسل من أهل أنطاكية أجراً ولا منصباً ولا مقاماً، بل دعوا إلى الله سبحانه بكل صدق وإخلاص ولم يهددوا أحداً في مصالحه، ولم يطالبوا الملك الذي ضربهم وحبسهم بالتعويض عما فعل بعد أن آمن؛ لأن غايتهم سامية، وهي هداية الناس وليست أنفسهم ومصالحهم.

فلو أراد المصلحون في أي حقل ومجال تحقيق الغاية لابد أن يكسبوا ثقة الناس أولاً، ثم يشعروهم بأنهم يدعونهم لمصالحهم لا لأجل التأمر والتسلط عليهم.

وهذا النهج نهج جميع الأنبياء، وقد صرح القرآن في آيات عديدة أنهم كانوا يصرحون أنهم لا يطلبون من أحد أجراً ولا مقاماً ولا منصباً، بل كل ما يريدونه هو هدايتهم، وأن يرتقوا في نفوسهم وعقولهم ليعيشوا حياة سعيدة في دنياهم وأخراهم. هذه التعاليم يشير إليها منطوق الآية والوقائع المحتفة به.

التعليم الرابع: لماذا لم يبعث الله النساء؟

قد يقول البعض أن الباري عز وجل جعل رسله بشراً ولكنه أرسلهم رجالاً ولم يجعل منهم النساء، فليس في الأنبياء امرأة حتى إنه سبحانه قال: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**﴾[1] لماذا؟ وما هو السر؟

والجواب عن هذا السؤال يستدعي بيان مقدمات:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩.

المقدمة الأولى: أن العقل يقضي بضرورة وجود التناسب بين الظرف والمظروف في أفعال الحكيم، فلا يصح أن يكون المظروف أكبر من الظرف ولا أصغر منه؛ لأنّ في الأكبرية والأنقصية ما يخالف الحكمة، وهذا هو النهج المتبع لدى العقلاء في أمورهم المادية والمعنوية. أضرب لكل منهما مثالاً:

المثال الأول: لو طلب الجائع طعاماً وكان يكفيه صحناً من الطعام وجيء بأكثر من ذلك عدوا الأكثر زيادة لا فائدة فيها، ولو جيء بأقل من ذلك عدوه غير واف بالغرض؛ لأنه لا يسد الحاجة؛ لذا يذمون الزيادة والنقيصة، ويمدحون المتناسب بين الأمرين. نعم ربما يزيد أو ينقص بسبب طرو بعض العناوين الأخرى إلّا أنه من نفس العنوان والجهة يرون التناسب أمراً ضرورياً بين الظرف والمظروف.

المثال الثاني: في باب إعطاء المناصب في الأمور المعنوية كالمدير والوزير والأستاذ والطبيب ونحو ذلك، فإنهم لا يجعلون الشخص في وظيفة أو منصب إلّا إذا كان متناسباً معه، وقد اشتهر القول بأن الرجل المناسب يجب أن يأخذ المكان المناسب، فإذا نصبوا رجلاً مديراً فإن وجدوه مكافئاً لمركزه أبقوه، وإن وجدوه أقل لقلة كفاءته عزلوه، وإن وجدوه أكثر كفاءة من مركزه رقّوه إلى درجة أعلى تناسبه. هذه هي القاعدة المتبعة لدى العقلاء، ويقضي بها العقل في لزوم التناسب بين الظرف والمظروف، وقد قرر ذلك الحكماء وأهل النظر في عموم الفيوضات الإلهية وقالوا: إن الإفاضة من الفاعل تكون على قدر الاستعداد في القابل؛ لأن إعطاء الزيادة مع عدم الاستعداد مناف للحكمة، وإعطاء الأقل حرمان، وهو أيضاً مناف للحكمة.

وأشار إلى مثل ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1] أي أن عهد الله سبحانه لا يصل إلى ظالم، وإطلاق الآية يشمل كل مراتب الظلم سواء كان من ظلم النفس كالعاصي والمذنب، أو ظلم الآخرين بالفكر أو بالعمل.

والمراد من العهد هنا بقرينة النسبة إلى الباري عزّ وجلّ والسياق في قوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾[2] هو الخلافة والإمامة؛ لأن الإمام يهدي الخلق إلى الله، ويوصلهم إلى مطلوبهم، فلا يعقل أن يكون ظالماً، وإلّا لزم ترجيح المرجوح، ووجب تقديم الأفضل عليه، والتفصيل في محله[3]، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[4] أي يقدره ويحدده بمقتضى حكمته بحسب حاجته وحدوده، فلا يعطيه الأزيد ولا الأقل.

المقدمة الثانية: أن نظام البشر يقوم على ركنين هما: التمايز والتفاضل، ومعيار التمايز الوظائف، ومعيار التفاضل الأعمال، والوجدان يشهد بأن لكل إنسان وظيفة وعملاً بغض النظر عن كونه مجبوراً في ذلك أو مختاراً.

والوظائف تكون بحسب الاستعدادات والقابليات، و التفاضل بينهم يكون بحسب الأعمال، وهذا القانون العام لا يحكم الإنسان فقط، بل حتى الملائكة والجن، بل إنّ كل موجود ممكن محكوم بهذا القانون إلّا أن مدار

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) انظر نفحات الرحمن: ج١، ص٣٢٥؛ آيات العقائد: ص٢٨٩.

(٤) سورة الرعد: الآية ٨.

بحثنا على الإنسان ونبوته، فإن الوظائف الملقاة على عاتق الناس لا تكون متساوية بل متكافئة، ويراد بالتكافؤ أن تكون على قدر قابليتهم واستعداداتهم، وهذا القانون عقلي بديهي يتفق عليه جميع العقلاء، وهو ما أقرّه الدين، ولذا نجد العقلاء مثلاً يمنعون الصبي والصغير من العمل ويعتبرونه جريمة، ويلزمون الآباء والأمهات بالإنفاق على أولادهم حتى يكبروا ويبلغوا السن المناسب للعمل.

وفي الوظائف و الأعمال يوظفون المرأة في مجالات تناسب استعدادها، وكذلك الرجل، ولذا لا يعطون المرأة وظيفة عسكرية كبيرة مثل قيادة الجيش، أو يعطونها مهمة قتالية، كما لا يعطون الرجل رعاية الأيتام؛ لأن لكل منهما وظيفة واستعداداً يناسبه، فليس منع المرأة من تولي قيادة الجيش حرماناً وظلماً لها، و لا إعطاؤها مهمة رعاية الأيتام ظلماً في حق الرجل؛ لأن لكل منهما وظيفة واستعداداً، وكذلك الشرع يرفع عن الصبي التكاليف و الأحكام الإلزامية، ويسقطها عن المجنون والمغمى عليه والمريض و المضطر ونحو ذلك من تفاصيل الأحكام، ذكرها الفقهاء في أبحاثهم الفقهية، وفي عين الحال يفرق بين تكاليف الرجل والمرأة، فيكلف الرجل بالنفقة على المرأة ولا يكلف المرأة بالنفقة، ويكلف الرجل بالجهاد ولا يكلف المرأة، وفي مقابل ذلك يكلف المرأة بالحضانة للأولاد والإرضاع والتربية في أيام الحضانة ولا يكلف الرجل بها، ويكلف المرأة بالحجاب ولا يكلف الرجل بذلك، لماذا هذا التفاوت؟ والجواب: لأنّ الحكمة تقتضي أن يكون التكليف على قدر الاستعداد، وإليه يشير قولة

تعالى: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[١] أي أن التكليف يكون على قدر سعة النفس وقابليتها.

فالوظائف تكون على قدر الاستعداد ولكن التفاضل يكون على حسب الأعمال وليس حسب الاستعداد لأن الاستعداد غير اختياري في الغالب. أما الأعمال اختيارية. نعم هنا ملاحظة يجب أن لا نغفل عنها وهي أن الاستعداد له مرتبتان.

الأولى: الاستعداد الذاتي في النفوس، وهذا غير اختياري يوجده الله سبحانه في أصل الخلقة، والتنوع فيه ضروري لتكامل الحياة والبشر، ولولاه امتنع التنوع والتكامل على تفصيل ذكرناه في كتاب المظاهر الإلهية[٢].

الثانية: الاستعداد التربوي، ويتحقق بتربية الإنسان الاستعداد في نفسه وتنميته ليتسع إلى الفيوضات الأكبر والأعظم؛ لذا يكون معيارياً كالتعليم والتهذيب والتربية، فإنّها تنمي استعداد الإنسان في ذلك، وهذا الثاني اختياري يرجع إلى العمل والتفاضل.

وعليه فإننا إذا لاحظنا أن وظيفة الرجل الجهاد وليس ذلك وظيفة المرأة فلا يعني هذا أن الرجل أفضل من المرأة، ولو لاحظنا أن وظيفة المرأة رضاعة الطفل وليس الرجل فلا يعني هذا تفضيلاً للمرأة على الرجل، بل أن لكل منهما وظيفة، والوظائف ليست معياراً للتفاضل، وهذا قانون عام في جميع الأشياء، ويمكن التمثيل له بمثالين محسوسين:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) انظر المظاهر الإلهية: ج١، ص٧.

أحدهما: لو سأل سائل هل الطعام أفضل أم الماء؟ هل يصح هذا السؤال؟ الجواب لا؛ لأن وجود المقايسة خطأ؛ لأن لكل منهما وظيفة، فالطعام يشبع والماء يروي، ولا يمكن الاستغناء عن كل منهما، ومثله يقال في الزهرة والثمرة والشجرة والطير والبر والبحر وكل شيء.

ثانيهما: لو سأل سائل هل الأب أفضل أم الأم؟ فليس من المنطق أن يقال بأفضلية أحدهما على الآخر؛ لأن لكل منهما وظيفة، ولا يمكن أن تستغني عنه الأسرة. هذا بحساب الوظائف، ولكن بحساب الأعمال فإنه يمكن أن يكون الأب أفضل، ويمكن أن تكون الأم أفضل، ويمكن أن يتساويا، كما يمكن أن يكون المعلم أفضل من معلم، وطبيب أفضل من طبيب، وإنسان أفضل من إنسان، وهو ما أشار إليه الباري عزّ وجلّ بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[1] أي أن تمييز العنصر له حكمة التعارف والارتقاء وليس التفاضل، والتفاضل يكون بالتقوى والعمل.

هذه الحقيقة غفل عنها إبليس فاعترض على أمر الباري بالسجود لآدم وقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[2] فتصور أن التفاضل يكون بالعنصر، والحال أن التفاضل بالأعمال، وعمل إبليس كان شراً أودى به إلى الشقاء الأبدي؛ لأنه عصى أمر ربه.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢.

إذن ينبغي أن نفرق بين الوظائف والتفاضل، فالوظائف بحسب الاستعداد والتفاضل يكون بالأعمال، فإذا لاحظنا تمايزاً في الوظائف فإن ذلك لا يعني تمييزاً أو تفضيلاً بين الاثنين.

المقدمة الثالثة: أن الأنبياء يجب أن يكونوا أفضل أهل زمانهم من وجوه كثيرة عمدتها ثلاثة:

الأول: طهارة النسب، فلا يجوز أن يكون النبيﷺ إلّا من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة لم تنجسها الجاهلية بالأنجاس والأدناس.

الثاني: الملكات النفسانية، فيجب أن يكونوا أعلم الناس واتقاهم وأزكاهم وأطهرهم وأحسنهم أخلاقاً.

الثالث: الكمال البدني، فلا يجوز أن تكون فيهم عاهات بدنية أو أمراض مزمنة أو قباحة في الشكل والمنظر ونحو ذلك من نواقص وعيوب.

والشخص الذي يكون أطهر الناس نسباً وأكملهم علماً وتقوى وأخلاقاً وأكملهم بدناً يكون أجملهم وأرقاهم، وهذا ما يقضي به العقل قبل الشرع؛ لأن النبيﷺ مقتدى الناس وهاديهم، فلا يعقل أن توجد فيه صفة منفرة، ولا عاهة كذلك، بل يجب أن يتمتع بكل ما هو جميل وكامل حتى يجذب الناس إلى الإيمان، ويهديهم إلى الله، وإلّا انتقض غرض البعثة، بل ولو كان ناقصاً من جهة ولم يكن الأكمل فبالضرورة يكون في الناس من هو مساو له أو أفضل وينتقض غرض البعثة؛ لأنه على فرض وجود المساوي فإن العقل يقضي بعدم وجوب اتباع المساوي للمساوي، ولو كان أفضل فإن العقل يقضي بوجوب اتباع الأفضل؛ لذا لا يعقل أن يكون في

الامة من هو مساوٍ للنبيﷺ أو أفضل، بل يجب أن يكون هو أفضل أهل زمانه دفعاً لنقض الغرض والخلف والتناقض.

المقدمة الرابعة: أن المقامات المعنوية لها بعدان:

الأول: بعد الرتبة المعنوية، وهذه تتعلق بذات الإنسان واستعداده الروحاني وملكاته النفسانية والعقلية.

الثاني: بعد الوظيفة الإلهية التي تتعلق به.

وفي البعد الأول يتساوى جميع الناس، ولا فرق بين رجل وامرأة نظير العلم والعدالة والزهد، فإن المقامات العلمية مثلما يبلغها الرجل تبلغها المرأة أيضاً، وربما تفوق الرجل، وإن كان في الغالب الرجال يفوقون النساء في ذلك لاسباب عديدة لسنا في محل بحثها، إلّا أن المرأة لا تحرم منه ولا تمنع، ولو أخذت بالأسباب الموصلة إلى المقامات بلغتها، ولا يختلف هذا بين مقام ومقام بما فيها المقامات الإلهية الرفيعة، وقد شهد الباري عز وجل لمريم ابنة عمران بأنه سبحانه اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، كما شهد لها بأنها صديقة وكانت تحدثها الملائكة، وهذه المقامات أي الاصطفاء والطهارة الذاتية والتصديق هي مقامات الأنبياء، فإن ميزة الأنبياء على سائر الناس بأنهم صديقون اصطفاهم الله سبحانه وزكاهم وطهرهم من الذنوب والقبائح.

فمن حيث الذات والاصطفاء المرأة كالرجل قد تبلغ هذا المقام، بل وتفوق الأنبياء كالصديقة الكبرى فاطمة عليها السلام، فإنها وبحسب الادلة النقلية القطعية والمعتضدة بالبراهين العقلية أفضل من جميع الأنبياء عدا رسول

الله صلى الله عليه وآله[1]، وأنها أعلى مقاماً ورتبة، بل لم يبلغ الأنبياء درجة النبوة إلّا بمعرفتها والإقرار لها كما ورد في الأخبار: «هي الصدّيقة الكبرى، وعلى معرفتها دارت القرون الأولى»[2] وهي الحجة على سائر الأئمة من أولادها عليهم السلام، وهذا اصطفاء وتطهير في الذات والعنصر، ويتعلق بالمقام الروحي، ولكنها في البعد الثاني لم تبعث نبيّة، ولم تكن رسولاً ولا إماماً كسائر الأئمة عليهم السلام إما تعظيماً أو تخفيفاً أو توظيفاً، وكلها تعود إما إلى جهة الرحمة أو الحكمة.

وتوضيح ذلك: أن العقل يقضي بأن الحكيم إذا لم يكلف أحداً بوظيفة هو كفء لها ويليق بها فإن ذلك يعود إلى أحد أسباب:

الأول: أنه يريد أن يعظّمه أكثر ويكرّمه، فلا ينوط به المسؤولية وعبئها، كما نلاحظ أن العظماء والزعماء يكلفون الآخرين في إنجاز المهام، أو يتصدى لها من ينوب عنهم في ذلك.

الثاني: أنه يريد أن يخفف عنه المسؤولية ولا يلقي على كاهله مهامها، وهذا قد يعود إلى الأول، وكلاهما يعودان إلى الرحمة.

الثالث: أنه يريد أن يوظفه لمهمة أخرى قد لا ينهض لها ولا يناسبها إلّا هو، وهو ما تقتضيه الحكمة.

---

(١) انظر علل الشرائع: ج١، ص١٧٩؛ الإمامة والتبصرة: ص١٣٢؛ كشف الغمة: ج٢، ص٩٢؛ البحار: ج٤٣، ص١٢، ح٥.

(٢) البحار: ج٤٣، ص١٠٥، ح١٩؛ مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٢٤٨.

هذه هي المنفصلة التي يقضي بها العقل، وجرت عليها طريقة العقلاء في إعطاء المهام والمناصب والتكليف بالمسؤوليات إذا كانوا حكماء ويراعون موازين الحكمة في أفعالهم. إذا كان هذا شأن العقلاء فما بالك بالباري الحكيم المطلق من جميع الجهات؟ فإنه أيضاً في البعث والإرسال وتنصيب الأئمة عليهم السلام لا يفعل إلّا ما تقتضيه الرحمة أو الحكمة، فإذا لوحظ أنه لم يرسل المرأة ولم يتخذها نبياً بالرغم من أنه اتخذها صفية وصديقة وولية، ومحدثة وهذه مقامات لا تقل عن مقام النبوة، فإن ذلك لابد وأن يعود إما إلى جهة التكريم أو للتخفيف أو للتوظيف لمهام أخرى.

ومن هذا يتضح أنَّ الباري عز وجل لم يبعث النساء أنبياء ليس من جهة عدم المقتضي، بل لوجود المانع، والعقل والمنطق يتفقان على ذلك من وجوه عديدة نشير إلى اثنين منها:

الوجه الأول: أن الوظيفة الإنسانية للمرأة والاستعداد الذاتي يتنافيان مع النبوة؛ بداهة أن على المرأة إنسانياً وظائف عديدة منها وظيفة الزوجية ووظيفة الأمومة، وهاتان الوظيفتان تستدعيان وظائف فرعية كثيرة تابعة كالحيض والنفاس والحمل والإرضاع والحضانة والتربية وكل ما يتعلق بالأسرة، وهي من الناحية التكوينية والإنسانية منحصرة بالمرأة؛ إذ ليس لها بديل، بخلاف النبوة فإن لها بديلاً هو الرجل، ولا تتنافى وظائفه الإنسانية مع وظائف النبوة، فالحكمة العقلية تقضي بأن يكون المبعوث بالنبوة الرجل دون المرأة؛ لأن إرسال الرجل بلا مانع بخلاف المرأة، ومن ذلك يتضح أن عدم إرسال المرأة لم ينشأ من عدم المقتضي بل من وجود المانع.

الوجه الثاني: أن إرسال المرأة ينقض غرض البعثة من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: لأنه يوجب التهمة في النبوة فيمنع من الاستجابة لها، وذلك لما ذكرناه في المقدمة الثالثة من أن النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في النسب والملكات النفسية والكمالات البدنية، ولو اجتمعت هذه في المرأة لكانت في غاية الكمال والجلال والجمال، ومثلها تكون محل رغبة الراغبين ومطمع الطامعين، فيختلط الاتباع والطاعة لها بين ما هو نزيه وما هو غير نزيه، ودواعي البشر كثيرة، ولوقعت في مورد الاتهام من قبل الخصوم، وغالباً ما تحتف النبوات بالمخالفين والأعداء بما يتخذ ذريعة لاتهام النبوة واتباعها والتشنيع عليهم فينتقض غرض الإرسال.

الجهة الثانية: لأن الناس لاسيما العرب كانوا يستصغرون المرأة ويستعيبونها، بل ويدفنونها في التراب، كما صرح به القرآن[(١)] وشهدت بذلك سيرتهم.

فإرسال المرأة في مجتمع يحتقرها ولا يقيم لها وزناً كان من شأنه أن ينقض غرض البعثة، بل ويكون مدعاة للنفور من الدين ومحاربته، فيتنافى مع مقام اللطف الإلهي الذي يستدعي أن يهدي الناس إلى الحق وأن يقربهم إلى الطاعات ويبعدهم عن المعاصي.

وكان لهم العذر في عدم الاستجابة - بحسب مستواهم الفكري والنفسي - والإسلام وإن كافح هذه الثقافة السلبية وأشاد القرآن الكريم

---

(١) سورة التكوير: الآيتان ٨-٩.

بجملة من النساء الصالحات ورفع من شأنهن، وفي السنّة الشريفة وردت روايات كثيرة جدا تعظم المرأة وتشيد بمكانتها وكرامتها، إلّا أن هذا جاء بعد ثبوت النبوة لا قبلها، فلو أرسل الباري المرأة والناس جاهليون ويحملون ثقافة سلبية عن المرأة لاستحالت الاستجابة، بل لكان مدعاة لعدم الهداية، وهو ينقض الغرض فيستحيل وقوعه.

الجهة الثالثة: لأنه يتناقض مع مبادئ الشريعة وقيمها.

وبيان ذلك: أن النبيﷺ في الأمة معلم ومرشد ومربّ، وهذه الوظائف تستدعي الحضور الدائم بين الناس فيأخذون منه الأحكام والشرائع والآداب والأخلاق وسائر التعاليم الإلهية، وهو في عين الحال قدوة وأسوة لهم يجب على الناس الاقتداء به، فلو كان النبيﷺ امرأة فإن وظائف النبوة من تعليم وإرشاد وكونها قدوة تستدعي أن تكون دائماً بين الناس، وفيهم الرجال فتجالسهم وتتحدث إليهم وتعلمهم وترشدهم، وفيهم الكفار والضالون وأصحاب المطامع والأهواء، وفيهم الصالحون، وفي عين الحال المرأة من الجهة الإنسانية تكون زوجة وأمّاً ولكل منهما وظائف وواجبات تتعارض مع وظائف النبوة، ويستحيل الجمع بينهما، وحينئذ يدور الأمر بين خيارين:

أحدهما: أن تختار وظيفة النبوة وتضحي بمقام الزوجة والأمومة.

ثانيهما: ان تختار وظيفة الزوجية والأمومة وتضحي بوظيفة النبوة.

والخيار الأول يخل بالأسرة وينتقض غرض التعليم؛ لأنها تكون قدوة لسائر النساء لاسيما المؤمنات فيقتدين بها في عدم التزويج، وكذا الرجال؛

لأنها نبية لهم، وهو هدم لكيان الأسرة، والتوالي الفاسدة المترتبة على هذا الخيار كثيرة، وأيضاً فإن مقام التعليم والإرشاد يستدعي كثرة الاختلاط بالرجال والانفتاح عليهم، فلو اقتدت النساء بها من هذه الجهة فتح باب الفساد، فينتقض غرض التعليم والإرشاد، فالخيار الأول ممتنع؛ لأنه يهدم الأسرة تكويناً وتشريعاً، وينقض غرض التشريع.

والخيار الثاني كذلك، بل يستلزم تخلف النبي صلى الله عليه وآله عن وظائفه الإلهية وهو واضح الفساد.

فيتحصل: أن اتخاذ المرأة نبيّة وإرسالها للناس يوجب نقض الغرض من البعثة تكويناً وتشريعاً، فعدم الإرسال ليس من جهة عدم المقتضي؛ لما عرفت في المقدمة الرابعة من أن بعض النساء يفقن الأنبياء ويبلغن مقام النبوة ذاتاً ولكن لم يبعثهن الله سبحانه كنبيات إلى البشر، ولاجعلهن أئمة لوجود المانع، وهذا ليس من باب التنقيص والحرمان للمرأة، بل إما من جهة التكريم أو التخفيف أو التوظيف.

وبهذا يتضح وجه الدقة في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**﴾[1] وهذا المعيار لا يختص بمقام النبوة والإمامة، بل يجري في جميع المناصب التي منع الشرع المرأة منها نظير مقام القضاء والمرجعية والرئاسة الدينية للناس، فإن المقام الذاتي في العلم والكفاءة ثابت لها، إلّا أنه منع من التولي الرسمي لذلك؛ لوجود المانع.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩.

وهذا يدل على رحمة الإسلام وحكمته في تشريعاته وتعييناته، فلا يرسل للبشر ملكاً، ولا يرسل لهم امرأة، فلا ينبغي أن يتوهم البعض بأن ذلك من الحرمان، فإن قوانين العالم التي أقحمت المرأة في بعض المواقع والمهام التي لا تتناسب مع مكانتها ووظيفتها الإنسانية ظلمت المرأة، وأضرت بها إضراراً بالغاً.

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَا إِلّا
الْبَلاَغُ الْمُبِينُ

يس/ ١٦-١٧

الآيتان المباركتان بحكم آية واحدة في المعنى؛ لأنّهما تشيران إلى وظيفة الرسل وهي البلاغ المبين، والبحث فيهما يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآيتين

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿رَبُّنَا﴾

الرب اسم من أسماء الله تعالى، ومعناه المالك والسيّد والمربّي، ولا يقال في غير الله سبحانه إلّا بالإضافة إلى غيره كقولهم (رب البيت) و(رب العمل)، وفي الآية ورد مضافاً إلى ضمير الجمع العائد على الرسل، ويحتمل معنيين:

الأول: أنّه الله سبحانه باعتبار أنه سبب بعثهم وأرسالهم كما أنّه الغاية.

الثاني: أنّه عيسى عليه السلام أو وصيه باعتبار أنّه الواسطة للبعث؛ لكونه يمثل إرادة الله سبحانه، وأنه الذي يربيهم ويعلمهم، ولا تنافي بين المعنيين باعتبار الطولية أو المظهرية.

المفردة الثانية: ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾

اللام للتأكيد، وبيان صدق مدعاهم، والمرسلون جمع رسول وهو من يبعثه الله سبحانه ليدعو الناس إلى توحيده وعبادته واتباع نهجه في الأحكام والآداب. وبهذا يفترق معناه عن النبي، لأن النبي من ينبأ ويوحى إليه أعم من كونه رسولاً.

المفردة الثالثة: ﴿الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾

البلاغ البيان الذي يتوصل به إلى الغاية، والمبين صيغة اسم فاعل من بيان الشيء أي إظهاره والإفصاح عنه بأسلوب يفهمه المبعوث إليه ويدركه؛ ليكون حجة عليه، ووصف البلاغ بالمبين احترازي في مقابل البلاغ القاصر عن بلوغ الغاية بسبب عدم وضوحه لقصور المبلِّغ أو المبلَّغ.

وفي الآيتين بيان لأسلوب محاورة الأنبياء للكفار الذين رفضوا التصديق بنبواتهم بحجة أنهم بشر، واتهموهم بالكذب، وهو نهج غالب في محاوراتهم مع المكذبين، ويعتمد على أركان ثلاثة:

أحدها: المرونة في الكلام مع صلابة الموقف.

ثانيها: تجنب الإثارة والاستفزاز والملاسنات التي غالباً ما تقع بين المتحاورين.

ثالثها: إظهار الخدمة المجردة عن المصالح، فلا يطلبون من الناس مالاً ولا أجراً على ما يقدمون لهم من وعظ وإرشاد وتعليم، فإن الأنبياء لا يريدون أن يفرضوا عقائدهم على الناس، ولا يريدون نشوب حرب وصراع بين أطراف الحوار، وإنما مهمتهم تعليمية إرشادية يهدفون بها هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن يحمل هذا الهم وهذه الغاية لا يمكن أن يخوض حرباً ضد من يريد أن يهديهم؛ لأن الحرب كلامية أو عسكرية تنقض الغرض، كما لا يمكن أن ينفرهم بالخشونة والعنف والغلظة في الأسلوب والكلام؛ لأنه أيضاً ينقض الغرض، وفي عين الحال يستغنون عن الناس ولا يطالبون بشيء؛ لأن الناس يحبون الدنيا ويطلبون

مصالحهم، فإذا وجدوا أن مصالحهم تتضرر وهم كفار لا يعلمون حقيقة الدعوة سيكون أدعى لهم للتكذيب.

فالأسلوب الذي تقتضيه كمالات الأنبياء النفسية وسموهم الأخلاقي ويفرضه المنطق والعقل السليم هو اتباع المرونة لجذبهم روحياً، وإشعارهم بالمحبة والرحمة والتركيز على المشتركات أولاً مقرونة بالحجج والبراهين لتكون منطلقاً لزرع الثقة ونفع الناس بدلاً من الانتفاع بهم؛ ليكون ذلك كله طريقاً لتصديقهم وايمانهم.

هذا هو الأسلوب الذي يشترك فيه جميع الأنبياء والأولياء، وهو حكمة في البيان، ومرونة في اللسان، وتنزه من المصالح، فاذا اقترنت بالدلائل والبينات تمت الحجج وسقطت الأعاذير.

وهذا النهج يستفاد من جواب الرسل الذين بعثهم الله سبحانه إلى أنطاكية وهو من باب المصداق والنموذج، ويشمل سائر الأنبياء كقاعدة؛ إذ ردوا على اتهام القوم لهم وتكذيبهم بجوابين:

الأول: ﴿**قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**﴾[(١)] وهذا جواب لقولهم (إن انتم إلّا تكذبون) وفيه لطف وشفقة وتودد في الأسلوب وفي عين الحال ثبات ورسوخ في الموقف، ففي الوقت الذي أكدوا أنهم مرسلون وأنّ على الناس تصديقهم واتباعهم ما خدشوا في موقف المخالفين، ولم يتهموهم بشيء، وإنما أوكلوا القضية إلى ربهم تبارك وتعالى، واكتفوا ببيان

---

(١) سورة يس: الآية ١٦.

مسؤوليتهم لا مسؤولية الناس، وفي جوابهم دلالة على أن القوم اتهموهم بالكذب في نسبتهم إلى الله سبحانه، وأنهم أنبياؤه؛ لذا قالوا لهم: ﴿**رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**﴾(١) أي لسنا متقوّلين عليه.

الثاني: قالوا: ﴿**وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾(٢) وهذا جواب يتضمن دفع فكرة قد تساور نفوس القوم في أنهم حيث يدعونهم إلى الإيمان يريدون أن يتصدروهم ويرتقوا المقامات على أكتاف الناس، طلباً للمصالح الدنيوية، فجاء الجواب بأن علينا وظيفة إلهية، وهي البلاغ المبين، وهم ينجزونها لا غير، ووصف البلاغ بالمبين أي الظاهر المظهر للحق ليكون حجة على الناس، وإلى هنا تنتهي المهمة.

وأما التصديق وعدم التصديق فهو أمر متروك إليهم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وهذا يحاكي قوله تعالى: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(٣)، وقوله سبحانه: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾(٤) فمهمة الأنبياء بيان طريق الرشد وتمييزه عن طريق الغي، وأما الدخول في الإيمان والخروج منه فهو أمر أختياري، وهذا مبدأ عام في الرسالات السماوية، وهو عدم الإكراه على الإيمان لأربعة أسباب:

أحدها: لأنّ الدنيا دار الاختبار والامتحان، وهو يتقوّم بمبدأ حرية الاختيار.

---

(١) سورة يس: الآية ١٦.

(٢) سورة يس: الآية ١٧.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

ثانيها: لأن نهج الأنبياء يقوم على الصدق والواقعية لا التزييف والكذب والخداع، ونهج الإكراه والقسر يناقض الصدق والواقعية ويتوافق مع الكذب.

ثالثها: أن غاية الأنبياء الارتقاء بعقول البشر وأرواحهم، وذلك لا يكون إلّا في الحرية، فإن الفرض يمكن أن يقهر البدن، وأما الروح والعقل فلا يمكن إكراههما على شيء.

رابعها: لأن الأنبياء يريدون أن يكافحوا الكفر والنفاق والأخلاق الفاسدة وبالجبر والإكراه يقودون الناس إلى النفاق والكذب والتملق وهو ينقض الغرض، وبهذا يتضح أن نهج التفرد والإقصاء والإكراه ليس من سيرة الأنبياء بشيء، وإنما يصنعه أصحاب المصالح لبلوغ مصالحهم.

والخلاصة: أن جواب الأنبياء جاء مطابقاً للأغراض الإلهية في البعثة وإرسال الرسل، وهي هداية الناس إلى الحق والتصديق به عن حرية واختيار، وعن دليل وقناعة لا جبر ولا فرض، وفي عين الحال بتجرد ونزاهة عن المصالح، وبهذه العناصر تتميز الدعوات الصادقة من الكاذبة في الأبعاد الدينية أو الاجتماعية أو السياسية.

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين

تتضمن الآيتان إشارات ولطائف نستعرضها على التوالي:

اللطيفة الأولى: لماذا القسم لمن لايؤمن بالله؟

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾[1] وهو جملة خبرية تتضمن القسم، ولكن لا بأدوات القسم مثل (والله) و(تالله) لأن القسم بأدواته لقوم لا يؤمنون بالمقسوم به خلاف الحكمة، ولا يحقق الغرض، فلذا كان لابد من بيان القسم بصيغة جملة خبرية، وتؤكد بلام التأكيد لإثبات صدقهم وصحة ما يقولون، ولو سأل سائل لماذا القسم ماداموا لم يقتنعوا بالأدلة؟

والجواب: لسببين:

السبب الأول: أنّ القسم يتعلق بالشيء العظيم المقدس عند القاسم وليس بالضرورة يكون عظيماً عند المقسوم له، وقد تعارف بين الناس أنهم يقسمون بما يعظمون ويقدسون بغض النظر عن اعتبار المقسوم له؛ لأن الغاية منه ليس إثبات شيء بل إثبات صدق المدعي.

وبيان ذلك: أنّ القسم يقع على أنحاء:

---

(١) سورة يس: الآية ١٦.

الأول: القسم الحقي، ويراد به إثبات الحق وإلزام الآخرين به، وهذا يستخدم في موارد الاختلاف في الحقوق ولوازمها، ويستخدم في القضاء لحل الخصومات والمنازعات، ويشترط فيه أن يكون المقسوم به عظيماً مقدساً عند القاسم وعند المقسوم له وإلّا انتفى الغرض منه ولم يتحقق الأثر، وأن يكون بأدوات القسم الخاصة مثل (تالله) و(بالله).

الثاني: القسم الوثوقي، ويراد به إثبات الصدق في القول وحسب، بغض النظر عما يترتب عليه من لوازم، وهذا يستخدم في المحاورات العرفية لدى نقل الأخبار والمعلومات ونحوهما لو أراد القاسم أن يثبت صدق قوله أو حقانية ما يعتقد به، ويشترط فيه أن يكون المقسوم به عظيماً أو مقدساً عند القاسم بغض النظر عن مكانته واعتباره لدى المقسوم له؛ لأن الغاية منه هو إثبات صحة قول القاسم من دون أن يترتب عليه أثر إلزامي على المقسوم له، وهو كثير الوقوع في المحاورات العرفية، نظير قول الشاعر:

تالله ما فعلت أمية فيهم ... معشار ما فعلت بنو العباس(١)

أي من الظلم والجور على آل محمد عليهم السلام وشيعتهم كما تؤكده وقائع التأريخ، ومنه قول أولاد يعقوب عليه السلام لأبيهم: ﴿**تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ**

(١) مستدرك الوسائل: ج١، ص١٥، مقدمة التحقيق؛ أعيان الشيعة: ج٧، ص١٣٢، الرقم (٤٧٤).

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أو تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[١] أي قسماً بالله إنّك لا تزال تذكر يوسفعليه السلام حتى تهرم وتقعد عن العمل أو تكون ميتاً[٢].

الثالث: القسم الإلزامي، وهو يشترك مع الثاني في الأثر، وهو إلزام المقسوم له بما يعتقد ويقدس لأجل تصديق أو تأكيد قوله أو فعله كما في قوله: (بالله عليك أنت قلت كذا) وهو موضوعاً قسم لكنه حكماً ليس منه، والغرض منه التأكيد.

وكيف كان فإنّ مثل هذا القسم لا يراد به سوى إثبات صدق القائل وصحة ما يعتقد به، فيصح أن يقع بالنص كما في استعمال أدوات القسم كما في البيت الشعري والآية المباركة، ويصح أن يقع بالمضمون كما في الجملة الخبرية: (الله يشهد) أو: (الله وكيلك) أو الآية التي ذكرها الأنبياء إذ قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾[٣] فقسموا بما هم يؤمنون به ويعتقدون بعلو مكانته وعظمته لبيان صدق ما يدعون إليه، ولا يريد إلزام الكفار بشيء من الحقوق أو الإيمان بالله حتى يفترض اعتقادهم، ولذا يصح وإن كان المقسوم له لا يقر بعظمة المقسوم به.

وعلى هذا قسمّنا القسم على ثلاثة أقسام هي: القسم الحقي والذي يتم به إثبات الحق على الغير، والقسم الوثوقي ويراد به إثبات صدق القول أو

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٥.

(٢) التبيان: ج٦، ص١٦٦؛ مجمع البيان: ج٥، ص٤٤٤ تفسير الآية المزبورة.

(٣) سورة يس: الآية ١٦.

القائل، والقسم الإلزامي ويراد به إلزام الغير بما يعتقد، وبينها فوارق في الموضوع والحكم والأثر والمتعلق ومحل بحثه الفقه.

والسبب الثاني: أنهم تكلموا بلغة القوم وبمستوى ما يؤمنون به، فإن العقلاء مجمعون على أن الكذب قبيح لا يفعله إلّا الدنيئون، ولاسيما عند العرب، فإنهم كانوا يعتقدون بأن الكذب يوجب خراب الديار، ومن هنا فإن كفار مكة أبوا أن ينطقوا بكلمة التوحيد، ورفضوا أن يقولوا: (لا إله إلّا الله) لأنهم كانوا لا يريدون الإيمان، فلو قالوا بالسنتهم ولم تؤمن قلوبهم لكانوا كاذبين وهو ما يوجب ذلهم ودناءتهم، ويبدو أن الكثير منهم رفضوا النفاق وكانوا يستعيبونه؛ لأنه من الكذب، ولذا لم يقولوها بألسنتهم ويخالفوها في أعمالهم، بل صرحوا بالرفض وعدم القبول، وخاضوا الحروب لأجل أن لا يقولوها، ويشهد القرآن بأن المنافقين من الناس هم الأقلية، وفي مجتمع يحمل مثل هذه الثقافة - يستقبح الكذب، ويدين صاحبه - فإن القسم يجدي في التأثير؛ لأنه ينفي عن القاسم صفة الكذب بما يوجب ثقته ثم تصديقه.

لاسيّما وأنهم أقروا للأنبياء بكمال النفس والأخلاق، وبهذا يتضح أن القسم قد يجدي مع من لا يجديه الدليل والحجة، وهو ما نهجه الأنبياء.

اللطيفة الثانية: لماذا قسموا بالربوبية والعلم؟

لقد وقع قسمهم بصفتين من صفاته سبحانه هما الربوبية والعلم ﴿وَقَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾[١] وذلك لحكمة، فإنّ القوم الذين دعوهم عاشروا الرسل وعرفوا سموهم الأخلاقي وجلالتهم في العلم والحكمة والقدرة على التأثير في التكوين، وأيقنوا بكمالهم، وأذعنوا لهم كما تشهد له أحداث القصة الواردة بشأن النزول، والعادة قاضية بالانتقال من معرفة الكامل والعالم إلى معرفة الذي كملّه وعلّمه وربّاه.

وطبقاً لما يقال في رسل أنطاكية يقال في رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هو المقصود بهذه الآيات المباركة؛ إذ كانوا يذعنون لكماله وجلاله وأنه مبارك وصادق أمين، وأن الآيات الخارقة تلازمه.

فالقسم بالرب يتضمن الإشارة إلى عظمة من يؤمن به الرسل وبعثهم للناس، وأن الكمال والجلال الذي يتصف به أعلى وأسمى من كمالهم وجلالهم؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولذا جعلوا القسم متصلاً بضمير المتكلم (ربنا) ولم يقولوا: (ربكم) أو: (رب العالمين) لأن الغاية من القسم تتحقق بالاضافة إليهم لا إلى غيرهم من العباد الناقصين الجاهلين.

وباختصار: أنهم أرادوا إيصال الناس إلى حقانية قولهم وما يدعون إليه عبر كمال شخصيتهم وعلوها التربوي، ومن ذلك يوصلونهم إلى كمال الخالق الذي رباهم وأرسلهم.

---

(١) سورة يس: الآية ١٦.

اللطيفة الثالثة: لماذا ذكروا العلم؟

أنّهم ذكروا صفة العلم للإشارة إلى أمرين:

الأول: أنّ ربهم عالم بهم وبأقوالهم وأفعالهم فلا يمكن أن يخالفوه في قول أو فعل، وعلى هذا لا يمكن أن يكذبوا أو يتقوّلوا عليه، وحيث إن القوم كانوا مشركين كان ذلك أدعى للتصديق، والنكتة اللطيفة هنا أنهم نسبوا علم الغيب إلى الباري عزّ وجل وإحاطته بأقوال وأفعال العباد، ولم يستنكر ذلك القوم أو يعترضوا عليه، وفي ذلك دلالة على إقرارهم بهذه الحقيقة.

الثاني: بيان غايتهم من الدعوة والإرشاد، وهو أداء الوظيفة الربانية الملقاة عليهم في الدعوة وتبليغ الرسالة؛ بداهة أن ما يهم الأنبياء هو أداء الوظيفة وامتثال أوامر الباري عزّ وجل، ولا يهمهم بلوغ النتائج والوصول إلى الفوائد؛ لأنهم عباد الله، ومقتضى العبودية هو الكون في خدمة الرب تبارك وتعالى والعمل بأوامره ونواهيه؛ لذا فإن ما يهمهم أنه سبحانه يعلم بأنهم مرسلون، وأنهم صادقون في دعواهم وقد أدوا ما عليهم، فإن هذا هو الأهم لديهم، وهو الذي يقتضيه مقام العبودية؛ لذا ما زادوا على قوله ﴿**رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ**﴾[1] ثم صرحوا بغايتهم الاهم في الآية التالية وقالوا: ﴿**وَمَا عَلَيْنَا إِلّا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾[2] هذا ما عليهم، وأما وقوع الهداية واستجابة الناس إليهم فذلك راجع إلى مشيئته سبحانه ومشيئة الناس.

---

(١) سورة يس: الآية ١٦.

(٢) سورة يس: الآية ١٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين

يستفاد من الآيتين الكريمتين تعاليم عديدة تهمنا في حياتنا الاجتماعية:

التعليم الأول: فن الإقناع

أن الآيتين تقرران طريقاً رابعاً للحوار وفن الإقناع لا يستخدم العقل والبرهان، أو الاستدلال العلمي، ولا الدليل النقلي التعبدي، ولا الدليل الحسي القائم على المعاجز والكرامات ونحوها، وهو طريق الوثاقة والاطمئنان النفسي عبر القسم.

ويستخدم هذا الطريق مع ثلاثة أصناف من الناس: المعاندون الذين يصرون ويكابرون على الحقيقة، فإن هؤلاء لا يهديهم استدلال ولا برهان؛ لأنهم لا يستمعون إلى الدليل، ولو استمعوا لا يتعقلونه؛ لأنهم لا يريدون الاستجابة.

والجاهلون الذين يقصرون عن فهم الاستدلال أو يصعب الاستدلال لهم.

والشاكون الذين تمنعهم الشبهات من الوثوق بالأدلة، فإن هذه الفئات الثلاث لا تتفهم إلّا طريق الوثوق النفسي وإيصالهم إلى الوثاقة بصدق قول الرسل عبر القسم؛ لأن القسم لا يكون إلّا في موارد الصدق، لاسيّما من رجال الله الذين رباهم وأقر الناس لهم بالكمال والجلال، وقد أقرت القوانين العقلائية في جميع العالم القسم واتخاذه أحد طرق التوثيق

والتصديق في المرافعات وحل المنازعات إذا تعذرت أدلة الإثبات، وهذا ما اتبعه الأنبياء بقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾[1] وقد قالوا ذلك بعد إظهار المعاجز والكرامات وإقامة الأدلة أو مقارنة لها.

التعليم الثاني: المصلحون الإلهيّون

هناك فرق كبير بين المصلحين الإلهيين وبين غيرهم في أسلوب الحوار وغايته، فالمصلحون يعتمدون في حوارهم المرونة في التعبير، وغايتهم أداء الوظيفة في إصلاح الناس وهدايتهم بغض النظر عن النتيجة؛ لذا لم يسألوا ولم يتركوا التبليغ حتى بعد تكذيبهم، بخلاف أهل الدنيا فإن غايتهم النتيجة؛ لذا تختلف أساليبهم، فلو وجدوا أنّ ضالتهم تحصل بالخشونة والعنف والغلظة لا يقصرون فيها، ولو وجدوها في المرونة اتبعوها، ولذا غالباً تنتهي مشاريع أهل الدنيا إلى الصراع والحروب، بخلاف دعوات الأنبياء تنتهي إلى الهداية والإصلاح.

التعليم الثالث: تمامية الحجة بشرطين

أن الحجة حتى تكون حجة يجب أن تتصف بصفتين هما: الوصول أي البلوغ والظهور وهو ما كشف عنه الأنبياء بقولهم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2] فإن البلاغ لا يكون بلاغاً إلّا إذا وصل، فإذا صدر ولم يبلغ لا

(١) سورة يس: الآية ١٦.

(٢) سورة يس: الآية ١٧.

يكون حجة، كما أنه إذا وصل ولم يصدر لا يكون حجة، ففي عالم الثبوت والواقع يجب أن يتطابق الصدور والوصول، ولكن في عالم الإثبات والاحتجاجات فإن الوصول هو العمدة.

وهو يكشف عن الصدور ظاهراً، وأما إحرازه واقعاً فهو أمر متعذر في الغالب، وهذا يؤكد قول الإمامية في التخطئة والتنجيز والتعذير في الأحكام الشرعية وحجية الأصول والأمارات.

فالوصول وحده غير كاف في الحجية، بل لابد من إحراز الظهور في المعنى المراد، وإلّا كان البيان مهملاً أو مجملاً فيسقط عن الاحتجاج، وهذه الضابطة يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار لدى تشريع، القوانين والأنظمة والتعليمات وقد غفل عنها القانون في بعض الدول، فلاحظ في حجيته وتنفيذه على الناس جانب الصدور وغفل عن الوصول بل والظهور، ولذا يجري القانون فيها على الجاهل بالأصل أو الجاهل بالمعنى، وهو من الظلم، وبه يظهر تفوق الشرع على القانون وعلو كعبه في التشريع.

التعليم الرابع: أن الإيمان في كل شيء يجب أن يكون عن اختيار وقناعة ولا يصح أن يكون بالجبر والضغط القسري أو الأجوائي. هذا هو النهج السماوي في تبليغ الدين ومبادئه وأحكامه، فالفرض والقهر والعنف كلها أساليب تنافي منهج الدين وتنقض غرضه.

التعليم الخامس: لماذا يحكم على المرتد بالقتل؟

يتفرع هذا التعليم عن التعليم الرابع وقد جعلناه مستقلاً لأهميته ويدور عن سؤال كثيراً ما يثار هنا وهناك وهو قديم حديث، خلاصته أنكم تقولون إن الدين يقوم على حرية الاختيار، فلا يفرض على الناس الإيمان، ونص على عدم الإكراه في الدين؛ إذ قال سبحانه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] فكيف يمنع المسلم عن الخروج من الإسلام ويوصف الخارج بأنه مرتد ويحكم عليه بالقتل؟

ونختصر الجواب عن هذه الشبهة بعد بيان مقدمات:

المقدمة الأولى: أنّ كل شريعة دينية أو وضعية تشتمل على مجموعة أنظمة منها: نظام مخالفات ونظام عقوبات يناسب مبادئها وغاياتها، وهذه قاعدة كلية مشتركة بين الإلهيين وغيرهم، بل حتى المجتمعات البدائية لها نظام للمخالفات ونظام للعقوبات، وتؤكد التحقيقات العلمية أن بعض الحيوانات أيضاً لها هذا النظام، وهو مما يقضي به العقل وجرت عليه طريقة العقلاء في جميع الأزمنة والأمكنة؛ إذ لولا العقوبات لسادت الفوضى وانعدم الأمن وتعدى القوي على الضعيف.

فأصل وجود نظام للعقوبات يحد من الفساد والظلم، ويفرض الأمن والاستقرار، أمر تتفق عليه جميع الشرائع، والاختلاف الحاصل في حقيقة المخالفة التي تستحق العقاب من الأخرى التي لا تستحق، ونوع العقاب،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

أو كيفية تنفيذه، فربما شريعة تعتبر مثلاً سب الحاكم والرئيس جريمة تستحق العقوبة، وأخرى لا تعتبرها مخالفة، وبعضها تجعل العقوبة الغرامة، وبعضها السجن وهكذا، فبعضها قد يشدد في العقوبة وبعضها قد يخفف وفي بعض الظروف الزمانية أو المكانية قد يشدد في العقوبة وفي ظروف أخرى يخفف.

فمثلاً الهروب من الجيش في زمان الحرب غير الهروب منه في زمان السلام، والعقوبة المترتبة في زمان الحرب أشد منها في زمان السلام، فالشرائع المختلفة لا تختلف في ضرورة وجود نظام العقوبات وإنما تختلف في التفاصيل من حيث أصل المخالفة وأهميتها، أو شدة أثرها، أو الظروف المحيطة بها.

المقدمة الثانية: في نظام العقوبات. يقع تعارض بين مبدأين.

أحدهما: الحرية الشخصية للفرد كجزء من حقوقه.

ثانيهما: ضرورة حفظ النظام الذي يتعلق باحترام الحقوق العامة للأفراد والمجتمع.

إن القانون يفرض على الأفراد التخلي عن بعض حرياتهم لأجل الالتزام بانظمته فيقع التعارض، وحينئذ إن وجد سبيل يعطي لكل منهما حقه من دون تحديد أو تقييد حكم العقل بلزوم الأخذ به؛ لأنه سبيل العدل، وشاهده في العرفيات القانون الذي يمنع التدخين في الأماكن العامة ولا يمنعه في الأماكن الخاصة؛ لأن الأول من مقتضيات حقوق الآخرين. أما الثاني فهو من مقتضيات الحق الشخصي، فلو تجاوز الشخص ودخن في الأماكن العامة عاقبه القانون.

وفي الشرعيات الإفطار في شهر رمضان، فإنه قد يكون الإنسان المكلف معذوراً من الصيام بسبب مرض أو سفر فيجوز له الإفطار، بل قد يجب على قول بعض الفقهاء، ولكن جواز الإفطار لا يبيح له أن يتظاهر بالإفطار في الملأ العام في نهار شهر رمضان فيأكل ويشرب والناس صيام؛ لأن ذلك ليس من حقه، بل من الحق العام، وعليه فيجب عليه أن يكون في مكان خاص فيتناول طعامه وشرابه، وهذا من حقه، ولكن إذا تظاهر بالإفطار في الشارع العام منعه الشرع وعاقبه عليه.

ولا يمكن للشخص أن يدعي الحرية الشخصية فيتجاوز على الحق العام؛ لأن التجاوز على حقوق الآخرين ليس من الحرية موضوعاً، بل من العدوان، ولذا يعاقبه القانون كما تعاقبه الشريعة، كما لا يمكن للسلطة أو المجتمع أن يمنعه من التدخين في مكانه الخاص؛ لأن هذا من شؤونه وحقوقه.

هذا كله إن وجد سبيل للجمع بين الحقين فلا يقع تجاوز لكل منهما على الآخر، وأما لو تعذر سبيل الجمع تقع القضية في دائرة التعارض بين الحقين فيدور الأمر بين أن يعطى الحق الشخصي للفرد ويرجح على الحق العام، أو يعطى الحق العام ويرجح على الحق الشخصي، فما الذي يقضي به العقل ويعمل به العقلاء في هذه الصورة؟

الجواب: أنّهما يقضيان بلزوم تقديم الحق العام على الحق الشخصي؛ لأن الحق الشخصي يتعلق بحرية الشخص الفردية وأما الحق العام فيتعلق بحفظ النظام العام، وحفظ النظام بحكم العقل والعقلاء أهم من الحرية الشخصية لسببين:

أحدهما: لأنه سبب الحرية الشخصية؛ إذ لو لا النظام لا يمكن أن تبقى حرية.

ثانيهما: لأن الحرية الشخصية حق واحد أما النظام العام فيتعلق بحقوق كثيرة، وعلى هذا الأساس قامت القوانين العالمية فضلاً عن الشرعية على المنع من حريات الأفراد إذا تعارضت مع المصالح العامة كمصلحة حفظ النظام العام، بل لا يوجد قانون في العالم إلّا على أساس تحديد الحريات الشخصية، فإن القانون يعني وجود أنظمة وتعليمات تفرضها السلطات التي تملك هذا الحق على الناس ويجب عليهم الالتزام بها، وتعاقب من يخالفها، ولا يمكن للشخص أن يتمسك بحريته الشخصية فيخالف القوانين مدعياً أنّه حر ويملك السلطة على نفسه، ولو قدم للقضاء وعوقب فلا يحق له أن يتهم القضاء والقانون بالظلم والعدوان. لماذا؟ لأن مصلحة حفظ النظام العام واحترام الأنظمة والقوانين التي بها تحفظ الحقوق العامة أهم من الحرية الشخصية وراجحة عليها.

هذه القاعدة كلية لا يختلف عليها قانون أرضي ولا سماوي وإن حصل اختلاف في حدود القانون ومساحة التحديد، ففي بعض الدول مساحة الحرية الشخصية أوسع من بعض الدول الأخرى؛ لأن تدخل القانون في الحق الشخصي أقل، وعلى هذا الأساس نجد الاختلاف في القوانين.

فمثلاً: في بعض القوانين يعتبرون تجارة المخدرات جريمة عظمى قد تجر صاحبها إلى الإعدام، وفي بعضها يعدونها جريمة وعقوبتها الغرامة أو

الحبس مثلاً. إذاً الجميع متفق على أنها جريمة ولا يمكن للتاجر أن يدعي أنه حر في التجارة بالمخدرات إلّا أنهم يختلفون في نوع العقوبة.

ومثل ذلك في قوانين بعض الدول التي تتيح التجارة بالسلاح وامتلاكه وبيعه، وفي بعضها يمنع منه، وبعض القوانين تمنع غير حامل الجنسية من الترشح للانتخابات الرئاسية أو النيابية، وفي بعضها تمنعه من السفر، وفي بعضها يمنعونه من استملاك الأرض وهكذا، وهذه القوانين - بغض النظر عن صحتها وسقمها - كلها لماذا؟ لأنهم يجدون ذلك يتعلق بالنظام العام.

بل هذه القوانين التي تمنح الأفراد مساحة أوسع من الحرية تقيّد هذا الحق في الظروف الطارئة، وعلى أساسه قرروا قانوناً باسم قانون الطوارئ تقيّد فيه حريات المواطنين لأجل حفظ الأمن العام، ويستفاد من هذه المقدمة أن الأصل العام في القوانين العقلية والعقلائية ليست الحرية الشخصية، بل حفظ النظام الذي يتعلق بالحقوق العامة، فلا يمكن أن يترجح عليه الحق الخاص.

المقدمة الثالثة: أن القاعدة العقلية والعقلائية تقضي بأن من التزم بشيء التزم بلوازمه، ولو تخلف أجبر على الالتزام بها ولو بالعقاب، وهذه قاعدة عامة تنطبق في جميع الموارد، وأقرّبها إلى الاذهان بثلاثة أمثلة:

المثال الأول: في الحقوق الشخصية مثل الزواج، فإن كلا الزوجين بعد أن اتفقا على الزواج وتعاقدا تترتب على كل منهما واجبات تجاه الآخر، كما تثبت له حقوق، فالشرع يوجب على الزوج النفقة على الزوجة وتهيئة

السكن المناسب والدفاع عن الأسرة، كما يوجب على الزوجة الفراش والقرار في السكن وعدم الخروج دون إذن زوجها والإرضاع والحضانة ضمن الشروط المقررة في الفقه، وهذه الالتزامات عبارة عن لوازم ترتبت على الزواج، فهما كانا مختارين حرين قبل الزواج ولا مسؤولية على كل منهما ولكن بعد أن قررا الزواج وتزوجا يجب على كل منهما أن يلتزم بلوازم الزوجية، فلو تخلف عن ذلك ألزمه القانون والشرع، وربما عوقب عليه.

المثال الثاني: في الحقوق الالتزامية الخاصة، مثل دخول الطالب في الجامعة، فإنه إذا اختار جامعته وانتمى إليها لأجل الدراسة فإنّ ذلك يلزمه بجملة من الضوابط والالتزامات يجب عليه أن يراعيها ويأخذ بها، ولا يمكنه أن يخرج من الجامعة دون موافقة الإدارة، ولو خرج دون ذلك طبقت عليه العقوبة المقررة، ومثل ذلك يقال في الجندي والموظف والعامل وكل من التزم بشيء يجب عليه أن يلتزم بلوازمه.

المثال الثالث: في الحقوق العامة، كما لو دخل شخص إلى بلد فإنه يتوجب عليه أن يلتزم بقوانينه ولا يخالفها بحجة أنه حر. نعم هو حر قبل الدخول للبلد، ولكن بعد الدخول فيه فلا حرية له إلّا بمقدار ما يسمح به القانون، كما لا حرية للطالب في الجامعة إلّا بمقدار ما يسمح به القانون.

هذه القاعدة العامة لا تختص بالقوانين والشرائع الأرضية، بل تجري في الشريعة السماوية أيضاً؛ لأن الشريعة لا تخالف العقل والنهج العقلائي في أساليبها.

ومن هذه المقدمات الثلاث تثبت ثلاث حقائق:

الأولى: أن نظام العقوبات من القضايا التي تشترك فيه جميع الشرائع أرضية أو سماوية، ولولاه ينتفي الأمن والنظام.

الثانية: أن نظام العقوبات يتعلق بالنظام العام وهو مقدم على الحرية الشخصية عند التعارض.

الثالثة: أن معاقبة المتخلفين عن التزاماتهم ليس من الظلم، بل من العدل.

إذا اتضحت هذه القواعد يتضح وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1] وبين منع الارتداد ومعاقبته، فإن الآية ناظرة إلى حرية الشخص قبل الدخول في الإسلام، فإنه حر في التزامه إن شاء دخل الإسلام وإن شاء بقي على الكفر أو دخل في دين آخر إذ تبين الرشد من الغي وتمت عليه الحجة فلا يجوز إكراهه أو إجباره على الدخول في الإسلام، ولكن إذا اختار الإسلام وصار مسلماً لا يجوز له الخروج منه بعد ذلك؛ لقاعدة من التزم بشيء التزم بلوازمه؛ إذ إن الإسلام لا يجبر أحداً على قبوله، ولكن يمنع الداخلين فيه من الخروج منه، كما هو الحال في سائر الالتزامات.

فإن قال قائل: إن هذا صحيح ومطابق للعقل إلّا أن الإسلام يحكم على الخارج منه بحكم قاس وهو القتل ففيه جوابان نقضي وحلي.

أما الجواب النقضي فإن هذا لا يختص بالإسلام بل تطبقه حتى القوانين التي تعتبر متطورة في العالم، فإنها تمنع وتعاقب بالعقوبات المشددة من

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

يخالف أسسها وأصولها العامة. مثلا: تعد الدعوة إلى النازية أو تأسيس منظمة أو جماعة تحمل أفكارها جريمة في الكثير من دول العالم المتطور، ويعاقب عليها القانون بعقوبات صارمة، بل لا يسمحون حتى رفع شعارها، وذات مرة أظهر أحد الرياضيين حركة في اللعب تلقيت منه أنها نازية أو تشير إلى شعارها عاقبوه عليها، وربما بلغت العقوبة إلى أعلى القساوة، وأيضاً الجماعات التي تدعو إلى الفصل العنصري، ومثلها الأفكار والفعاليات التي تشاركها في ذلك، والشواهد كثيرة جداً، فلماذا لا يعترض على ذلك ويقال بأنها أحكام قاسية وتحارب الإنسان والحرية الفكرية، والجواب الذي يذكر لتبرير ذلك يمكن أن يكون مثله في الشرع.

وأما الجواب الحلي ففيه وجوه:

الوجه الأول: لا نسلّم بأن الإسلام يحكم على المرتد بالقتل مطلقاً، أولاً لأنه يفرق بين المرتد الملي والمرتد الفطري، والمراد من الأول الذي لم يولد من أبوين مسلمين فيسلم ثم يخرج من الإسلام فإن هذا ليس حكمه القتل بل يستتاب.

والمراد من الثاني الذي ولد من أبوين مسلمين وقد اختلف الفقهاء في حكمه ولم يتفقوا على أنه يقتل؛ إذ هناك جمع من الفقهاء أفتوا بعدم القتل، بل هو الآخر يستتاب لوجود نصوص عديدة معتبرة يستفاد منها الاستتابة، ويعزز ذلك سيرة المعصومين عليهم السلام؛ إذ لم يرد ما يدل على أن النبي والأئمة عليهم السلام قتلوا مرتداً مع وقوع الارتداد في أزمنتهم وقدرتهم على القتل

نظير ابن الكوا وابن أبي العوجاء وغيرهما وهم كثر[(١)]، وهذه السيرة تكون قرينة على حمل الروايات الظاهرة أو الصريحة في القتل على التخويف والتحذير لا التطبيق وبيان شدة العقوبة.

وعليه فإن الحكم هو استتابة المرتد لا قتله، ومعنى استتابته محاورته لأجل حمله على الرجوع بالقناعة والاختيار بعد إزالة اللوابس والشبهات، فإن الإسلام دين العقل والفطرة والمنطق فلا يخرج منه إلّا من وقع في شبهة ألبست عليه الأمور، وبالحوار والاستتابة يمكن إزالتها، وهذا النهج هو الذي اتّبعه النبي والائمة عليهم السلام؛ إذ كانوا يواجهون المرتدين بأسلوبين:

أحدهما: المحاورة الفكرية الهادئة التي تستند إلى المنطق والدليل، وقد جمعت بعض المصادر جملة من هذه المحاورات الشاهدة على هذا نظير كتاب الاحتجاج للطبرسي واحتجاجات البحار ونحوهما.

ثانيهما: التحذير الاجتماعي؛ لأن في الارتداد خطورة فكرية وعقدية قد تسري إلى المجتمع وتهدد أمنه الفكري والاجتماعي والديني، فنلاحظ أن الشرع في هذا الأسلوب أرق تعاملاً من القوانين الحديثة في مكافحة النازية وأمثالها؛ لأنه لم يعاقب وإنّما يهدد فقط ويحاور، ولا يسجن أو يعاقب.

هذا ما عليه بعض الفقهاء، وحتى القائلون منهم بقتل المرتد فإنهم ضيقوا من دائرة الحكم بحيث يمتنع تطبيقه؛ إذ نفوا القتل في موارد ثلاثة:

الأول: وجود شبهة سببت الارتداد كالذي يخرج من الدين وهو مؤمن به ولكنه انصدم نفسياً من بعض المتدينين فتوهم أن خطأ المتدين ناشئ من

---

(١) انظر الفقه (الحدود والتعزيرات): ج٨٨، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

خطأ الدين مع أنه لا علاقة لهذا بهذا، وإلّا لعمم هذا الحكم لكل الموارد المشابهة ولم يستقر أمن ولا نظام، فهل يمكن للشخص أن يرتد على الطب لأن بعض الأطباء يسيئون المعاملة؟ أو يرتد على التعليم لأن بعض المعلمين يسيئون؟ وكذا القضاء؟ أو يرتد على أصحاب الزي المدني لأن أكثر الفساد السياسي والمالي في العالم ناشئ من الحكام والمعنيين بالسلطة وأكثرهم مدنيون؟ وقد وقع البعض بهذه الشبهة حينما رأى من بعض المتدينين فساداً أو ظلماً فحسب ذلك على أصل الدين، وهذا خطأ؛ لأنه ظلم مضاعف للدين. الظلم الأول أوقعه ذلك المتدين الذي ينتسب للدين ولا يعمل بأحكامه، والظلم الثاني هو ما ينسبه هذا المنصدم من أخطاء المتدين إلى الدين وهو ليس من الدين، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿الحق لا يعرف بالرجال. أعرف الحق تعرف أهله﴾[(١)].

ولعل من الغرابة بمكان أنّ المنصدمين ينظرون إلى الجانب السلبي في المتدينين ولا ينظرون إلى الكثير من المتدينين الصادقين الملتزمين بأحكام دينهم وقد أنجزوا الكثير من الإنجازات لصالح الناس كما هو معروف من تأريخ العلماء والصالحين فضلاً عن الأنبياء و الأولياء.

وكيف كان، فإنه لو ارتد البعض لمثل هذه الشبهة فإنه لا يقتل ولا يقام عليه الحد؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات[(٢)] وخصوصاً في مثل هذه الأزمنة، فإن الحدود الشرعية لا تقام إلّا ما شذ وندر؛ لكثرة الشبهات الواقعة في المجتمع.

---

(١) روضة الواعظين: ص٣١؛ كتاب الأربعين: ص١٩٥.

(٢) الخلاف: ج٥، ص٣٦؛ المبسوط: ج٧، ص٩٨؛ السرائر: ج٢، ص١٤٨.

والشبهة لا تختص بالمرتد، بل حتى لو وقعت عند القاضي أو الفقيه في تحديد مفهوم الارتداد فإن الحد لا يقام، وتفصيل البحث فيها في الفقه.

والخلاصة: في موارد حصول الشبهة ووقوع الارتداد لا يقتل أحد من المرتدين.

الثاني: إذا حصلت شبهة عامة انتشرت في أوساط الناس وارتد بسببها البعض فإنه لا يقتل المرتد.

الثالث: العفو، فإن قتل المرتد - بناء على أن حكمه القتل - من الاحكام التي تتعلق بحقوق الله سبحانه، وحقوق الله أمرها بيد الإمام عليه السلام أو الحاكم الشرعي، ولهما أن يعفوا عن القتل إذا اقتضت المصلحة في ذلك، وفي سيرة المعصومين عليهم السلام كان العفو هو النهج العام، فلم يقتلوا مرتداً وخارجاً عن الدين مع القدرة عليه.

ونلاحظ أن هذه الموارد الثلاثة لا يخلو منها مرتد، وكان الشرع يريد أن يبيّن خطورة الارتداد وشدة تأثيره على المجتمع، ولا يريد أن يقتل المرتد بل يستتيبه، واستتابته تعني هدايته وإرشاده إلى الحق بالحوار والمباحثة.

الوجه الثاني: أنّه - وعلى فرض التسليم بأن المرتد يقتل - فإن العقل السليم يرى أن القتل هو العقاب المناسب للارتداد لسببين:

السبب الأول: لأنّ الارتداد يهدد وجود الدين والمجتمع المتدين، والقوانين والتشريعات تعاقب المخالفة المهددة للوجود بأشد العقوبات التي توجب القتل سواء تهدد أصل الوجود، أو تهدد قوة الوجود، ويعبّر عن بعضها بالمخالفات المهددة للأمن القومي، وبعضها الآخر بما يخل

بأمن الدولة أو المجتمع، ولذا تمنع القوانين العالمية من نشر الأفكار التي تحرض على العنف والكراهية في المجتمع، وتعاقب من يدعو إليها، وتمنع التجمعات والأحزاب من ممارسة أي فاعلية سياسية أو اجتماعية في ذلك، وتحاكم أصحابها، وربما أعدمتهم، وتعلل ذلك بأنها تهدد الأمن الوطني أو القومي.

فالمخالفات ليست على وتيرة واحدة، ولا عقوباتها كذلك، فإذا بلغت المخالفة إلى درجة تهدد أصل وجود الدولة أو قوتها وهيبتها فينزل بحقها أشد العقوبات، ولا يلحظ فيها جانب الحرية الشخصية.

ولذا نلاحظ أن الأفراد الذين يرتبطون بالدول المعادية ويعملون لأجلها يحاكمون على أنهم خونة، وفي كثير من الأحيان يصدر بحقهم حكم الإعدام؛ لأن التعاون مع العدو ضد الوطن أو مصالحه يعتبر من الخيانة التي لا تغتفر.

والارتداد عن الدين لا يخلو من هذه العناوين الثلاثة؛ بداهة أنّ الدين يكافح الكفر ويهدي الناس إلى الحق، فلا ينبغي أن يسمح بالمخالفة التي تهدد وجوده، أو تهدد قوته المعنوية، أو يسمح بما يوجب قوة أعدائه.

فإذا كان مجرد العمل مع العدو أو نقل بعض أسرار ما يتعلق بالبلد في الأمور السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية يعتبر خيانة عظمى أو مخالفة تهدد الأمن القومي أو الوطني يستحق فاعلها الإعدام فإن ارتكاب مثلها في المعنويات إن لم تكن أشد مخالفة فانها لا تقل عنها.

بل إن ترك الخروج من الدين بلا عقوبة رادعة يجعل الباب مفتوحاً لكل من أراد الخروج أن يخرج منه متى شاء أو متى ما اقتضت مصلحته ذلك، ويدخل إلى الدين متى شاء أو متى ما اقتضت مصلحته ذلك، فإن ذلك يصيّر الدين ألعوبة، ولا تبقى له عزة ولا قدسية ولا جلالة، وهذا من شأنه أن يمحي الدين وينقض أغراضه.

وهذه قضية هي الأخرى ليست من مختصات الدين، بل تنطبق في كل القوانين والأنظمة والمبادئ العالمية، فإنها تردع عن كل ما يسبب انهيار المنظومة القانونية وينقض أغراضها؛ لأنها لا ترى سعة في حرية الأفراد بحيث تتيح لهم أن يصيِّروا القوانين والأنظمة ألعوبة، وتنزل بها أشد العقوبات.

السبب الثاني: أن الارتداد - بحكم العقل والمنطق العلمي - هو قتل للنفس، وقتل النفس أخطر وأعظم من قتل البدن؛ لأن قتل النفس معنوي وقتل البدن مادي.

وتوضيح ذلك: أن القتل على قسمين:

الأول: قتل البدن ويتحقق بالموت.

والثاني: قتل النفس بإماتتها، وموت النفس يتحقق بقتل القيم العالية فيها، وهذا أمر يتفق عليه العقلاء وتقره القواعد العلمية؛ لذا يعبِّرون عن الأفكار والأشخاص والمدارس والمجتمعات الخالية من الأخلاق والقيم المعنوية بأنها ميتة، فبالقيم الحقة تحيا النفوس، وبالقيم الباطلة الفاسدة تموت، والدين هو أصل القيم المعنوية العالية، ويدعو

لإحيائها ونشرها، ويكافح الكفر لأنه موت للنفوس، فلابد بهذا الاعتبار أن يكون الخروج من الدين خروجاً من الحياة إلى الموت، ومن النور إلى الظلمة، وهو قتل معنوي؛ لذا لابد وأن يحد منه بأشد العقوبات الرادعة؛ بداهة أن المجتمعات البشرية والدول والحضارات تقوم على حياة النفوس والأرواح لا الأبدان.

فمثل الارتداد ونشر الفكر الارتدادي في المعنويات مثل من يشرب السم القاتل أو ينشره، وكذا المخدرات في الماديات، فكما أن العقل والعقلاء يقضيان بلزوم ردع ما يهدد الحياة المادية للبشر فإنهما يقضيان بلزوم ردع ما يهدد الحياة المعنوية للبشر بالأولوية القطعية.

فإن قال قائل: إن المرتد لا يعتبر الارتداد قتلاً للنفس وإنما حرية شخصية؟

فالجواب: أن القوانين والأنظمة لا تراعي الآراء الشخصية وقناعات الأفراد لا في تشريعاتها ولا في عقوباتها، وإنما تراعي المصالح النوعية؛ لذا تعاقب السارق وإن تصور أن السرقة صحيحة، أو أن من يسرق منه يستحق، كما تعاقب من يخل بالأمن العام وإن لم يعلم بذلك، أو تصور بأنه ينفع الأمن، فالعلم والجهل والقناعات الشخصية لا تبرر ارتكاب المخالفات ولا ترفع العقوبات. نعم ربما تكون عقوبة الجاهل أخف من العالم العامد إلّا أن الجهل لا ينفي وجود العقوبة.

والحرية الشخصية لا تشفع لمدعيها إذا ارتكب ما يخل بالمصالح العامة، بل العقل والعقلاء لا يجدان مجالاً للحرية الشخصية إذا أضرت بالصالح العام.

فيتلخص: أن حكم الشرع بقتل المرتد - على قول من يرى القتل - ليس بحكم قاس ولا خارج على المبادئ الانسانية، بل موافق لها؛ لأن الارتداد في نفسه عدوان على النفوس يهددها بالقتل، كما يهدد وجود الدين والمجتمع المتدين، أو يهدد قوته وعزته وجلالته، وكل واحدة من هذه العناوين تكفي لتصحيح إنزال أشد العقوبات به.

الوجه الثالث: أن الحكم بقتل المرتد لم ينشا من تضييق الحرية الشخصية، بل هو بحكم العقل والشرع مرض خطير ينبغي اجتثاثه، والقوانين العقلائية تشرع القتل لكل من يحمل أمراضاً خطيرة ممكن أن ينقل عدواها إلى المجتمع ويمرضه بها إذا لا يتمكنون من معالجتها؛ بداهة أن قتل المريض للحيلولة دون انتشار المرض وإن كان فيه ضرر، ولكن حيث ان القتل يؤدي إلى تلافي الإضرار الأعظم والأخطر بكثير يقدم عليه العقلاء والعقل يراه صحيحاً.

والنتيجة: أن الأمر يدور بين خيارات ثلاثة لا رابع لها:

أحدها: أن نسعى لمعالجة المرض والحد منه.

ثانيها: نحكم بقتل المريض روحياً لأجل حماية المجتمع من مرضه.

ثالثها: أن نتركه ينشر مرضه في المجتمع بما يؤدي إلى قتل المجتمع ويسبب فساداً كبيراً.

والعقل والعقلاء يرجحون الخيار الثاني على الثالث بعد تعذر الأول، وهو عين ما حكم به الشرع في معالجة الارتداد؛ إذ يبدأ أولاً من معالجته بالاستتابة، فإن تعذر ذلك يحكم بقتله من باب الحماية والدفاع عن المجتمع، وقد ذكرنا في المقدمة الثانية ما يوضح هذه الحقيقة.

الجمع بين لا إكراه في الدين وقتل المرتد

إن قلت: ذكرتم أن الحرية محفوظة قبل الدخول في الإسلام فما الفرق بين الكفر قبل الدخول في الإسلام فيكون الإنسان فيه حراً ولا يعاقب الكافر وبين الكفر بعد الإسلام؟

فالجواب: ماعرفت من أن الكفر قبل الدخول في الإسلام لا تترتب عليه التزامات، بخلاف من أسلم فإن بخروجه من الإسلام يكون قد أخل بالتزاماته وخرق القانون العام، وهو بحد ذاته جريمة تستحق العقوبة، نظير من دخل البلد ولم يلتزم بقوانينه.

ونلاحظ من مجموع هذه الأجوبة النقضية والحلية أن حكم الشرع بقتل المرتد ليس قضية عامة؛ لعدم اتفاق الفقهاء عليها، وعلى فرض الاتفاق فإن القواعد العقلية والعقلائية تقضي بصحة قتله، بل لزوم قتله لأجل إبقاء المجتمع الإنساني سليماً عن أمراضه وأخطاره، وإن هذا ليس من مختصات الإسلام، بل هو إجراء عام تتخذه جميع القوانين العالمية لأجل الصالح العام في أوضاع مشابهة.

أربع فئات تنتقد الدين جهلاً

وهنا لا يفوتني أن ألفت النظر إلى حقيقة وهي: أن الذين يثيرون مثل هذه الإشكالات في الغالب لا يخرجون عن أربع فئات:

الفئة الأولى: لم تقرأ الدين ولا أحكامه وإنما قرأت للمخالفين للدين والمعادين له وتأثرت بما يقولون، وأخذت هي الأخرى تروّج لثقافته، وهذا من أسوأ الأمراض الثقافية التي يقع فيها البعض أن يكون مردداً لما يقوله الاخرون دون علم ومعرفة، فعلى الواقعين بمثل هذه الفتنة أن يراجعوا أفكارهم ويحضروا عند العلماء الربانيين ليتعلموا الدين وفلسفته وأحكامه ليعرفوا الحق من الباطل.

والفئة الثانية: قرأت الدين قراءة ناقصة ولم تقرأه كله حتى تعرف فلسفته وحكمته في تشريع الأحكام، وهذا قد يكون أسوأ من الأول، وقد عرف القول أن القراءة الناقصة للشيء أسوأ من الجهل به؛ لأن الجاهل يمكن أن يتعلم ولكن الذي يدعي العلم أو نصف العلم يصعب تعليمه.

والفئة الثالثة : تحمل أهدافاً سياسية تريد الوصول إليها، وتجد في الدين ما يحول دون ذلك، فتسعى لتهديمه في القلوب والعقول لكي تصل إلى أهدافها.

والفئة الرابعة: المصدومون نفسياً من التصرفات الخاطئة لبعض المتدينين أو المحسوبين على الدين، فما عليهم إلّا أن ينتبهوا إلى أمور ثلاثة:

أحدها: أن الدين لا يعرف بالرجال بل الرجال يجب أن تعرف بالدين، فالذي لا يطابق عمله أحكام الدين يحكم عليه بالخلاف، وإن الدين بريء منه.

ثانيها: أن الدين يعرف من منابعه الأصلية التي جسدتها سيرة المعصومين عليهم السلام، وأما غير المعصومين فبمقدار ما يأخذون من المنابع الأصلية ويقاربون المعصومين عليهم السلام في سلوكهم ومواقفهم يعكسون جانباً من الدين، وإلّا ينبغي تنزيه الدين من أعمالهم.

ثالثها: أن العقل والإنصاف يقضيان بلزوم ملاحظة التجارب الإيجايبة لكي تتعادل النظرة، وفي الغالب الذين يعكسون الجانب الإيجابي من الدين هم أكثر وبكثير من السلبيين الذين يشوهون الدين، وهذا التأريخ حافل بالمئات بل الالاف من الرجالات والمواقف التي تشرف الإنسانية من العلماء الربانيين والمؤمنين الصالحين، فعلى المنصف أن يتخذها معياراً وقدوة له، ولا ينظر إلى بعض الأشخاص السلبيين، فإن الاشخاص يمثلون أنفسهم ولا يمثلون الدين.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ
تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ

يس/ ١٨

هذه الآية حكت جواب القوم للأنبياء بعد أن دعوهم إلى الإيمان وردوا على تكذيبهم بقولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ۝وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1] ولحن الجواب يكشف عن أمرين:

أحدهما: أنهم عاجزون عن محاورة حجج الأنبياء وأدلتهم.

ثانيهما: أنهم احتكموا إلى أمزجتهم بدلاً من عقولهم، فلم يستجيبوا لنداء العقل والفطرة اللذين يدعوانهم إلى الإيمان بما يقوله الأنبياء أولا أقل النظر فيما يقولون، وإنما جعلوا الانفعالات النفسية والعصبية وسيلة المقابلة فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ثم طلبوا منهم أن يكفوا عن التعليم والتذكير وإلّا عرّضوا أنفسهم للرجم والعذاب الأليم.

هذا ما يستفاد من منطوق الآية، وأما ما يستفاد منها بالعبارة والإشارة ففيها مباحث:

---

(١) سورة يس: الآيتان ١٦-١٧.

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة وعمدتها ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿تَطَيَّرْنَا﴾

والقائل هم القوم الذين حاورهم الرسل، وفي التطيّر ترد ثلاثة أسئلة هي: ما المراد بالتطيّر؟

ومن قال للأنبياء ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ولماذا؟

والجواب: أنّ التطيّر من الطيرة وهي بكسر الطاء وفتح الياء أو تسكينها مأخوذة من الطير؛ لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير، وعندهم بعض الطيور يتفاءلون بها إذا شاهدوها كالحمام، وبعضها يتشاءمون منها كالغراب(1)، وكانوا إذا أراد أحدهم أن يعمل شيئاً يأتي إلى طير فيزجره أو يطلقه فيرى إلى أين طار، فإن طار إلى اليمين تفاءل وأمضى ما ينوي عمله، وإن طار إلى اليسار تشاءم وأمسك.

وفي المعجم قال: التطيّر من الطيرة بفتح الطاء وهو الغضب، سمّي بذلك لان الإنسان يستطير بالغضب فتكون له خفة وسرعة في الإقدام،

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٢٨؛ بصائر ذوي التمييز: ص٥٣٣؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٣٨٣، (طير).

وبهذا يشبه الطير في حركته وسرعته[١]، وهذا المعنى يرجع إلى الأول؛ لأنّ سبب الغضب التشاؤم وهو الأنسب بمضمون الآية.

وكيف كان فإن هذه العادة كانت ولا زالت في بعض المجتمعات، ولكل مجتمع أشياء يتطيرون بها وقد ردع عنها الشرع، ويقضي العقل ببطلانها؛ لأنّها لا تقوم على دليل أو منطق صحيح، بل لها آثار سلبية على حياة الناس؛ لأنّها:

أولاً: تلغي عقل الإنسان وفكره وتدبيره، وترهن مصيره بالمقادير والصدف.

ثانياً: أنها توجب سوء الظن بالناس وتفرّقهم وتفكك أواصر المحبة والتعاون اجتماعياً وشخصياً، بل توجب اتهامهم وربما تجريمهم دون ذنب منهم.

ثالثاً: أنها تغلق باب الثقة بالنفس والتفاؤل وحسن الظن بالله والتوكل عليه في الأمور معنوياً، ولذا منع النبي والأئمة عليهم السلام من الطيرة، وعدوها نوعاً من الشرك، وقد ورد في الحديث الشريف: ﴿الطيرة شرك﴾[٢] وإطلاقه يشمل الشرك العقيدي لو بنى المتطير على أنّ للطيرة أو ما يتطير به تمام الأثر أو جزء الأثر في الأحداث والوقائع، وبهذا يكون قد أشرك بالله في التأثير، والشرك العملي لو جعل للطيرة التأثير في عمله أو قراره وموقفه، ففي النبوي الشريف: ﴿من خرج يريد سفراً فرجع من طير فقد كفر بما أنزل على

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٣، ص٤٣٦، (طير).

(٢) البحار: ج٥٥، ص٣٢٢، ح١٠؛ مسند أحمد: ج١، ص٣٨٩؛ سنن ابن ماجة: ج٢، ص١١٧٠.

محمد صلى الله عليه وآله ﴾[١] لأنّ ما أنزل يدعو الناس إلى الثقة وحسن الظن بالله والتوكل عليه والدعاء في السفر لا التشاؤم منه بسبب تطير ونحوه.

ويستفاد من الآية أن الذين تطيروا كانوا كبار القوم وزعماءهم وأصحاب القرار منهم لقرينتين:

الأولى: حالية؛ لأن التطير يكون بتوقع الشر ونزول الضرر، والذين يتوقعون الضرر من الأنبياء والإيمان ليسوا إلّا هم.

الثانية: مقالية؛ لأن التهديد بالرجم والتعذيب لا يقدر عليه إلّا الكبار وأصحاب السلطة والقرار، فالذي يتوقع حصول الضرر من الإيمان والاستجابة لنداء الأنبياء وبالرغم من إقامة الحجة على صدقهم ليسوا إلّا أصحاب السلطة، وأما عموم الناس فالأصل فيهم وبمقتضى الطبع الإنساني هو حب الخير والاستجابة لنداء الحق، وعقولهم وفطرهم توجبان عليهم الإذعان للآيات والحجج التي يقيمها الأنبياء، ولا مصلحة لهم إلّا في الإيمان، وهذا هو أصل عام في كل مجتمع وأمة في كل زمان ومكان، فإن الأخيار أكثر من الأشرار، والعقلاء أكثر من المعاندين، والمسالمين أكثر من المحاربين لكنهم لا يملكون القدرة، والذين يملكون القدرة والسلطة والقرار هم الأقلية، ولكن حيث يستولي عليهم الأنا وحب الدنيا يتفردون بالأمور، ويكابرون على الحقائق، ويضادون الأنبياء والمصلحين؛ لأنهم يتوهمون أن الاستجابة لنداء الحق يضر بمصالحهم؛ لذا يقفون وراء الصراعات والحروب والظلم والفساد.

---

(١) كنز العمال: ج١٠، ص١١٤، ح ٢٨٥٧٠.

والسؤال لماذا تطيروا من الأنبياء وتشاءموا منهم بالرغم من أنّهم لم يطلبوا سلطة ولم يفعلوا شيئاً يستوجب ذلك؟

والجواب لعدة أسباب:

السبب الأول: تصورّوا أنهم إذا أذعنوا للأنبياء والحجج التي أقاموها وصدقوهم فيما يقولون فإنّهم سيفقدون سلطانهم وعزتهم وقدرتهم فتوسموا الشر والشؤم، ولذا طالبوهم أن يكفوا عن البيان وهداية الناس وإلّا عاقبوهم بأشد العقوبات وهي الرجم والعذاب الأليم.

السبب الثاني: لما عرفت من أنّهم كانوا يقبحون الكذب ويرونه مما يوجب خراب الديار، فلما لاحظوا أن الأنبياء قسموا على دعواهم وفي عين الحال يتهمونهم بالكذب تصوروا أنهم قسموا كذباً على أمر يوجب خراب ديارهم وفقدان حياتهم فضلاً عن سلطانهم.

السبب الثالث: ما ذكره بعض المفسرين من أنّهم لما قدموا إلى بلادهم انقطع عنهم المطر، وابتلوا بالبلايا والشرور، وأسرع فيهم الجذام[1]، وعنادهم جعل على عقولهم وقلوبهم غشاوة، فبدلاً من أن يفسروا هذه البلايا بسبب ذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم للأنبياء كآثار وضعية لها بعد أن تمت عليهم حجة الأنبياء ألقوها على عاتق الأنبياء، وهذه طبيعة الحكام الظلمة وأتباعهم أنهم ينزهون أنفسهم عن الأخطاء والهفوات ويلقونها على الغير.

---

(١) انظر نفحات الرحمن : ج٥، ص٢٦٠؛ روح المعاني: ج٢٢، ص٥٤١ تفسير الآية المزبورة.

السبب الرابع: أنهم أوجسوا خيفة من المجتمع؛ لأنّ عقلاء الناس والمنصفين فيهم وهم الأكثر حيث يلاحظون الآيات والبينات يؤمنون ويصدقون الأنبياء، والذين يتبعون الحاكم والسلطان وأصحاب المصالح يخالفون، وهذا من شأنه أن يوقع الفتنة والاختلاف في المجتمع، وكل فتنة داخلية أو انقسام مجتمعي إذا لا يطوق بالضوابط وقواعد الحوار والتسامح والعدل يهدد الدولة بالضعف أو السقوط، كما يهدد الأمن العام بالخطر، ومثله يوجب التشاؤم، وأكثر المتشائمين هم الزعماء؛ لأنّ مصيرهم يكون على حافة الهاوية.

وفي تفسير القمي أنّهم تطيّروا بأسماء الأنبياء[1]، ويمكن جمعه بالأسباب الأربعة المتقدمة؛ لوضوح أنّ الاسم وحده لا يكون سبباً للشؤم، فالمراد ما يلازم الاسم وهو أشخاص الأنبياء أو الآثار المترتبة على دعوى الناس للإيمان.

كما لا تنافي بين الأسباب الأربعة، فالقول بها جميعاً بلا مانع.

المفردة الثانية: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾

اللام للتأكيد واشتد بالنون الثقيلة، والضمير (كم) يعود على الرسل، والرجم الرمي وهو في الماديات يتم بالحجارة، ومنه رمي الجمرات في الحج، ورمي الزاني المحصن، وفي المعنويات يتم في القول الفاحش ونحوه، ومنه الرجم بالغيب أي التكلم بغير علم.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٤؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٤٨.

المفردة الثالثة: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾

اللام للتأكيد، وهو اللمس باليد ونحوها، ومعناه في الماديات ظاهر ومنه مس السوط، ومنه قوله تعالى: **﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾**[(١)] أي يقاربني بنكاح، ويطلق في المعنويات أيضاً فيقال مسه جنون ومسته البأساء والضرّاء، ومنه قوله تعالى: **﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾**[(٢)] أي لا يلامسوا معانيه وحقائقه إلاّ أهل الطهارة وهم محمد وآل محمد عليهم السلام والضمير(كم) والنون المثقلة يفيدان التأكيد وفي اجتماع التأكيدين دلالة على أنّهم أتخذوا القرار الجازم بتعذيبهم أشد العذاب لكنهم بدأوا بالتهديد بالرجم والتعذيب فإن منطوق الآية صريح في أنه أشبه بالحكم المعلق الذي تصدره المحكمة؛ إذ قالوا: **﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[(٣)] و(لئن) شرطية واللام لإفادة التراخي في التنفيذ، ولو وردت (إن) لإفادة الفورية لتعيّن أن يقدموا الأنبياء للرجم والتعذيب، لكن الظاهر أنهم لم يريدوا فورية التنفيذ، والسبب قد يعود لأمور:

أحدها: أنهم في وجدانهم كانوا يعلمون بصدق الأنبياء وصحة ما يقولون وعلو نفوسهم وكمالاتهم الروحية، إلّا أنّ المصالح كانت تمنعهم من إعلان ذلك، وشأن النزول وإيمان ملك أنطاكية شاهد على ذلك، كما أنّ

---

(١) سورة مريم: الآية٢٠.

(٢) سورة الواقعة: الآية٧٩.

(٣) سورة يس: الآية١٨.

كبار قريش ومكة أيضاً كانوا كذلك، ولذا استخدموا أسلوب التهديد علهم يكفون عن الدعوة وهم يستريحون.

ثانيها: أنّهم لو كانوا يريدون التنفيذ لوجدوا سبيلاً أسهل وهو الإخراج والتهجير من المدينة، لكنهم شددوا لهجة التهديد ولم يأخذوا بالتنفيذ الأسهل مع أن العادة تقضي بإخراج من ليس من أهل البلد إذا توجسوا منه خيفة فإنّه أسهل، وربما يجاب عن ذلك بأنّ التهجير هنا لم ينفعهم، بخلاف الرجم فإنه يؤدي إلى قتل الأنبياء فيضمنوا مصالحهم، بخلاف التهجير فإنه لا يمنع من أن يعودوا إلى الدعوى بعد أن تقوى شوكتهم، وهذا يصح لو حملنا الرجم على القتل البدني كما ستعرف.

ثالثها: لأنهم لم يقدروا على تنفيذ الرجم والتعذيب؛ لأنّ العادة قاضية بانقسام المجتمع تجاه الأنبياء إلى مصدقين ومكذبين، فالذين يصدقونهم يلتفون حولهم ويكونون أتباعاً لهم بما يزيدهم قوة اجتماعية يصعب معها قتلهم أو سجنهم وتعذيبهم؛ لما في ذلك من تأليب العامة عليهم، فإنّ القتل والسجن للمخالفين بالرأي إذا تدرعوا بالكلمة الحقة والمنطق السليم واتبعوا أسلوب الحوار واللاعنف لا تفعله إلّا السلطات الطاغية التي تفتقر إلى الحكمة وحسن التدبير، ولذا غالباً ما نجد أنّ عنف الأسلوب من قبل الحكومات والسجون والمعتقلات فضلاً عن القتل لا تنتهي يوماً إلى سلام، بل تزيد الشرخ الاجتماعي، وينمو فيها الحس بالظلم، وتستمر المطالبة بإزالته حتى ينتهي بسقوط الحاكم وحكومته.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: ثلاث عقوبات يستعملها الجبابرة

المستفاد من قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾[(١)] تهديدهم في أنّهم إذا لم يكفّوا عن إرشاد الناس وتعليمهم ودعوتهم إلى الإيمان والتخلص من الكفر ومساوئه فإنهم سيواجهون ثلاث عقوبات:

الأولى: العزلة الاجتماعية، وعبّروا عنها بالتطيّر والتشاؤم، وهو أسلوب يستعمله الظالمون لتشويه سمعة مخالفيهم؛ بداهة أنّ أصحاب السلطة لا يفقدون الاتباع والمناصرين فينقادوا لسياستهم ويرتبوا عليها الأثر، لكن هذا الأسلوب فاشل مع أصحاب الحق؛ لأنّهم يملكون منطقاً سليماً وأسلوباً مرناً مقترناً بالحجة والدليل.

الثانية: الرجم وهو القتل، بل أشد أنواع القتل وأقساه، ولا يعاقب به إلّا الخطرون، وتهديد القوم به يكشف عن أنهم استشعروا من الأنبياء شدة الخطر، وهو على نوعين:

الأول: الرجم بالحجارة.

---

(١) سورة يس: الآية ١٨.

والثاني: الرجم بالسب والشتم والكلمات النابية[١].

وكلاهما يشتركان في الاثر سوى أنّ الأول يقتل الشخص والثاني يقتل الشخصية، وعند أهل المعرفة والمكانة الثاني أشد وأقسى من الأول؛ لذا اتبعه أكثر الكفار في مواجهة الأنبياء واتهموهم بالكذب والسحر والجنون وغيرها لاسقاط مكانتهم في النفوس، فإن قوة الأنبياء بقدسيتهم وملكاتهم العالية وحقانية دعواتهم، فإذا أسقطت تعذر انتشار الدعوة، وأما القتل البدني فلا ينفي مكانة الأنبياء في قلوب الناس، بل يزيدها قوة وثباتاً، ولذا قال بعض أهل التفسير: إنّ الرجم في القرآن كله ورد بمعنى الشتم[٢] لأنه أبلغ أثراً.

الثالثة: العذاب؛ إذ قالوا ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] والمراد به التعذيب، وهو إيلام الحي، وقد ورد بصيغة مؤكدة باللام ونون التوكيد وضمير الجمع، ووصف العذاب بالأليم يكشف عن تعيينهم لنوع العذاب الذي يريدون أن يعذِّبوا به الأنبياء، وأنّه من أشد أنواعه، وهو متعارف لدى الظلمة أنهم يتبعون وسائل خاصة لتعذيب المخالفين، والأليم صيغة فعيل تدل على المبالغة، وتتضمن معنى الفاعل، فالوصف يعود للعذاب، والمعنى أنه عذاب مؤلم، بل شديد الألم، والمس يقال في كل ما ينال الإنسان

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٤.

(٢) روح المعاني: ج٢٢، ص٥٤١.

(٣) سورة يس: الآية ١٨.

من أذى جسدي أو روحي[١]، ولذا يقال للجنون أنه مس، ويقال من مس الميت وجب عليه الغسل مع أنّ الحدث معنوي، كما يقال مسه الجوع والعطش، فالمس يشمل الروح والجسم.

وعلى هذا يشمل التهديد ثلاثة أنواع من العذاب هي:

العذاب الجسدي والروحي والاجتماعي وفي أشد مراتبه، ونلاحظ أن الآية قدمت الرجم على التعذيب، فبناء على أن المراد من الرجم القتل لا الشتم يرد سؤال عن سبب تقديم الرجم على التعذيب مع أن العادة تقضي بأشدية القتل من التعذيب، والجواب لسببين:

السبب الأول: عدم التسليم بأن الرجم أشد من التعذيب، بل في بعض الموارد وبسبب شدة الظلم يكون الموت أهون على المظلوم من التعذيب؛ لأنه بالتعذيب يموت مرات عديدة، وشواهد التأريخ تؤكد هذه الحقيقة[٢].

السبب الثاني: أن بالتعذيب يتشفى المجرمون والطغاة أكثر من القتل؛ لأنه يشعرهم بنشوة القدرة والسلطان، وفي عين الحال يبقي لهم الأمل في تنازل خصمهم وتراجعه عن موقفه الحقاني والخضوع إليهم.

هذا وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من العذاب الحريق، وقال آخر بأن المراد من الرجم العذاب الجسماني، وبالعذاب الأليم العذاب الروحاني، وكلاهما مناف للظهور[٣].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٦٧، (مس)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص١٠٧، (مس).

(٢) انظر الخلفاء والملوك: ج٢، ص٤٦٣ ومابعدها.

(٣) روح المعاني: ج٢، ص٥٤١.

اللطيفة الثانية: لماذا لم يسجنوا الرسل؟

ربما يسأل سائل لماذا لم يسجنوهم أو يهددوهم بالسجن؟ وفيه جوابان:

الجواب الأول: لأن السجن لا يحقق غاية الكفار؛ لأنهم أرادوا اجتثاث الأنبياء وسكوتهم عن الدعوة إلى الله سبحانه، وهذه الغاية لا تتحقق بالسجن، بل في كثير من الأحيان يكون السجن منطلقاً للتغيير والتأثير في الناس؛ لما يمتلكونه من قوة في الحجة والبيان.

الجواب الثاني: أن كمالات الأنبياء الروحية وهدفهم تعطيهم طاقة عالية على الصمود والصبر، وصبر المظلومين يعذب الطغاة والظالمين، ويشعرهم بالهزيمة، وهذا ما لا يطيقونه؛ لذا وجدوا أن ما يريدونه لا يتحقق بالسجن، بل بالرجم والتعذيب.

والتأريخ البشري يشهد بأن سجون الرأي وحبس المظلومين وأصحاب الحقوق لم يجد نفعاً، بل يكرس قوة الحق ورسوخ مطاليبه.

اللطيفة الثالثة: يستفاد من منطوق الآية المباركة أنها تفضح أساليب الطغاة والظالمين، وتكشف عن عجزهم وضعفهم في مقابل دعوات الأنبياء وحقانية ما يدعون إليه، ولو كانوا يواجهون ذلك بالمرونة والحكمة والمنطق ومراعاة الحق والإنصاف لاهتدوا إلى الحق، وضمنوا مصالحهم أكثر، لكن طغيان السلطة وهوى النفس وإغراء إبليس يعمي قلوبهم فيجعلهم يقابلون النور بالظلمة، والحق بالباطل، والرحمة بالقسوة والعذاب.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

تستفاد من دلالة الإشارة في الآية تعاليم عديدة تهمنا في حياتنا الخاصة والعامة:

التعليم الأول: ما يجب توفره في النهضات الإصلاحية

يستفاد من الآية المباركة أنّ أهل الحق وكل من يتطلع إلى نهضة إصلاحية يجب أن يتحلى بوضوح الرؤية وثبات الموقف ومرونة الأسلوب والنزاهة، وفوق كل ذلك الصبر والصمود؛ لأنّ الطريق غير معَّبد بالورود، ولا يلاقون أهله صدوراً رحبة تصدق ما يقولون، أو يستجيبون لهم دون عناء وعذاب وتحديات؛ لذا يكذبونهم أو يتطيرون بهم ويتشاءمون منهم أو يرجمونهم ويعذبونهم كما فعلوا بالأنبياء والمصلحين في كل زمان ومكان، والعاقبة للصابرين.

لذا أمر الباري عزّ وجل مصطفاه الذي ما أوذي نبي بمثل ما أوذي بالصبر، وقال له: ﴿**فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾[1] أي أنّ الصبر نهج عام للأنبياء ومن يقتدي ويتعلم منهم، فغير الصابر لا يصل إلى نتيجة، وهذا التعليم يجري في كل جوانب الحياة حتى طالب العلم ورب الأسرة

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

وربة البيت والموظف والمدير؛ لذا قال أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿بالصبر تدرك الرغائب﴾[1] و: ﴿بالصبر تدرك معالي الأمور﴾[2] أي أصحاب الطموح العالي والطلبات الكبيرة، فإنه فضلاً عن سلوك الأسباب لا يصلون إليها إلاّ بالصبر. أما التعجل والتسرع فيردي أهله.

التعليم الثاني: للزعماء والقادة

فإنّ الآية دلت على أنّ من أكبر الأخطاء التي يقع بها البشر في حياتهم الشخصية أو الاجتماعية - لاسيّما الزعماء والقادة وأصحاب القرار - أن يستندوا إلى أمزجتهم وانفعالاتهم، وكم من انفعال أدى إلى ارتكاب جرائم، فإنّ الانحراف يبدأ من النفس ثم الفكر ثم العمل، وسبب ذلك كله هو الاستسلام لتقلبات الأمزجة والانفعالات النفسية.

والناجحون لا يخاصمون الأفكار قبل معرفتها والنظر إليها بموضوعية وحياد، ثم رفضها أو قبولها، كما أنهم لا يقيسون الأفكار بالرجال، بل يجعلون الأفكار هي المحور ثم المواقف، وصحة الفكر والموقف يعرفونها بالحجة، لكن زعماء أنطاكية - ومن على شاكلتهم - اتبعوا أسلوب التهديد والرجم والتعذيب، وهو الطريق الذي يقودهم إلى الهلكة.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٥.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٨.

التعليم الثالث: للمحاورين

فإن من أهم علائم الخطأ في الحوار هو تحويل الخلاف الفكري إلى شخصي، وكأنّ المحاور يعادي الشخص الذي يحاوره ولم يناقش قوله أو فكره أو موقفه، وهذا من أكبر أسباب استمرار الخصومة وتحول الحوار إلى صِدام، ثم إلى حرب، وهذا ما وقع فيه كفار أنطاكية - ومن على شاكلتهم - إذ قالوا لأنبيائهم الذين جاؤوا ناصحين مصلحين لهم ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] وبضمير المخاطب حولوا حوار الأنبياء معهم إلى عداء شخصي، وبالعداء الشخصي يتصاعد الخلاف ولا ينتهي إلى حل.

والصحيح أن ينظر المحاور إلى أصل القول ويناقشه بموضوعية، فإن كان صحيحاً ارتضاه، وإن كان خطأ رده، وإلى هذا يشير الحديث الشريف: «لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال»[2] و: «إن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها»[3] لأن الغاية معرفة الحقيقة، فلو تلبست الحقيقة بالأشخاص وصار النظر إليها من خلالهم يصعب الوصول إليها، بل في

---

(١) سورة يس: الآية ١٨.

(٢) شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: ص١٢، ح١١، وانظر صلاة الجمعة (لليزدي): ص٧٨؛ كشف الخفاء: ج٢، ص٣٦١، ح٣٠٥٥، وفيه: «لا تنظروا إلى من قال (و) انظروا إلى ما قال».

(٣) شرح أصول الكافي: ج٢، ص٦١، الحاشية؛ شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: ص١٢، ح١١.

كثير من الأحيان تكون مشوهة؛ إذ لا يمكن ان يعكس الحقيقة الواضحة التامة إلّا المعصوم عليه السلام. أما غير المعصوم فلا يجب أن يكون معياراً، بل الحقيقة هي المعيار، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الحق لا يعرف بالرجال. اعِرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله»[1].

فالنهج القويم الذي يهدي إليه القرآن في المحاورات في أي صعيد هو جعل الفكر ومقياس الأفراد وليس العكس، ونصّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾[2] ومن لطائف الآية أنّها وعدت الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه بالبشارة، وهي لا تكون إلّا فيما يوجب الفرح والسرور وسعادة النفس، ووصفتهم بثلاث صفات تترتب على فعلين:

أولاً: أما صفاتهم فهم عباد الله سبحانه، وقد أقر الله سبحانه لهم بذلك، وهذا وسام عظيم لا يناله إلّا ذو حظ عظيم.

وثانياً: ضمن لهم الهداية؛ إذ قال: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**﴾[3] وليس يهديهم أو سيهديهم، بل هدايتهم واقعة بالفعل والجزم واليقين.

وثالثاً: أقر لهم بأنّهم أصحاب العقول، وينبغي أن نعرف تارة الإنسان يصف نفسه أو يصفه الآخرون بأنه عبد لله أو مهتد أو صاحب عقل،

---

(١) روضة الواعظين: ص٣١.

(٢) سور الزمر: الآيتان ١٧-١٨.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٨.

فالوصف يكون على مقدار معرفة الواصف، فإذا كان الواصف جاهلاً أو قاصراً ولا يحيط علماً بالأشياء فإنه لا يدل على صحة الوصف وصدقه، وإذا كان مبالغاً أو موصوفاً بالكذب فلا يعتد بوصفه، ولكن إذا كان الواصف العالم المطلق المحيط بالأشياء المنزّه عن المبالغات والنواقص فإن وصفه يكون صادقاً وكاشفاً عن الواقع، وقد وصف الباري عز وجل أولئك بهذه الصفات العظيمة التي تعد من أرقى صفات البشر، وإذا رغب الراغبون من الأنبياء و الأولياء إلى شيء من الكمالات فإنّ أقصى ما يطلبونه هو أن يقبلهم الباري عزّ وجل للعبودية، وأن يفيض عليهم هدايته ونوره، ويعترف لهم بكمال العقول.

هذه الأوصاف الراقية أعطاها الباري عزّ وجل لأناس يقوم نهجهم على أمرين هما: أنهم يستمعون القول ويتبعون أحسنه.

وهذه من الأسرار التي تكشفها هذه الآية المباركة التي تعلِّم الناس فن الاستماع للآخرين ثم اتباع الأحسن من الأقوال، أي العمل بها وترتيب الأثر عليها، ومعلوم أن اتباع الأحسن يتوقف على مقدمتين مطويتين في مفردة (اتبع) وهما القدرة على فهم الأقوال ثم القدرة على التمييز بينها لمعرفة الحسن والأحسن، أو الحسن من غير الحسن، بناء على أن فعل التفضيل منسلخ عن المفاضلة، والمعنى فيتبعون القول الحسن، والألف واللام في القول إما جنسية أو عهدية أو تعريفية، والفرق بينها في السعة والضيق، فإنها لو كانت جنسية يعني الاستماع إلى مطلق الأقوال والتمييز بينها، وهذا من شأنه أن يترك الباب مفتوحاً للاستماع إلى كل قائل وتمييز قوله.

ولو كانت عهدية فإنها تضيق الدائرة وتحصر الاستماع بمن يستحق أن يسمع له مثل العلم من العلماء، والطب من الأطباء، والخبر من المخبر الثقة وهكذا لا كل من هب ودب.

ولو كانت تعريفية فإنّها تحمل على قول خاص كالمحاورة التي تقع بين اثنين، والبحث العلمي الذي يقع بين أهل الاختصاص ونحو ذلك، فإنّ أصحاب العقول حينما يستمعون إلى الأقوال يجب أن يصغوا إليها ويفهموها، ولذا قال (يستمعون) ولم يقل (يسمعون) وفي زيادة المباني دلالة على زيادة المعاني كما يقول أهل البلاغة[1]، وبعد الفهم يميزون الصواب من غيره ويتبعون الصواب، وفي ذلك تنبيه أيضاً إلى أنّ المستمع يجب أن يتحمل مسؤولية ذلك، وأن يحمل روح المبادرة والتجاوب مع الحقائق، فإذا استمع القول وعرف الأحسن وجب أن يعمل به ولا يقف متفرجاً أو لا مبالياً، فإنّ بعض الناس يعتادون على السماع لا الاستماع فيسمعون كثيراً، وبعضهم يستمعون ولكن لا يعملون، وكلاهما في خطأ عظيم، بل على خلاف موازين العقل، وهذا أحد أهم العلائم الفارقة بين الناجحين والفاشلين، والشعوب المتطورة والأخرى المتأخرة؛ إذ لا معنى للاستماع ومعرفة الصواب ثم لا يعمل به، فإن من لا يعمل بالصواب يكون قد أوقع نفسه في الخطأ، والعاقل لا يتعمد الوقوع فيه.

ونلاحظ أن الآية المباركة تبين نهجاً دقيقاً للعلماء والباحثين وأهل النظر ولعموم الناس إذا أرادوا معرفة الخطأ من الصواب في الأفكار والمعلومات

---

(١) روض الجنان: ص٤؛ شرح اللمعة: ج١، ص٢١٧؛ زبدة البيان: ص١٧٠.

والأخبار التي تنقل، والبشرية عموماً في أمس الحاجة لمراعاة هذه الضابطة اليوم؛ لرواج سوق الأفكار والأخبار والحديث والمحدثين وكثرة الصخب الحاصل والفوضى في تناقل المعلومات والكذب والخداع فيها، وهذا النهج يقوم على ثلاثة أركان:

الركن الأول: الاستماع الجيّد للقول وفهمه دون تعصب أو انفعال أو أحكام مسبقة ناشئة من الخلفيات الفكرية والثقافية، فإن اتخاذ المواقف والآراء من دون الإحاطة بالشيء ظلم للحقيقة وللإنسان، وهذه مشكلة وقع بها البعض في هذه الأزمنة تجاه الدين، وأخذوا يصدرون أحكاماً على الدين ويتهمونه باتهامات باطلة ناشئة من عدم الاستماع الجيد إليه، أو عدم الإحاطة به، وقد مر الكلام عن ذلك.

الركن الثاني: المقارنة بين الأقوال لمعرفة الصحيح من الخطأ، وهذه ليست مهمة كل أحد، بل مهمة من يمتلك قدرة عقلية وعلمية على المقارنة والتقويم.

الركن الثالث: الاتباع للصواب بكل حيادية وموضوعية، فإن العقل يلزم بمراعاة الحق والصواب. أما التعصب والانفعالات فهي من الجهل الذي يردي صاحبه في الضلالة، ولذا وصفت الآية الذي يتبع الأحسن بأنه أهدى وأنه ذو عقل، وبمقتضى مفهوم المخالفة نعرف أنّ الذي يتعصب لرأيه أو رأي جماعة أو زعيمهم على حساب الصواب إنما هو على ضلالة ولا يملك عقلاً كاملاً.

فالمحورية التي تقررها الآية في هذا النهج للفكر والقول وليس للقائل، وتشير الآية إلى حقيقة تعد من لطائف القرآن، وهي أن الباري عز وجل

يوفق الذين يريدون الحسن ويتبعونه إلى الوصول إلى الغاية؛ لذا قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ﴾[١] بصيغة الماضي الذي يفيد حتمية الوقوع، وهذه الهداية لطفيّة ناشئة من اللطف الخاص لا العام تقود صاحبها إلى غرضه.

وتوضيح ذلك: أن الهداية في القول على قسمين: هداية الإرادة ويعبر عنها بهداية الدلالة، وهداية الإيصال ويعبر عنها بهداية الإعانة والتوفيق للوصول إلى المطلوب، ونمثّل لهما بالشخص الذي يدلك على الطريق، فإنه قد يدلك عليه بوصف العنوان وهو نوع هداية، ولكن لمجرد إراءة الطريق والتدليل عليه، وقد يأخذ بيدك ويمضي معك حتى يوصلك إلى المقصد، وهذه هداية أعظم يتحقق بها الوصول إلى المطلوب.

وفي هذه الآية المباركة يعد الباري الذين يتبعون القول الحسن بأنه يهديهم - أي يوصلهم إلى مقاصدهم وما يريدون - وهذا سِر من الأسرار يكشفه الباري لكل من يريد الوصول إلى المطلوب في أي مجال من مجالات العلم والعمل، وهو ما يقتضيه اللطف الإلهي، وكذا العطاء الذي لا يحظره على أحد، فليس للانسان إلّا أن ينوي ويجد ويبذل جهده للوصول إلى الغاية، فإذا وجد الباري منه الصدق فإنه يوصله إلى مناه.

والسؤال هنا عن الأحسن ما هو وكيف يمكن إحرازه؟

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٨.

والجواب: الحسن في كل شيء بحسبه، ويمكن معرفته عبر مقارنته بالغير، فإن العقل قادر على معرفة الأشياء عبر وسائط عديدة منها: قواعد ثلاث هامة يمكن لكل ذي عقل سليم أن يطبقها ويتوصل إلى نتائجها

الأولى: معرفة الأشياء بأضدادها.

الثانية: معرفة الأشياء بأمثالها.

الثالثة: معرفة الأشياء بآثارها.

والأولى أهم من الثانية، بل سابقة عليها رتبة، والإنسان بعقله النير قادر على التمييز بين الحق والباطل والخطأ والصواب كقدرة بصره على التمييز بين النور والظلمة، فإذا عرضت عليه الأقوال المتعددة بملاحظة آثار كل قول ونتائجه يقدر على تشخيص الصحيح من الخطأ.

مثلاً: إذ سمع القول الذي يدعو إلى التوحيد والآخر الذي يدعو إلى الشرك أو ينفي وجود الخالق فإن العقل بماذا يحكم؟ ولو سمع قولاً بأنّ النبيﷺ لما رحل عن الدنيا لم يوصِ إلى أحد من بعده وترك أمته ودينه ورسالته لمن شاء وقولاً آخر يقول بأنه وصى وعيّن من بعده الإمام الذي يكمل مهمته وغايته، ماذا يحكم العقل؟ وأيهما يوافق في حكمه؟ وأيهما يخالف؟

ولو سمع متحدثاً لبقاً لم يدرس عند العلماء ولم يأخذ العلم من أهله ونصب نفسه مكان العالم وأخذ يتحدث على العلماء وينتقد العلم أو آراء العلماء؟

ولو شاهد طبيباً يطلق الكلمات والآراء ويخالف في ذلك إجماع الأطباء أو مشهورهم وينسب مخالفيه إلى الجهل وعدم المعرفة بماذا يحكم العقل؟

واضح أن الإجابة عن كل ذلك هي أن العقل يرى أن الأحسن الذي يجب أن يتبع هو القول بالتوحيد والوصية واتباع قول العلماء والأطباء؛ لأنه مضمون السلامة أما غيره فلا.

هذا في صورة تمييز الحسن من غير الحسن، وأحياناً تكون القضية من قبيل تمييز الحسن والأحسن، فهنا أيضاً العقل يميز بينهما وهو ما يعبر عنه الفقهاء بتزاحم الملاكات والمصالح، ويعبّر عنه أهل المعقول بالأحسن الإضافي، وهو كثير الوقوع في الأحكام الشرعية والقيم الأخلاقية، ويجب على العاقل أن يميز بين الأحسن بالقياس إلى غيره ويتبعه.

مثلاً: ورد في الكتاب والسنة الحكم بالاقتصاص من المسيء؛ إذ قال سبحانه: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[١].

وورد الأمر بالصفح والعفو وكظم الغيظ؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[٢] وقال: ﴿**الصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾[٣] وورد أيضاً الإحسان إلى المسيء؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[٤] أي حبيب قريب من نفسك وقلبك.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١٢٨.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٤.

وهنا الناس يختلفون، فبعضهم لا يمكنه الصبر؛ لأن العدوان في حقه عظيم أو أن المعتدي يتمادى بعدم الاقتصاص فالأحسن إليه الاقتصاص؛ لأنَّ في عدم الاقتصاص الضرر الكبير عليه وعلى غيره، وأما لو كان المعتدي غير قاصد ولا متعمد وهو ندمان على ما فعل فإن العفو والصلح عنه أحسن من الاقتصاص، ولو جاء المعتدي وقدم اعتذاره واستعد لضمان ما أنزل من الضرر بعدوانه وإساءته فإنّ الإحسان إليه بالعفو والسماحة أحسن، وهكذا يتضح أن العقل يميز الحسن والأحسن بملاحظة ملابسات كل قضية بحسبها.

ومثل ذلك يقال في الحقل العلمي أو رواية الحديث.

مثلاً: ورد في رواية أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله جل ثناؤه: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[1] قال: «هو الرجل يسمع الحديث فيحدّث به كما سمعه لا يزيد فيه ولا ينقص منه»[2].

وفي روايته الأخرى قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[3] قال: «هم المسلّمون لآل محمد صلى الله عليه وآله الذين إذا سمعوا الحديث لم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه جاؤوا به كما سمعوه»[4].

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٢) الكافي: ج١، ص٥١، ح١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٨ من أبواب صفات القاضي، ص٧٩، ح٣٣٢٥٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٤) الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٨؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٨ من أبواب صفات القاضي، ص٨٣، ح٣٣٢٦٨.

وواضح أن رواية الحديث تارة تكون باللفظ وتارة بالمعنى، والحديث الأول ناظر إلى الرواية باللفظ، ورواية الحديث تارة تكون بلفظ المعصوم عليه السلام أي يرويه كما هو وتارة يزيد في بعض ألفاظه أو ينقص من دون أن يغير المعنى، وكلاهما جائز، وقد وردت في جوازه النصوص، إلّا أنّ العقل يحكم بأن الأول أحسن من الثاني، والحديث الثاني ناظر إلى المضمون؛ لذا قال: «المسلّمون لآل محمد صلى الله عليه وآله » أي إذا وردهم حديث فيه شيء من الغرابة أو يجهلون معناه ومغزاه، فإن المؤمن يجب ان يكون مسلّماً لهم عليهم السلام ، فيروي الحديث كما ورد، ولا يزيد في معناه ولا ينقص منه ليكون موافقاً لعقله وفهمه.

فإذا دار الأمر بين الأول والثاني فإنّ الأول أحسن، وفيه الاحتياط والتسليم لهم عليهم السلام ، بخلاف الثاني فإنّ فيه شبهة الاجتهاد بالرأي والأخذ بالظن.

ومن هنا نعرف وجه السر في وصف الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه بأنهم عباد الله، أي يتعبدون ويتقيّدون بما ورد في الدين، ولا يحكِّمون اجتهاداتهم وآراءهم على الدين.

هذا هو التعليم المهم الذي ترشدنا إليه الآية لدى التعرض إلى الأبحاث العلمية أو استماع الأخبار أو الخوض في المحاورات حتى تكون المحاورة ناجحة ومفيدة وموصلة إلى الغاية، وإذا لوحظ أن بعض المحاورات والمفاوضات سواء على صعيد الفكر أو السياسة أو الاقتصاد لا تصل إلى النتيجة فذلك يعود إلى الخلل في أحد الأركان الثلاثة أو بعضها، أي إما لم يحصل استماع جيد لكل منهما للآخر وبالنتيجة لم يتفهم ما يريد، أو لسوء التقويم والمقارنة، أو لعدم الاتباع للأحسن.

التعليم الرابع: التشاؤم والتفاؤل فقهياً ونفسياً

إنّ التطيّر مردوع عنه شرعاً، والكثير من الناس يقعون فيه فيتشاءمون من بعض الأشياء، فبعضهم يتشاءم من حيوان، وبعضهم من طعام، وبعضهم من عطسة ونحوها، وهو مما لا أساس له، والصحيح هو التفاؤل وتوسم الخير ورجاؤه وحسن الظن بالله سبحانه والتوكل عليه. نعم للتطير مرحلتان:

الأولى: حدوثه في النفس من غير اختيار للإنسان فيه، وربما يوقعه الشيطان فيها فيكتمه ولا يظهره على لسانه أو فعله، ولا يرتب عليه الأثر. وهو جائز؛ لأنه غير اختياري، ولو تذكر حسن الظن بالله سبحانه وتوقع الخير منه والتوكل عليه زال.

الثانية: حدوثه في النفس واتباعه وإظهاره في القول والفعل، وهذا هو المنهي عنه شرعاً وعقلاً، ويوجب الخلاف والقطيعة في المجتمع، ويجمد العقل عن التفكير وحسن التدبير، بل هو من مظاهر سوء الظن بالله والتوكل على الشيطان ووساوسه، ولذا ورد في الأحاديث الشريفة الحث على عدم الاعتناء به. منها قولهم عليهم السلام: «ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن. قيل فما نصنع؟ قال: إذا تطيَّرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق»[١].

---

(١) البضاعة المزجاة: ج٢، ص٢٠١؛ الفائق في غريب الحديث: ج٢، ص٣١٢.

فالطيرة كالحسد وسوء الظن تقع في القلب أولاً من دون اختيار؛ لذا يعفى عنها، ولكن إذا اتبعها الإنسان ورتب عليها الأثر كان حراماً في بعض مراتبها، وإليه يشير الحديث الشريف: ﴿الطيرة شرك ولكن الله يذهبه بالتوكل﴾[١].

وفي حديث الصادق عليه السلام عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿كفّارة الطيرة التوكل﴾[٢].

وفي الخصال - فيما علّم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه - في كل امرئ واحدة من ثلاث: ﴿الطيرة والكبر والتمنّي، فإذا تطيّر أحدكم فليمض على طيرته، وليذكر الله عزّ وجل، وإذا خشي الكبر فليأكل مع عبده وخادمه، وليحلب الشاة، وإذا تمنى فليسأل الله عزّ وجل ويبتهل إليه ولا تنازعه نفسه إلى الإثم﴾[٣].

فإن العبد إذا وجد أمانيه أكبر من طاقاته وقدراته فلا يستطيع أن يحققها بالطرق المشروعة قد تنازعه نفسه، ويغريه الشيطان لأن يحققها بالطرق غير المشروعة فيقع في الهاوية، وعلاج ذلك أن يستعين على ضعفه بدعائه واللجوء إلى ربه القادر الغني فإنه يعزره ويعطيه ما يتمنى.

---

(١) المستدرك: ج١، ص١٧؛ النهاية في غريب الحديث: ج٢، ص٤٦٧؛ وانظر مرآة العقول: ج١١، ص٣٩٢.

(٢) الكافي: ج٨، ص١٩٨، ح٢٣٦؛ الوسائل: ج٢٢، الباب ٣٥ من أبواب الكفارات، ص٤٠٤، ح٢٨٨٩٨.

(٣) الخصال: ص٦٢٤؛ وانظر الوسائل: ج٢٥، الباب ١٠ من أبواب كتاب الأطعمة والأشربة، ص٣٠، ح٣١٠٧٧؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٧٤، ح٢١٣.

وعن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام: ﴿الشؤم للمسافر في طريقه في ستة ...فمن أوجس في نفسه منهن شيئاً فليقل: اعتصمت بك يا رب من شر ما أجد في نفسي فاعصمني من ذلك. قال: فيعصم من ذلك﴾[١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه كان يأمر من رأى شيئاً يكرهه ويتطيّر منه أن يقول: ﴿اللهم لا يؤتي الخير إلّا أنت، ولا يدفع السيئات إلّا أنت، ولا حول ولا قوة إلّا بك﴾[٢].

وينبغي معاملة الطيرة بالإهمال وعدم ترتيب الأثر؛ لأنّها من الوهم، والوهم إذا أهمل زال وتعزيز ذلك بالصدقة أجدى في الأثر، وإلّا صيّر الإنسان وسواسياً وسلبه قراره وإذا لاحظ البعض أنه حينما يتشاءم ويتوقع الشر يحدث له، فذلك ناشئ من نفسه وتحليلاته التي تقوده إلى الشر، ولذا ورد عن الصادقعليه السلام: ﴿الطيرة على ما تجعلها إن هوّنتها تهوّنت، وإن شدّدتها تشددت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً﴾[٣].

ويؤيد ذلك الآية التالية.

---

(١) الفقيه: ج٢، ص٢٦٨، ح٢٤٠٣؛ مكارم الأخلاق: ص٢٤٢.

(٢) مكارم الأخلاق: ص٣٥٠؛ البحار: ج٩٢، ص٣، ح٢.

(٣) الكافي: ج٨، ص١٩٧، ح٢٣٥؛ الوسائل: ج١١، الباب ٨ من أبواب السفر إلى الحج غيره، ص٣٦١، ح١٥٠٢٠؛ البحار: ج٥٥، ص٣١٠.

قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِنْ
ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ

يس/ ١٩

تضمنت بيان الرسل للمتطيرين، وقد مزجوا فيه الموعظة والتنبيه ولطف الجواب، فلم يقابلوا تطيّر القوم وتهديدهم بالمثل حتى ينتهي الحوار وتنطق القوة والعنف في المحاورة ثم الصدام، بل قالوا طائركم معكم، أي التطيّر والتشاؤم الذي تشعرون به ليس بأمر يأتيكم من الخارج حتى تلقوه على الغير، بل هو من داخلكم، ملازم لكم، منشؤه الكفر والعناد والمكابرة على الحجج والدلائل الواضحة وصك الأسماع عن الاستماع لدعوات الأنبياء ونصائحهم، والحرص الشديد على المصالح والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾

الطائر هو التشاؤم الذي أظهروه مقابل الرسل، فإنهم ألقوه على الرسل حقداً منهم، والحال أنّ التطير حالة نفسية تلازم أهلها في كل حين؛ ولذا نسبوه الرسل إليهم ووصفوه بأنّه مهم أي ملازم لهم أينما كانوا؛ ولذا ورد بصيغة اسم الفاعل، ووصفوهم بأنهم مسرفون، أي متجاوزون على حدود العقل والمنطق؛ لأن العقل يقضي أن يقابل الحوار بالحوار والدليل بالدليل لا بالقتل والتعذيب، ولو احتكموا إلى العقل والبرهان لوجدوا أن الأنبياء أهل خير وتفاؤل وسرور، ولا يريدون إلّا هداية الخلق وإصلاح أمورهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة، لكنهم أبوا إلّا الغرور والطغيان والمكابرة، ومعلوم أن من يسيء الظن بالناس ويحمل هذه الصفات يصاب بالشؤم والانكسار، ويكون قد جلب الشر لنفسه.

وفي ذلك دلالة على أن شؤم الناس وتفاؤلهم وسرورهم وشقاءهم يبدأ من نفوسهم، فهم الذين يجلبون لأنفسهم الشقاء، وهم الذين يجلبون لها السعادة؛ بداهة أن السعادة والشقاء والتشاؤم والتفاؤل لكل منها أسباب،

فمن أخذ بأسباب السعادة سعد، ومن أخذ بأسباب الشقاء شقي، وسيأتي في التعاليم ما يزيد ذلك بياناً.

المفردة الثانية: ﴿أَئِنْ﴾

في قوله تعالى: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُم﴾[1] فقد اختلف المفسرون فيها على قولين:

القول الأول: إنها شرطية والهمزة زائدة وجوابها مقدر، ومفادها أنكم إن ذكرتم وتفكرتم لما تطيرتم وتشاءمتم من الأنبياء ولوجدتم أن في الاستماع إليهم السعادة والخلاص من العذاب الملازم لكم ولتبركتم بهم واتخذتموهم قدوة بدلاً من تهديدهم بالرجم والعذاب[2].

القول الثاني: أنها استفهامية في مقام الاستنكار، فالهمزة الأولى أصلية يراد بها التنديد بأسلوب الكفار؛ إذ قابلوا تذكير الأنبياء ونصيحتهم بالتهديد بالقتل والتعذيب[3].

والثاني أقوى لمكان همزة الاستفهام وأصالة عدم الزيادة لاسيّما في القرآن، ومفادها استنكار الأنبياء لطريقة الكفار في أنهم يقابلون التذكير بالتهديد والوعيد، وفي عين الحال يحملون طائرهم معهم بسبب عنادهم ومكابرتهم.

---

(١) سورة يس: الآية١٩.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٤.

(٣) التبيان: ج٨، ص٣٤١؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٣٩.

المفردة الثالثة: ﴿ذُكِّرْتُم﴾

من التذكير وهو الإلفات إلى الأمر المنسي أو المغفول عنه، وقد وردت بصيغة المبني للمجهول المشدد ولم تأت بصيغة المبني للمعلوم المخفف، ووجهه أن القوم كانوا مكابرين معاندين لا يهتدون من أنفسهم ولا يتذكرون، بل لابد لهم من مذكّر، بل إنّ شدة عنادهم قادتهم إلى تكذيب المذكِّرين أيضاً، وهذا شأن العناد، فإنه يجعل حاجزاً للنفس فلا تبصر الحقائق حتى يقود صاحبه إلى الهلكة.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وعمدتها لطيفتان:

اللطيفة الأولى: الإسراف والمسرفون

يلاحظ في وصف الأنبياء للقوم بالإسراف، أنهم نسبوهم إلى الإسراف ولم ينسبوا فعلهم إلى الإسراف؛ إذ لم يقولوا: (إنكم أسرفتم) أو (تسرفون) بل قالوا: ﴿**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾[1] وذلك يشير إلى نكتتين:

الأولى: أنّ الإسراف كان طبيعة لهم لا تفارقهم؛ إذ لو كان فعلهم الإسراف فإن الفعل قد يفارق الفاعل أحياناً إلّا أنه إذا كان عادة وسجية يستحيل أن يفارقه.

الثانية: أن القوم في مجموعهم كانوا يتصفون بهذه الصفة، وقد عرفت أن المراد من القوم هم كبارهم وزعماؤهم، فيدل على أن طبيعة الزعماء والكبراء الإسراف إلّا ما خرج بدليل، وهو ما يؤكّده المعنى اللغوي والعرفي للإسراف، فإنّه مأخوذ من سرف يسرف وهو مجاوزة الحد في الفعل[2]، والأحاديث الشريفة ذكرت علامات للمسرف.

---

(١) سورة يس: الآية ١٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٧، (سرف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٦٩، (سرف).

ففي حديث الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿للمسرف ثلاث علامات: يأكل ما ليس له ويلبس ما ليس له ويشتري ما ليس له﴾[1] وله معنيان:

المعنى الأول: أنّ المسرف هو الغاصب الذي يتصرف فيما لا يملك، ويتلخص بفاعل الحرام، وإليه يشير قول الإمام الباقر عليه السلام: ﴿المسرفون هم الذين يستحلون المحارم، ويسفكون الدماء﴾[2] وهو بيان لأظهر المصاديق.

المعنى الثاني: أنه خفيف العقل الذي يفعل ما لا يليق بشأنه، فإذا أكل يأكل ما ليس له أن يأكله، فمثلاً الطعام النجس يأكله، أو يشرب الخمر، وهل الإنسان العاقل سليم الفكر يقدم على شرب الخمر؟ كلا؛ لأن الخمر يزيل العقل، ويصيّر الشارب الكبير الوجيه كالطفل الصغير أو المجنون، فمن يفعل هذا؟ أو يأكل مال اليتيم، وهل لإنسان رشيد يحمل من الشفقة والرحمة الإنسانية أن يقدم على أكل مال اليتيم أو الضعيف؟

وإذا اشترى اشترى ما لا ينبغي له أن يشتريه، كالشخص الذي يشتري ما لا يحتاجه، فإنّ الزيادة تكون من تجاوز الحد، وتعد سرفاً، وهذه عادة الملوك وأهل القدرة والمال، فإنه يكفيه قصر واحد أو اثنان لكنه يضع ثمانين قصراً أو أكثر، وهكذا في لباسه وطعامه، وأما الثروة التي يجمعونها فحدِّث ولا حرج، ولو لبس فإنه يلبس ما لا يليق به، وهذا يشمل جانب القيمة

---

(١) الخصال: ص٩٧، ح٤٥؛ وانظر الفقيه: ج٣، ص١٦٧، ح٣٦٢٤؛ الوسائل: ج١٧، الباب ٢٢ من أبواب مقدمات التجارة، ص٦٥، ح٢١٩٩٥.

(٢) التبيان: ج٢، ص٥٠٤؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص ٦٢١؛ تفسير الصافي: ج٢ـ ص٣١.

كأن يلبس لباساً بقيمة عالية وهو متوسط الحال أو فقير، أو من جانب الشكل والمظهر، فقد تجد بعض الشباب يلبس ما يكشف عورته أو ما ينبغي ستره من بدنه بعنوان مودة.

ولو نلاحظ الشواهد والأرقام التي تتحدث عن الإسراف الحاصل في العالم لاسيما الملوك والساسة وأمثالهم ومنذ قديم الأيام لكان شيئاً مذهلاً. مثلاً كتب أمية بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان أنّ خراج خراسان لا يقيم بمطبخي(١). وخراسان التي هي أكثر بلاد الأرض خيراً وبركة.

وكان أحد ملوك بني العباس لما سار إلى المهدية أخرج من قصور آبائه من الأموال خمسمائة حمل(٢).

والإسراف اليوم مشين وقد تجاوز الحدود جداً، وفي بعض التقارير أن ما يصرفه الأوربيون على البوظة والأمريكيون على العطور وطعام الحيوانات المنزلية بلغ (٤٠) مليار دولار في السنة، وهو يكفي لسد النقص في المستشفيات والتعليم الأساسي والماء والنظافة والصحة العامة والغذاء لجميع أنحاء العالم(٣).

وأما ما يصرف على السلاح واللهو واللعب من الألعاب الرياضية وشراء الرياضيين فحدّث ولا حرج، وأما هدايا الملوك المستبدين وتصرفهم في خزائن شعوبهم فأمر مفضوح.

---

(١) تاريخ الطبري: ج٥، ص٢٧٥.

(٢) وفيات الأعيان: ج٥، ص٢٢٦؛ تاريخ الإسلام (للذهبي): ج٢٦، ص٣٤٩.

(٣) المال قوة الفرد والامة: ص٢٣.

والخلاصة: أن المسرف هو من يفعل ما لا يليق بشأنه.

اللطيفة الثانية: الإسراف الجماعي

في قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾ إشارة إلى أنّ القوم بما هم جماعة كانوا مسرفين، لأنهم يفعلون ما لا يليق، فلا ينبغي أن يتوهم بأن التنعم في الحياة وأكل الطعام الطيب ولبس اللباس الجيد وركوب السيارة الفارهة من السرف؛ إذ ليس معنى السرف أن لا يعيش الإنسان منعماً، وإنما السرف أن يفعل ما لا يليق بشأنه وما لانفع فيه، وقد ذكرت الروايات من الإسراف إراقة فضل الماء النظيف دون انتفاع منه في تنظيف أو سقي نبتة أو غاية عقلائية.

ومنه لبس ثوب الصون في المكان القذر، وتناول الطعام المضر بالبدن ونحو ذلك[1].

ومرجع المعنيين إلى المعنى اللغوي وهو مجاوزة الحد؛ بداهة أن تجاوز الحد لا يصدر من الحكيم فيكون إسرافاً.

وهذا هو ما وقع به زعماء القوم في مقابلة الأنبياء، فبدلاً من أن يستمعوا لندائهم وهو نداء الحق والحياة والسعادة قابلوهم بالرفض والتكذيب والتهديد والوعيد، ولاشك أنه من الإسراف في القول والعمل؛ لذا قالوا: ﴿**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾[2].

---

(١) الكافي: ج٦، ص٤٦٠، ح١، ح٢؛ الوسائل: ج٥، الباب ٢٨ من أبواب أحكام الملابس، ص٥١، ح٥٨٧٤، وح٥٨٧٥؛ البحار: ج٧٢، ص٣٠٣، ح٦، ح٧.

(٢) سورة يس: الآية ١٩.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة نستعرضها على التوالي:

التعليم الأول: الجبابرة يعادون المصلحين

إن الإسراف قبيح عقلاً وحرام شرعاً في بعض مراتبه، ويقابله الاعتدال، والأول علامة أهل الدنيا، والثاني علامة أهل الدين، ووجه إسراف القوم هو أنهم من حيث مكانتهم وزعامتهم كان ينبغي أن يستمعوا لقول الأنبياء، وينظروا في أدلتهم على ما تقتضيه مكانة القيادة والزعامة وحكمتها في معالجة الأمور، لكنهم وبدلاً من التروي في اتخاذ القرار والاحتكام إلى العقل والبرهان احتكموا إلى أمزجتهم ومصالحهم فكذبوهم، وجزموا بالكفر، فردوا ماله دليل قاطع بما لا دليل عليه، وهو من أجلى مظاهر السرف، وقد وقعوا في السرف مرتين:

مرة لأنهم ردوا الدليل بغير دليل، وهددوا الناصحين والمرشدين لهم بالقتل والتعذيب وهم لا يستحقون.

ولعل سائلاً يسأل: كيف اتهموا الأنبياء بالتطيّر والكذب وقد خبروهم من قبل وعرفوا نزاهتهم وجلالة قدرهم؟

والجواب: لأنّ الأنبياء قبل أن يدعوهم كانوا رجالاً صالحين في أنفسهم، والصالح في نفسه لا يشكل خطراً على مصالح الزعماء؛ لذا

يحبونه، ولكنه إذا صار الصالح مصلحاً ومعلّماً ومربياً للناس وداعياً إلى طاعة الله اعتبروه خصماً لهم فيعادونه، وهذه قضية حقيقية تتكرر في كل زمان ومكان.

والفرق أن الصالح صلاحه لنفسه وخيره لا يتجاوز حدوده الخاصة، والحكام لا يخافون من الصالحين وإنما يخافون المصلحين؛ لذا يتهمونهم بالسحر والكذب، ويهددونهم بالقتل والرجم، ومثل ذلك المجتمعات الجاهلة بغايات الأنبياء أو المتأثرة بالكفر والجاهلية، فإنّها لا تمانع من وجود شخص صالح بينها، وتمانع إذا صار مصلحاً فتعاديه وتحاربه.

فالصالح إذا مشى بطريقه وأغلق باب داره وتعبّد ليلاً ونهاراً لا أحد يعاديه، بل يصفونه بالأوصاف الحسنة، كما كانت قريش تصف النبي صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه بالصادق الأمين، ولكن متى ما دعا الناس إلى الصلاح عادوه واتهموه ووصفوه بالأوصاف السيئة؛ لذا أوصى لقمان ابنه لدى تعامله مع الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقال: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[(١)].

وقد فسّر أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ وصيته بالصبر بما يلاقيه من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٢)]، وقد وصف الصبر بأنّه من عزم الأمور؛ لأنّه من اكثرها أهمية ووجوباً؛ فإنّ غير الصابر لا يصل إلى غاية،

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٨٧؛ تفسير الصافي: ج٤، ص١٤٥، رقم(١٧)؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص١٢٢.

وهذا تعليم هام لكل عالم عاقل ومبلغ ومرشد ومصلح، فإنهم ماداموا مشغولين بأنفسهم لا أحد يقربهم، ولا تتوجه إليهم سهام التشويه والأذى، ولكن إذا صاروا مصلحين مرشدين ومربين وقعوا في الابتلاء، وربما يلاقون من الناس الذين يريدون هدايتهم الأذى والضر.

والملحوظ أنّ سنّة الباري في التعامل مع عباده إذا أساؤوا وظلموا أن ينزل بهم العذاب وإن كان فيهم الصالحون، ولا يعذبهم إذا كانوا مصلحين؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾(١).

لأنّ بالإصلاح تقوى الله سبحانه والرجوع إلى أحكامه وحدوده، ومن هنا إذا لاحظ أهل المعرفة أنّ في الناس أخياراً ولكن لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر توقعوا نزول العذاب، وأرجعوا وقوع الكثير من الابتلاءات والمصائب التي نزلت بالبشر وأفقدتهم الأمن والأمان والرفاه والسعادة والصحة والعافية إلى تخليهم عن الإصلاح.

ومعلوم أن الأرض لا تخلو من صالحين في كل زمان ومكان، ولكن وجود الصالح وحده لا يرفع البلاء، وإنما وجود المصلح هو الذي يرفعه، وعلى هذا ينبغي الالتفات إلى هذه الحقيقة، فإن التغيير والإصلاح في كل بلد ومجتمع وأمة لا يعقل أن يكون إلّا إذا سعى الناس إلى الإصلاح وشاركوا فيه، وإلّا ظلوا في العذاب والهوان؛ لذا قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(٢) وهذا التعليم نستفيده من موقف

---

(١) سورة هود: الآية ١١٧.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

كبار أنطاكية وسائر الأقوام مع أنبيائهم، ففي الوقت الذي يشهدون لهم بالكمال والجلال ولكن حيث صاروا مصلحين لهم عادوهم وحاربوهم.

التعليم الثاني: أثر الأعمال على حاضر الإنسان ومستقبله

إن الأفكار التي يحملها الإنسان والأعمال التي يعملها لها آثار على حاضره ومستقبله، فالأفكار الطيبة والأعمال الصالحة تصنع له حاضراً طيباً ومستقبلاً سعيداً، والأفكار السيئة والأعمال الطالحة تصنع من حياته الشؤم والشر والمستقبل الشقي، وأفضل الأفكار الطيبة الاعتقاد بالله سبحانه، وأفضل الأعمال الصالحة طاعته سبحانه، وأسوأ الأفكار الكفر بالله سبحانه، وأسوأ الأعمال عصيانه.

فالمؤمنون العاملون في وثوق وطمأنينة، تنزل عليهم السكينة الإلهية في مختلف أحوال الحياة بشدتها ورخائها، ولذا يكونون آمنين مطمئنين كفل الله سبحانه لهم أرزاقهم، وأطاب لهم عيشهم، وبعكسه الكفار، وهذا ما أشار إليه الأنبياء بقولهم لهم ﴿**طَائِرُكُم مَعَكُمْ**﴾ أي شؤمكم وتعاستكم هي طبيعتكم الملازمة لكم بسبب غروركم وكفركم.

يقول تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[1] وبمقتضى مفهوم الوصف يستفاد منه أن بغير ذكر الله لا تطمئن القلوب، فالمؤمن الذي يذكر الله سبحانه يطمئن قلبه، وعلى مقدار الذكر يكون الاطمئنان، فإن كان دائم الذكر كان دائم الاطمئنان، وإذا كان ذكره في وقت دون وقت كان اطمئنانه

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

في وقت دون وقت، وأما الذي غفل عن ذكر الله ولم يتوجه إليه فلا اطمئنان له، والاطمئنان هو السكون النفسي وهدوء البال والخلو من القلق والهم[(١)] وقد صار القلق والهم والكآبة مرض العصر والمشكلة التي يعاني منها أكثر البشر بسبب انغماسهم في المادة والماديات وابتعادهم عن ذكر الله سبحانه.

وأهم ما يشعر الإنسان بالسعادة ويجعل حياته هانئة هو هذا الاطمئنان والسكون النفسي، فإذا زال يكون الإنسان معذباً قلقاً لا يشعر بالراحة وإن تزوج الحور وسكن القصور، وهذا الاطمئنان هو أثر واحد من آثار الإيمان في الفكر والطاعة في العمل كما نصّت عليه الأخبار[(٢)]، والقلق والشؤم والتعاسة أثر من آثار الكفر والعصيان، وقد ورد في الأخبار الشريفة عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «إن كان في شيء شؤم ففي اللسان»[(٣)].

ولشؤم اللسان مصاديق عديدة:

منها: الكلام البذيء، فإنه يكشف عن شؤم النفس ونقل الشؤم إلى الآخرين، ولذا ورد عنه صلى الله عليه وآله: «سوء الخلق شؤم»[(٤)] وهو يشمل بذاءة اللسان. وفي حديث آخر: «الخرق شؤم»[(٥)].

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٢٧٧، (طمن).

(٢) الكافي: ج٢، ص١١٩، ح٤؛ ص١٢٠، ح١٤؛ البحار: ج٧٢، ص٥٩، ح٢٣.

(٣) الكافي: ج٢، ص١١٦، ح١٧؛ الوسائل: ج١٢، الباب ١١٩ من أبواب أحكام العشرة، ص١٠٢، ح١٦٠٥٦.

(٤) الفقيه: ج٤، ص٣٦٤، ح٥٧٦٢؛ تحف العقول: ص٤٤؛ الوسائل: ج١٢، الباب٢٥ من أبواب أحكام العشرة في السفر والحضر، ص٤٦، ح١٥٦٠٥.

(٥) انظر الكافي: ج٢، ص١١٩، ح٤؛ البحار: ج٧٢، ص٥٩، ح٢٣.

ومنها: إظهار الرأي السلبي المبني على سوء الظن أو توقع الشر، فإذا أراد السفر نظر إلى مشاكل السفر وأظهرها بما يوجب عزوفه عنه، وإذا استشاره أحد في الزواج يذكر جملة من السلبيات بما يشعر الطرف الآخر بأنه نقمة وليس برحمة، فهو ينظر إلى كل قضية من الناحية السلبية لا الإيجابية، وموقف الإنسان يتبع نظرته، وسبب هذا الشؤم يعود إلى ضعف الإيمان وعدم استقرار القلب.

والخلاصة: أنّ للأفكار والأعمال آثاراً تلازمهما في الخير والشر، فالذي يتفاءل ويحمل الفكر المتفائل يجد خيراً في حياته، والذي يتطير ويتشاءم يجد شؤماً في حياته، وأعظم الخير يحصله العبد بذكر الله سبحانه، وأعظم الشر بترك ذكره، ومما يشير إلى هذا ما رواه الكليني في الكافي بسنده عن الصادقعليه السلام قال: ﴿ما من شيء إلّا وله حد ينتهي إليه إلّا الذكر فليس له حد ينتهي إليه... وكان أبيعليه السلام كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلّا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر.. والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويُذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقل بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أخبركم بخير أعمالكم لكم

أرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، فقال: ذكر الله عز وجل كثيراً، ثم قال: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً، وقال رسول اللهﷺ: من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة»[1] وفيه دلالات عديدة:

منها: استحباب الجلوس بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس والانشغال بذكر الله سبحانه.

ولا يخفى أن المقصود بالذكر معناه الأعم، أي كل عمل أو قول يكون فيه رضا الله سبحانه أو يعمله العبد لله، مثل طلب العلم، وتهيئة الطعام للعائلة، وإصلاح ذات البين ونحو ذلك.

ومنها: استحباب قراءة القرآن والأدعية بالكتب للقادر عليها، وغير القادر ينشغل بذكر اللسان.

ومنها: أن البيت الذي يقرأ فيه القرآن وأهله يذكرون الله يكون مشرقاً بنور الوحي والدعاء، ويتجلى نوره أولاً على قلوب أهله وساكنيه وأولادهم وجيرانهم حتى يراه أهل السماء، وتحضره ملائكة الله، وتهرب منه الأبالسة والشياطين، ومثل هذا البيت لا يمكن أن يكون أهله أشقياء.

وأما البيت الذي ينشغل أهله باللهو واللعب والغناء وفعل المعاصي تحضره الشياطين، وكل مكان تحضره الشياطين يكون شقياً مطروداً من الرحمة.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٩٩، ح١.

ومنها: أن اللسان الذاكر يعادل خير الدنيا والآخرة؛ لأنه سبب لذلك، وهنا تتجلى الرحمة الإلهية؛ إذ يرضى من العبد القليل من الذكر فيعطيه سعادة الدارين. طبعاً هذا كله بنحو المقتضي؛ لذا لا تلازم كل ذكر إلّا إذا انعدمت الموانع، ومنها ترك الذنوب والقبائح لأنها تحجب الأعمال.

وقد يسأل سائل عن أفضل الأذكار التي فيها ضمان القبول.

والجواب: أن المستفاد من الروايات أفضل الأذكار التهليل وتسبيح فاطمة صلوات الله عليها، وذكر فضائل آل محمد في المجالس والمنتديات، والصلاة عليهم والبراءة من أعدائهم والدعاء بالفرج.

التعليم الثالث: الإنسان يصنع سعادته

إنّ سعادة الإنسان وشؤمه بيده لأنّ السعادة لا تشترى ولا تستأجر ولا توهب وإنما تصنع باليد. كل إنسان يصنعها بيده، كما أن الشقاء والتعاسة كذلك، وقد أشارت الآية المباركة إلى أن الإسراف من موجبات الشؤم والشقاء، ومعنى ذلك أن الاعتدال والتوازن يوجب التفاؤل والسعادة.

وهذه قضية لا تختص بالأفراد، وإنما تشمل المجتمع والدولة وسائر الناس، فإذا لاحظنا كآبة مستشرية وأمراضاً نفسية تصيب الكثير، والعصبية والعنف يستوليان على تصرفات بعض الناس، والطلاق في تزايد، وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وانعدام الثقة بين الناس والأمراض العجيبة الغريبة وأمثال ذلك من المظاهر التي تعتبر علامة هذا الزمان، فإن كله يرجع ذلك إلى إسرافهم على أنفسهم.

فعلى الإنسان العاقل أن يبحث عن أسباب سعادته وماذا عليه أن يعمل ليعيش سعيداً ويوجد لغيره السعادة، ومن كمال الدين أنّه يعلِّم الإنسان كيف يسعد نفسه ويعطيه التوجيات اللازمة لكي يبني حياة سعيدة له ولأولاده وأهله، وهذه التوجيهات لا تحتاج إلى دخول في معاهد وجامعات لأجل معرفتها، أو الدخول في الأندية الرياضية للتمرين عليها، بل هي من أبسط العلاجات التي يقدر عليها الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والغني والفقير. وتجعل من كل فرد منهم سعيداً في كل لحظات حياته، ويعيش السعادة وإن عانى من بعض المشاكل، أو مرّ ببعض الأزمات؛ لأن السعادة شعور في النفس وأحساس وجداني وليست بالقصر الواسع والسيارة الفارهة والملابس الفاخرة والطعام المنوع بل السعادة احساس وشعور يعيشه الإنسان، فرب إنسان يسكن في الكوخ ودابته رجلاه وطعامه الخبز والماء أسعد من الملوك والسلاطين وأصحاب القصور، ورب سجين مظلوم في سجنه يعيش الرضا والسعادة وراحة الضمير يتعذب سجّانه من سعادته. انظر إلى يوسف الصدّيقعليه السلام وبعد كل ذلك العناء في السجن ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾[1] وسجنه أحب إليه من قصر العزيز ومن سحر زليخا ونساء مصر وإغراءاتهن، وبيده صنع السجن محراباً للعبادة والعبودية، وكان يقوم على المريض، ويلتمس المحتاج، ويوسع على المحبوس[2]، وخدمة خلق الله

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٣.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٣٤٤.

وقضاء حوائجهم من أحب الأعمال إلى الله سبحانه التي تفتح لصاحبها أبواب الغيب، وتجعل الإنسان عبداً لله يسمع له، ويجيب دعاءه، ويوفقه في دنياه وأخراه[١].

وبهذه الأعمال نال سيادة الدنيا والآخرة، وصار حاكماً على عرش مصر وملكاً على القلوب، وقد ورد في بعض الأخبار عن الباقر عليه السلام أنّ زليخا وبعد أن حطتها ذنوبها دخلت عليه فرأته في ملكه فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته[٢].

وبهذا الفهم والشعور والكلام الذي نطقت به زليخا رفعها الله سبحانه، واعطاها شبابها ونعيمها، وبلغها مرادها، وزوّجها من يوسف؛ لأنها استجابت للحق، وصنعت سعادتها بيدها.

فالسعادة يصنعها الإنسان بيده، والشقاء كذلك، والسؤال كيف يصنع الإنسان سعادته؟ وهذا السؤال قد تذكر له أجوبة كثيرة، فعلماء النفس لهم أجوبة، وعلماء الاجتماع لهم أجوبة، وهناك أبحاث ودراسات كثيرة تناولت هذا الموضوع؛ لأنه حاجة أهل العصر إلّا أن الجواب الوافي والتام ليس في هذه الأبحاث، بل في الدين. الدين وحده القادر على تعليمه وتربيته على السعادة، وأما غيره من الأبحاث فهي وإن كانت تشتمل على مطالب علمية هامة ومفيدة لكنها في الغالب مبتلاة بإشكالات ثلاثة:

---

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٣٩٤؛ تفسير نور الثقلين: ح٣، ص٣٨٥، ح١٦٣.
(٢) الأمالي (للطوسي): ص٤٥٦، ح١٠٢٠؛ البحار: ج١٢، ص٢٦٨، ح٤٢.

الأول: أنّها نظرية وليست عملية، والسعادة تتحقق بالعمل لا بالنظر.

الثاني: أنّها دراسة للإنسان من خارجه وليست من باطنه.

الثالث: أنّها ترفع المرض بعد وقوعه وليست تمنعه من الوقوع؛ لأنها لا تربي الإنسان ولاتعطيه المناعة ضد المرض، وإنما تحاول معالجته، وفي الغالب لا تعالج المرض وإنما تهدئه، والدليل على ذلك أن الأمراض النفسية والأخلاقية مستشرية، ولا يتمكن العلم الحديث من علاجها. كيف يعالجها وهو أحد أسباب انتشارها.

طريقان يوصلانك للسعادة

إنّ تعاليم الدين هي الوحيدة القادرة على تعليم الإنسان كيف يعيش سعيداً؟ وكيف يصنع سعادته بيده؟ وفي هذه الفرصة السانحة أتحدث عن طريقين تحدثت عنهما الآيات والروايات، ولو عمل بهما الناس عاشوا السعادة.

الطريق الأول: تطبيق السلوك على تعاليم الشريعة، وهناك بعض الأشياء البسيطة والتي قد يعتبرها البعض عادية جداً ولكن لها التأثير الكبير جداً على سعادة الإنسان وشقائه، وهذه الحقائق قد لا يعرفها العلم لأنه لم يدرسها، وإنما يكشف عنها الدين.

مثلاً: الكون على طهارة والالتزام بالوضوء والغسل من الجنابة وغسل الجمعة هذه من موجبات الصحة والسعادة ونورانية القلب، ومسح الوجه بطرف الثوب هذه قضية قد تبدو عادية إلّا أن الروايات تقول إنها من

موجبات الغم والهم[١]، وترك القمامة داخل البيت حتى الصباح فإنه يوجب الهم ويجلب الشياطين[٢]، وكثرة الأكل يقسي القلب[٣]، وإذا قسا القلب شعر بالشقاء والتعاسة وكان كئيباً وكثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً[٤]، وتمشيط الشعر وقوفاً[٥] وترك نسيج العنكبوت[٦] وكنس الدار ليلاً يوجب الفقر[٧]، بينما وجود الخل في الدار يزيل الفقر[٨]، وكثرة تسريح الرأس تذهب بالوباء وتجلب الرزق[٩].

قد يتصور البعض بأن هذا غير معقول، لأنه لا يجد علاقة واضحة بين هذه القضايا وآثارها؛ إذ ما علاقة التمشيط وقوفاً بالفقر؟ وما علاقة الخل بعدمه، إلّا أنه لو أمعن النظر وأوكل الأمر للبحث العلمي لوجد العلاقة من وجوه ثلاثة:

---

(١) البحار: ج٧٣، ص٣٢١، أقول؛ البحار: ج٧٣، ص٣١٨.
(٢) الجامع للشرائع: ص٣٩٣؛ روض الجنان: ص٢٣٥؛ كشف الغطاء: ص٢١٦.
(٣) التحفة السنية: ص١٧٣.
(٤) الأمالي (للصدوق): ص٣٠٤، ح٣٤٤؛ حواشي الشرواني: ج١، ص٢٣٨.
(٥) الحدائق ج٥، ص٥٦٥؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٦، ص٦٢٢، ح١٨؛ موسوعة أهل البيت عليهم السلام: ج٨، ص٥٠٢، ح١٠٥٥٣؛ ص٥٠٣، ح١٠٥٥٤.
(٦) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ج٨، ص٥٠٢، ح١٠٥٥٣.
(٧) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ج٨، ص٥٠٣، ح١٠٥٥٤
(٨) الدروس: ج٣، ص٣٩، وفيه: (ونعم الأدام الخل، ما افتقر بيت فيه خل)؛ مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٣٤ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٦٣، ح٢٠١٨١.
(٩) الكافي: ج٦، ص٤٨٩، ح٦؛ الحدائق: ج٥، ص٥٦٣.

الأول: لابد أن يعلم أن الدين أوسع من العلم، وتعاليمه واردة عمن خلق الإنسان وأوجد الأشياء وسخرها لخدمته، فهو أعرف بما يضر وما ينفع الإنسان، وما يسعده وما يشقيه، وما يمرضه وما يشفيه، ولا زالت التقارير والأبحاث العلمية تستخرج نتائج هامة في ترابط المخلوقات مع بعضها وتأثيرها على الإنسان سواء في المأكولات والمشمومات والمنظورات والمسموعات. كل هذه تؤثر على الإنسان فعدم معرفة العلاقة لا يعني عدم وجودها، ولو توجهت الجامعات والمعاهد العلمية لدراسة هذه العلاقة لتوصلت إلى بعض أسرارها، ويكفينا شاهداً على وجودها وصحتها أننا نجد أن الملتزمين بأحكام الدين وتعاليمه أكثر سعادة من غيرهم، وأبعد عن الأمراض التي تصيب غيرهم، وإذا لوحظ أن بعض الملتزمين يصابون ببعض الابتلاءات فذلك لم ينشأ من التزامهم بتعاليم الدين، بل من عدم التزامهم.

كما أن الأكل والشرب والنوم والكلام والمشي والقعود والقيام كلها لها كيفيات فضلى يعبَّر عنها بالآداب، فإذا لا يلتزم بها الإنسان ولا يؤديها يصاب بالآثار السلبية، للصلاة مثلاً كيفيات وآداب لو راعاها المصلي وهو يؤديها لتخلص من العديد من أمراض العظام والأعصاب والضغط ونحوها، ولكن حيث لا يلتزم بها تظهر آثار سلبية عليه، فعلى المؤمن أن يدرس آداب الأعمال والطعام والشراب ويطبقها في حياته ليكون أسعد.

الثاني: أن المؤثرات في الوجود لاسيما في حياة الإنسان نوعان من الأسباب: أسباب مادية وأسباب معنوية، لأن الإنسان مكون من جسد ومن

روح ولكل منهما طبيعة تغاير الأخرى، فللجسد غذاء خاص وللروح غذاء خاص، وللجسد أفعال وللروح أفعال، وللجسد أمراض وللروح أمراض.

مثلاً: الخبز طعام الجسد والعلم والأخلاق غذاء الروح، والمشي والركض والقيام والقعود فعل الجسد، إلّا أن الفكر والسعادة والحزن فعل الروح، والسكري والضغط ونحوهما أمراض الجسد، والحسد وسوء الظن والطيرة أمراض الروح.

وتعاليم الدين كاملة لا تنظر إلى بُعد وتغفل عن البعد الآخر، بل حينما تنص على أن تمشيط الشعر وقوفاً يوجب الفقر فإنها تشير إلى وجود علاقة بين هذا الفعل الجسدي مع حالات النفس، ولعل من آثاره أنه يوجب ضعف الهمة وقلة الطموح فيقعد بالإنسان عن مزيد العمل حتى يكثر ماله، وإذا أكل الفاكهة والخضر النابتة في طبيعتها وفي موسمها لا ما كانت مصنعة في المزارع الصناعية فإنها تزيد من مناعة الجسد، وتبعده عن الأمراض، والأمراض من موجبات الفقر، وهكذا يقال في باقي التعاليم والأنظمة.

الثالث: أن المؤثر الحقيقي في الوجود هو الله سبحانه، وهو الذي يفيض الخير والرزق والصحة على البشر، وجعل لكل شيء سبباً، وهو من ورائه يفعل ما يريد، فإذا طابق الإنسان أعماله مع قوانينه وأحكامه كان مطيعاً لله سبحانه، فيفيض عليه من لطفه ورحمته، وإذا عصى وأعرض عن أحكام الله سبحانه تركه للأسباب والقوانين الحاكمة، وقد قال سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإن لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ**

حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً۝ قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾(١).

فالآية المباركة تبيِّن أسباب الشقاء معنوياً والآثار المترتبة عليها، فالذي يعرض عن ذكر الله سبحانه يرتكن إلى نفسه والى الأسباب الطبيعية في الوجود، ويقتصر في أعماله على حدود جسده، ويغفل عن الروح وعن وجود أسباب أخرى تؤثر في الوجود غير الأسباب الطبيعية كالدعاء والصدقة والعبادة، والأسباب الطبيعية قاهرة لا تتغير ولا تتبدل؛ لأن الإنسان هو نفسه لا يريد أن يلتجئ إلى من قننها ليغيّرها لأجله؛ لذا تستحكم به الأمراض والمشاكل ولا يجد لها علاجاً، ومهما تطور العلم فإنه لا يقدر على العلاج التام وإنّما يخفف المعاناة، وإذا عالج مرضاً ابتلي بمرض آخر، فبإعراضه عن ذكر الله صارت حياته ضنكاً - أي ضيقة بالمعاناة - بينما الذي يذكر الله سبحانه ويطيع أحكامه وقوانينه يعيش الراحة والسعادة.

وتبقى مشكلة المعرضين عن ذكره سبحانه فإنهم في القيامة يحشرون عمياً؛ لأنهم أعموا أنفسهم في الدنيا عن النور الإلهي ولم يبصروه، ولم يستنيروا بتعاليمه، فأطفؤوا عيونهم بأنفسهم، والإنسان يحشر في الآخرة على حسب ما كان عليه في الدنيا من أفكار وأعمال، فيحشر يوم القيامة أعمى لأنه أعمى نفسه في الدنيا، فإذا سأل لم حشرتني أعمى وقد كنت

---

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤-١٢٦.

بصيراً؟ يقول سبحانه: ﴿كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1] والمراد من النسيان الإهمال والإعراض، فكما أنّه في الدنيا تعامل مع الله سبحانه وأحكامه بالإعراض والإهمال ففي وقت الحساب الذي يحتاج فيه إلى الرحمة والرأفة يقابل بالإعراض، إذ كما يدين يدان.

ونستنتج من ذلك: أن السعادة بيد الإنسان، فإذا التزم بالتعاليم الإلهية يكون قد وفر في نفسه القابلية واللياقة لأن يبدل الباري له حياته إلى الأحسن، ويشفيه من علله وأمراضه، والطاعة والالتزام لها مظاهر ومصاديق، ومن مظاهرها العمل بما ورد في الروايات لتأديب الإنسان، فحينما يمشط وينام وينظف جسده أو داره أو يسمي أولاده ويأكل طعامه. هذه كلها تجعل الإنسان منسجماً مع السنن الإلهية في الوجود، وقريباً من رحمة ربه التي وسعت كل شيء، فيستحق الخير والبركة منه سبحانه، والنتيجة هي سعادته.

فكل تعليم من تعاليم الدين سواء كان من الأمور المهمة كالعبادات والمعاملات والأحكام أو من الصغائر كالأمثلة التي ذكرناها لها علاقة مباشرة في سعادته وشقائه، فمن التزم بها سعد، ومن أعرض عنها شقي. هذا ما يتعلق بالطريق الأول أي مطابقة العمل للشريعة.

الطريق الثاني: تقويم النفس، فإن النفس إذا تقوّمت اعتدلت، وإذا اعتدلت توافقت مع السنن الإلهية في الوجود فصارت محلاً للفيوضات

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٦.

الربانية كما يعبِّر أهل المعرفة، وتقويم النفس أمر صعب لكنه بالاختيار، ويمكن أن يصل إليه الإنسان، فإنّ أكثر شقاء الإنسان يعود إلى اختلال الميزان النفسي وعدم تعادل المزاج، واكتفي هنا ببيان واحدة من أهم علائم تقويم النفس؛ لعلاقتها بالتطير والطيرة، وهي حسن الظن بالله سبحانه، فإنّ التطير منشؤه سوء الظن بالله سبحانه؛ لذا قد يقع المتطير فيما يتطير منه لأنه أساء الظن بربه فلا يدفع عنه السوء والبلاء؛ لذا ورد في بعض الأخبار: ﴿لا ينجو من الفتنة المتطيرّون﴾[1]، أي الابتلاءات والشرور التي توقعوها تصيبهم؛ لأنهم أوقعوا أنفسهم فيها بسوء ظنهم بربهم الذي هو اختلال عظيم في النفس يكشف عن اختلال العقيدة وسوء المصير، وتقويم هذا الاعوجاج بحسن الظن بالله سبحانه.

وقد تضافر في الأخبار أنه سبحانه يكون عند ظن عبده، فإن ظن به الحسن نال الحسنى، وإن ظن الشر ناله، ويستفاد من الأخبار أنّ كل من يحسن الظن بشيء يصدّق الله ظنه، ويجري الأمر على وفق ظنه الحسن، ولذا ورد في ضمن أدعية الصلاة على الميت قول المصلين: «اللهم إنّا لا نعلم منه إلّا خيرا»[2] لتعتبر هذه شهادة منهم أنه كان على خير، وأنهم لا يعلمون منه إلّا الحسنى، وقد ورد في الأحاديث الشريفة بأنّ الله سبحانه يجيز شهادتهم، ويغفر لهم ما لا يعلمون من أسراره[3].

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٣٨٢، ح٤٨٧؛ البحار: ج١٤، ص٣٤، ح٤؛ الجواهر السنية: ص٩٣.

(٢) الكافي: ج٣، ص١٨٤، ح٤؛ الفقيه: ج١، ص١٦٤، ح٤٦٦.

(٣) الخصال: ص٥٣٨، ح٤؛ روضة الواعظين: ص٤٨٧.

ولعل هذا أيضاً من الفوائد المترتبة على صلاة الجماعة، فإن المأمومين أحسنوا الظن بالإمام وجعلوه واسطة بينهم وبين الله سبحانه في قبول صلواتهم فيقبل صلاتهم بحسن ظنهم.

ومثله يقال في استحباب الشرب من سؤر المؤمن تبركاً به، وشرب ماء زمزم، فإنه يوافق في الأثر نيّة الشارب وحسن ظنه به، وقد ذكر بعض اجلاء فقهائنا كالشهيدين قدس سرهما: وقد شربه جملة من الأكابر لمقاصد دينية ودنيوية فنالوها[١].

وهذا لطف ورحمة إلهية عظيمة، بل كشف سر من أسرار الوجود في التعامل مع الأشياء، ونيل المطالب والحاجات أن تكون بحسب نية الإنسان وحسن ظنه وتفاؤله؛ لذا ورد في الأحاديث: ﴿تفاءلوا بالخير تجدوه﴾[٢] وقد كثر في الأدعية الشريفة عن المعصومين عليهم السلام طلب حسن الظن به سبحانه؛ لما له من أثر بالغ في سعادة الإنسان ونيل مطالبه[٣].

ومن هنا نجد أن الأدعية تستجاب في بعض المواطن، وتنال الناس حاجاتها، فإنّ ذلك لا يدل على عظمة صاحب المكان بالضرورة، لاسيما إذا ثبت بالأدلة القاطعة أنه لم يكن على شيء يستحق التعظيم، ولكن إجابة الدعاء تكون لأجل حسن ظن الداعي بالله سبحانه، ولا علاقة له بصاحب المكان، فإن من يحسن الظن ينال ما يريد، سواء دعا في صحراء أو في بيته أو

---

(١) الدروس: ج١، ص٤٦٧؛ شرح اللمعة الدمشقية: ج٢، ص٣٢٩.

(٢) تفسير الميزان: ج١٩، ص٧٧؛ تفسير الأمثل: ج٥، ص١٧٤.

(٣) انظر الكافي: ج٢، ص٧٢، ح٢؛ البحار: ج٦٧، ص٣٦٦، ح١٤؛ ج٩٥، ص٩٥.

في أي مكان آخر. وهذه نكتة مهمة نلفت النظر إليها لكي نميز بين الأمور. ونفرق بين من يستحق التعظيم وببركته يجاب الدعاء، وبين من لا يستحقه، ويستجاب الدعاء ببركة حسن الظن بالله سبحانه.

ومعلوم أن حسن الظن بالله سبحانه ليس معناه الخلود إلى الراحة وترك العمل والتوسل بالأسباب، كلا فإنّ هذا من تسويلات الشيطان، ولعل البعض الذي يدعي أنه يحسن الظن بالله سبحانه ولا يرى أثره على حياته اكتفى بحسن الظن ولم يأخذ بالأسباب.

بداهة أن حسن الظن وحده ليس سبباً لحصول الأثار بل مقتضياً، أي يوفر الاستعداد والقابلية للنجاح، والسبب التام الذي يلازمه الأثر هو الأخذ بالأسباب مع حسن الظن بالله سبحانه كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام[1].

فالطالب الذي يريد النجاح في دراسته عليه أن يدرس ويتعلم ويتوجه إلى ربه بحسن ظنه بأنه يوفقه فإنه ينجح، ومعنى توفيقه أنه يعطيه ذهناً ذكياً، وحافظة قوية تحفظ ما يقرأ ويدرس، وقلباً مستقراً فلا يخاف ولا يرتبك في قاعة الاختبار، ويزيل عنه الصوارف والموانع في أداء الاختبار، و أيضاً يلين له قلوب الأساتذة فيوفقه للنجاح، ولكن بعد أن أدى ما عليه وسعى سعيه، فإن الباري يجد أن ما كان عليه فعله، والباقي هو عاجز عنه فإنه يجبر عجزه بقوته، ويعينه بسبب حسن ظنه به

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٢٢٩؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٤، ص١٧٣، ح٢١٦٠.

سبحانه، ولو كان سيّء الظن فإنه يحرم من هذه النعمة؛ لذا حسن الظن ينال النجاح، وسيء الظن يصاب بالفشل.

هذه الحقيقة تجري في كل عمل يريده الإنسان، وقد ورد عن النبيﷺ: «والذي لا إله إلّا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلّا كان عند ظن عبده المؤمن؛ لأنّ الله كريم بيده الخيرات، يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه»(١).

ويتحصّل: أنّ سعادة الإنسان وبلوغ مطالبه الدينية والدنيوية بيده، فما عليه إلّا أن يعمل بالأسباب ويحسن ظنه بربه ليصل إليها، فلو أقام نفسه على هذه المعرفة وجعلها سجيته كانت سعادته دائمة، وبخلاف ذلك لو ركن إلى الطيرة والتطير فإن تعاسته تكون دائمة.

(١) الكافي: ج٢، ص٧٢، ح٢؛ البحار: ج ٦٧، ص٣٦٦، ح١٤.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ
۞اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً
وَهُم مُّهْتَدُونَ

يس/ ٢٠- ٢١

الآيتان تكمل أحداهما الأخرى في المعنى لذا سنبحثهما في سياق واحد والبحث فيهما يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآيتين

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَجَاءَ﴾

الواو استئنافية للابتداء بمشهد آخر من الموقف وبها يتم إنهاء المحاورة، وجاء: أتى، ويفترق عنه في أن قول المتكلم (جاء فلان) كلام تام في نفسه ولا يحتاج إلى صلة؛ لأنّ مجيء الشخص بنفسه كاف في الدلالة بخلاف أتى فإنه يقتضي مجيئه بشيء معه[1] سواء مادياً أو معنوياً كما لو حمل خبراً يريد إيصاله. ومجيء الرجل من أقصى المدينة يفيد أنه جاء بنفسه وغايته نصرة الرسل، كما يفيد أنه ذو شأن وثقل ولا يكتسب ثقله مما يحمله، ومثله من شأنه أن يحمل خبراً جديداً أو مطلباً يقوله فينهي المحاورة بين الرسل وبين قومهم، وسد باب الحوار، ويجب سده لأن كل طرف قال مالديه، وفي عين الحال فتحتا باباً جديداً للتعليم وهو التعزيز والنصرة بقول رجل لم يكن حاضراً في مجلس الحوار حتى يقال إنه رجح كفة أحد الطرفين على الآخر كما تفيده الواو الاستئنافية أول الآية، ولم يكن من مركز المدينة حتى يقال كان على اتفاق مسبق مع الأنبياء، بل جاء من أقصى المدينة - أي منطقة بعيدة يصعب توهم الانحياز والاتفاق في حقه - وقد جاء لتثبيت صحة

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص١٥٢، (٥٩٤).

قول الأنبياء، ومن لطف قوله أنه لم يطالب الأنبياء بالدليل، ولم يسأل عن حجتهم، بل توجه إلى القوم وقال ﴿**اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ والسؤال الذي يخطر هنا من أين عرف أنهم رسل وأن حجتهم تامة حتى تجاوز النظر والاستدلال إلى العمل فأمر بالاتباع؟

المفردة الثانية: ﴿اتَّبِعُوا﴾

صيغة أمر يراد به الإرشاد ظاهراً والتكليف واقعاً؛ لأنه من الأمر بالمعروف، وأصله تبع الشيء تبعاً أي تلاه وسار على أثره وتبع الشيء سار وراءه وتطلّبه(١) وهذا ما قصده الرجل القادم من أقصى المدينة ونصح به القوم؛ ولذا لم يقل (امشوا) أو (سايروا) وغيرها من مفردات لأن المقصود الإتباع في الفكر أول ثم بالعمل والمشي والمسايرة لا تفيدان الاتباع في الفكر.

المفردة الثالثة: ﴿أَجْراً﴾

هو عوض العمل والانتفاع، ومنه الإجارة لأنها عقد يرد على المنافع بعوض(٢) وإطلاق النفي في قوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً**﴾ تتأسس قاعدة عامة مكونة من كبرى وصغرى تطبق في جميع مواردها يتميز بها الصادقون والكاذبون في الدعوات الإلهية، الصغرى ﴿**يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ والكبرى ﴿**اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٨١، (تبع).
(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٧، (أجر).

والنتيجة المنطقية لهذا البيان أن المرسلين لا يسألون أجراً وهم مهتدون، وبهذه النتيجة تبطل جميع الدعوات التي أصحابها يسألون أجراً وهم غير مهتدين، والمراد من الأجر ليس المال، بل كل نفع مقابل عمل أو نفع سواء كان مادياً أو معنوياً[(١)]، وهذه صفة مائزة بين أهل الدنيا وأهل الآخرة لو جعلها الناس نصب أعينهم لتمكنوا من تمييز النبي من المنتحل، والإمام من الغاصب للإمامة، والقائد الرباني من غيره، وكل صادق وكاذب في دعواه.

فإنّ أهل الله سبحانه لا يطلبون أجراً على ما يقدمون للناس من منافع، لا يطلبون حتى كلمة شكر على ما يفعلون، لأنهم لا يريدون إلّا وجهه سبحانه، وأما المنتحلون فهم إنما طلبوا الإمامة والزعامة لأجل الانتفاع والمنفعة، فيتظاهرون للناس بالحسنى ويتلاعبون بالكلمات والشعارات والأعمال والإنجازات لأجل مزيد من المناصب والأموال وإشباع غرور الشهرة والقوة والمدح والثناء.

وقد ورد أن موسى عليه السلام لما سقى لابنتي شعيب دعاه شعيب لضيافته، فجاءته إحداهما وقالت: ﴿**إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾[(٢)] ولما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء يتهيأ، فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعشى فقال موسى: أعوذ بالله. قال شعيب: ولم ذاك ألست بجائع؟ قال بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤، (أجر)؛ انظر مجمع البحرين: ح٣، ص٢٠٠، (أجر).

(٢) سورة القصص: الآية٢٥.

لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملك الأرض ذهباً، فقال شعيب: لا والله يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف، ونطعم الطعام[١].

ومن ذلك نستنتج أن الدعوات التي تدعو الناس إلى الإيمان بها والوقوف إلى جانبها بعضها مما يستحق وبعضها مما لا يستحق، والذي يستحق منها يتصف بصفتين:

الأولى: أن تنادي بالحق والحقوق وإحقاقهما وإبطال الباطل، وهذه تعرف من مبادئها ومنطلقاتها وما يماثلها ويضادها في الآثار كما قررناه سابقاً.

الثانية: أن لا يريد أصحابها الانتفاع و الوصول إلى الغايات الدنيوية من ورائها، فإنه لو كانت المصالح الدنيوية هي الدوافع لأصحاب الدعوة فإنها لا تستحق الإجابة وإن كان الشعار أو المبدأ الذي يرفعونه صحيحاً في نفسه، فإن البعض مثلاً ينادي باسم حرية الناس ويطالب بحقوقهم، وهذا في نفسه صحيح، ولكنه لا يطالب بذلك لأجل تحرير الناس، وإنّما جعل شعاره ذلك لأجل أن يحكم، أو ينال شهرة وجزاء؛ لذا لا يستحق الإجابة؛ ومتى ما تعارضت مصلحته مع مصلحة الناس سيقدم مصلحته على مصلحتهم والنتيجة هو خسارة الناس .

وبذلك يتضح أن البعض قد يدعي بعض المدعيات و لا يطالب أجراً بحسب الظاهر إلّا أنّ دعواه باطلة، فهو غير مهتد ولا يستحق الإجابة،

(١) مجمع البيان: ج٧، ص٤٢٩؛ البحار: ج١٣، ص٢١، ح٢٠.

وقد يدعي البعض دعوى صحيحة لكنه يطلب أجراً فلا يستحق الإجابة، وينحصر من يستحق الإجابة بمن تكون له دعوة حقة ولا يطلب أجراً - بمعناه العام الواسع عليها - هذا ما تبينه الآية المباركة.

وهو ميزان واضح ودقيق لأهل البصيرة حتى يتبصروا ولا ينخدعوا بالدعوات والشعارات سواء كانت باسم الدين أو باسم غيره.

وقد أشار الباري عزّ وجل إلى هذه الحقيقة على لسان هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ونصر الأنبياء لأنهم يدعون إلى الحق، ولا يطلبون أجراً على ما يعملون، وشاهده هو عمل نفس الرجل فإنه بادر وجاء سعياً من أقصى المدينة ليدعو الناس إلى الإيمان، ولم يرد من ذلك أجراً سوى أداء الوظيفة ونصرة الحق، وقد جاء في وقت الشدة، إذ هدد الأنبياء بالرجم والتعذيب، ولم يأت في وقت الرخاء، ومعنى ذلك أنه كان مستعداً لتحمل النتائج كالرجم والتعذيب، وهذه علامة صدق إيمانه، فإن كاذب الإيمان في وقت الرخاء يدعي الإيمان وإذا تضررت مصالحه ترك الإيمان وتخلى عنه.

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: رجولة حبيب النجار

أن من ينظر في منطوق الآيتين تثار عنده بعض الأسئلة:

من هو الرجل الذي جاء بهذه الهيئة والصورة وألقى نفسه في الأذى؟ ولماذا جاء يسعى من أقصى المدينة؟ ومن أين عرف أنهم رسل مهتدون فدعا القوم إلى اتباعهم لا النظر في أمرهم؟

والجواب عن السؤال الأول: أن أكثر المفسرين قالوا إن الرجل هو حبيب النجار[1]، ولكن الآية ذكرت الرجل ولم تذكر اسمه لسببين:

السبب الأول: لأنّ الموقف فيه تفان وإخلاص مجرداً عن الأنانية، فإن الرجل جاء يدعو الناس إلى تصديق الأنبياء، وعلله بأنهم لا يطلبون أجراً، وقد أفنى نفسه واستعد للقتل لأجل ذلك، ومثله لا يطلب الإسم؛ لأن ذكر الاسم فيه شيء من الجزاء والمكافأة، وهو ما لايتناسب مع مقتضى الحال.

السبب الثاني: أن التنكير هنا لا يراد به التحقير بل التعظيم؛ لأن النكرة تفيد الفائدتين، وتختلف بحسب مواطن الاستعمال والقرائن المحتفة. مثلاً:

---

(١) مجمع البيان: ح٨، ص٢٦٤؛ البحار: ج٦٤، ص٢٠٤، ح٤.

يقول القائل: (جاء رجل) ومراده كامل الرجولية، ويتمتع بمزاياها العالية، وتارة يقولها بقصد أنه رجل كسائر الرجال لا يتميز عليهم بشيء، وفي ظرف قاتم يحكمه الظلمة والمستبدون ويريدون قتل الأنبياء ورجمهم وحرضوا عليهم الناس - في مثل هذا الجو - لا يستطيع أن يتكلم ويتحدى إلّا الرجل الشهم الغيور الذي يتمتع بكمال الرجولية، ومن كمال رجوليته أنه عرض نفسه للقتل والتعذيب لأجل نصرة الحق والدفاع عن حجج الله سبحانه، فهو رجل يسع في فكره وهمته وشجاعته وتضحيته الرسالة الإلهية، وقد ورد بهمم الرجال تزول الجبال[1]، والمقصود أن همة الرجل الكامل الرجولة أصلب وأقوى من صلابة الجبال، فإن الجبال تزول بالمعاول ولكن مواقف الرجال وصلابتهم لا تزول بالصعوبات و لو قتلوا. هذا من حيث الصلابة، وهو البعد الكيفي للهمة، وهناك بعد آخر لها وهو البعد الكمي، أي سعة الهمة وضيقها.

فرجل يريد الحياة لأجله فيطلب كل شيء لنفسه، فيرى كل شيء له ولا يرى نفسه لأحد، وهذا أناني، وقيمته بمقدار أنانيته، ورجل آخر يريد الحياة لنفسه ولأهله ولعياله، وهذا أفضل من الأول لكنه أيضاً أناني، وآخر همّه حزبه، وآخر همّه قبيلته، وآخر همّه وطنه وبلده، وآخر همه العالم كله، وكل تلك همم، ولكن واحدة أوسع من الأخرى في الأنانية إلّا الهمة التي تسع العالم أجمع هي همة الرجل الكامل، وتلك لا تكون إلّا في أنبياء الله، وأعلاها وأوسعها وأكملها في رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام؛ إذ

---

(١) مقدمة في أصول الدين: ص٤٤١.

بُعث رحمة للعاملين، ولم يفضل عربياً على غيره، ولا أسود على أبيض، ولا ابن قبيلة على غيرها، بل قلبه يسع العالم كله، وكذلك خلفاؤه الأطهار، ولذا قالﷺ: «الناس كأسنان المشط سواء»[(١)] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس صنفإن إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق»[(٢)] فالعصبية جاهلية، ونلاحظ لطافة التعبير في القرآن بكلمة موجودة تأتي منكرة (نكرة) لتقيد كل هذه المعاني الواسعة.

وجواب السؤال الثاني يؤكد ما ذكرنا في معنى (رجل) فإن السعي يقال في الخير والشر، ويتضمن ثلاث حالات:

المشي السريع للوصول إلى هدف معين على أي وجه كان[(٣)]، ويتحقق بالسعي الجسدي كقوله سبحانه: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾[(٤)] أي بادروا إليها بجد وعزم على كل حال تكونون، ومنه السعي في مناسك الحج لتضمنه ذات المعاني، ويتحقق بالسعي القلبي في طلب المعارف والملكات الفاضلة.

---

(١) الفقيه: ج٤، ص٣٧٩، ح٥٧٩٨؛ وانظر تحف العقول: ص٣٦٨، وفيه: «الناس سواء كأسنان المشط».

(٢) نهج البلاغة: ج٣، ص٨٤، الرقم (٨٣)؛ تحف العقول: ص١٢٧، وفيها: (فإنهم صنفان).

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤١١، (سعى)؛ مجمع البحرين: ح٢، ص٣٧٥، (سعى).

(٤) سورة الجمعة: الآية ٩.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْانْسَانِ إِلّا مَا سَعَى﴾[١] يشمل سعيه في الخير وفي الشر، ونلاحظ أنّ الآية المباركة وصفت مجيء الرجل ساعياً أي جاداً قاصداً نصرة الرسل على حالته بلا تكلف واستعداد مسبق في لباسه أو شكله لكيلا يفوت عليه الدفاع عنهم وتخليصهم من القتل، وفي ذلك تعليم بليغ لكل مؤمن ومحب للحق أن يتصدى للدفاع عنه - وإن كان واحداً - على مقدار ما يستطيع، فلا يستوحش من طريق الحق لقلة سالكيه[٢].

اللطيفة الثانية: قوله من: ﴿أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾[٣] يدل على أمرين:

أحدهما: أن دعوة الرسل وصلت إلى المناطق البعيدة من المدينة ولم تقتصر على من كانوا في المركز أو في مركز الحكم والسلطة، وقد أسمعها الناس، وهذا من معاني قولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلّا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[٤] فإن البلاغ لا يكون مبيناً - وكان على الكل - إلّا إذا وصلهم، إلّا أن الذين يبدون التفاعل ويستعدون للدفاع هم القلة، وربما لا تجد في مدينة مثل أنطاكية - قيل إن دورها بلغت اثني عشر ميلاً[٥]، ونفوسها قد كانت تعد

---

(١) سورة النجم: الآية ٣٩.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص١٨١، الخطبة (٢٠١)، وفيه: (لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله)؛ كتاب الغيبة (للنعماني): ص٣٤، وفيه: (لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة من يسلكه)؛ المسترشد: ص٤٠٧، وفيه: (لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله).

(٣) سورة يس: الآية ٢٠.

(٤) سورة يس: الآية ١٧.

(٥) روح البيان: ج٧، ص٣٨٣؛ نفحات الرحمن : ج٥، ص٢٦١.

بالملايين - إلّا رجلاً واحداً يحمل الصفات الكاملة، والميل كما قيل مسافة مقدرة بمدَ البصر، وقيل ثلث الفرسخ، فكل ثلاثة أميال فرسخ[1]، ومعنى ذلك أن مساحتها كانت أربعة فراسخ مربعة، وإذا كانت مقدرة بمد البصر تكون أكثر.

ثانيهما: أن الذين يعيشون في أطراف المدن هم أبعد عن مراكز القدرة والمال والسلطة فلا تستطيع السلطات الظالمة من إفسادهم وتخريب نفوسهم وأفكارهم، فإن الذي يفسد الناس المال والسلطة، وهذه غالباً تجتمع في المركز. أما الأطراف فتبقى على طبيعتها الأولية؛ لذلك يكونون أكثر استجابة للحق والدفاع عن قضاياه من غيرهم، والواقع الخارجي والتأريخي يؤكد هذه الحقيقة، فإن الكثير من النهضات والأنشطة الإصلاحية تبدأ أولاً من المناطق الفقيرة والمعزولة ثم ترتقي وتتطور.

اللطيفة الثالثة: لماذا ذكر الأجر لا الهداية؟

رب سائل يسأل لماذا قدم حبيب النجار ذكر الأجر على الهداية مع أن الهداية تعني العلم وصلاح العمل، وهي عند أهل البصيرة أهم من الأجر؟ ولعل السبب في ذلك يعود لوجهين:

أحدهما: أنه تكلم على قدر عقول القوم، فإن أهل الدنيا يفضلون المصالح المادية على المعنوية، ويحبون المال والشهرة أكثر بدليل أنهم ينشغلون بها أكثر مما ينشغلون بالمعنويات، ولو أردنا أن نذكر الشواهد على ذلك فهي كثيرة جداً.

---

(١) مجمع البحرين: ح٥، ص٤٧٦، (ميل).

مثلا: قد تجد البعض يسعى لتحصيل المال ثم ينفقه لأجل طعامه ولباسه ورفاهه وهذا أمر جيد، ولكن لا يستعد لشراء كتاب لكي يتعلم ويتفقه مع أن قيمة العلم أكثر من قيمة الطعام، وقيمة العقل أعظم من قيمة الجسد لكن البعض هكذا يفكر في مأكوله ولا يفكر في معقوله.

وحينما تدخل كل البيوت تجد فيها مطبخاً للطعام وليس كل البيوت فيها مكتبة أو كتاباً، وقد تجد مباراة رياضية تقام يحضرها الآلاف المؤلفة ولكن محافل العلم والمعرفة قد لا يحضرها إلّا البعض، وهذه الآلاف تصرف من أوقاتها الكثير لأجل مشاهدة مباراة، وقد تجد أن المقاهي والحدائق مكتظة بالحاضرين لأجل أن يتمتعوا بذلك، وقليل منهم من يعطي من وقته جزءاً من ساعة لدخول المسجد، أو الحضور في محفل قرآني، أو الحضور عند العلماء لتعلم مسائل دينه ودنياه.

والبعض يجلس أوقاتاً لقراءة التقارير الرياضية والأخبار، ويعرف الكثير عن الرياضي الفلاني والرياضة الفلانية، ويحفظ تواريخ الألعاب وأسماء اللاعبين والأندية، ولكن لا يحفظ سورة من القرآن، ولايعرف أوليات أحكامه الشرعية، ولا ما له وما عليه من حقوق وواجبات، فيعيش سنين طوالاً من عمره ولايفقه شيئاً من دينه، مع أنه يعيش حياته الإنسانية في الدنيا وحياته الأخروية بالدين وتعاليمه لا بالمعلومات الرياضية.

والأعجب من ذلك تجد أن البعض يتحمس ويرهق أعصابه على حركة لاعب أو خسارة فريق لا يربطه به أي رابط سوى اللهو واللعب، وربما يطول الحديث بعد المباراة أياماً كثيرة يحرق فيها الوقت والفكر من دون أي

فائدة تذكر، ولكن لا تأخذه هذه الحرقة والهمة والحديث الطويل عن المنكر الذي يقع والعصيان والحقوق الضائعة. إلى مثل هذا يشير أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] فياليت العاقل ينتبه من نومته قبل موته ليصحح ما عنده من أخطاء قبل أن ينتبه وقد فات أوان التصحيح.

ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن الناس يميلون إلى المنافع المؤقتة المادية ولا يعطون أهمية تذكر للأمور المعنوية، مع أن الشرع لا يمنع الإنسان من الاستمتاع ببعض وقته بالرياضة ونحوها، ولكن يمنع أن يكون الاهتمام بالرياضة أكثر من اهتمامه بعقله وروحه وقلبه وحياته الأخروية، فيجب على الإنسان أن يوازن بين الأمرين، ويعطي لكل حقّه. هذا ما يؤدبنا عليه الدين، ولكن الكثير في غفلة حتى إذا انقضى شبابه و انتهى عمره ورحل إلى ربه صفر اليدين حينئذ يلتفت إلى مافرط وضيع في جنب الله سبحانه، فحبيب النجار قدم الأجر لأنه أهم لدى الناس من غيره.

ثانيهما: للإشارة إلى أن الرسل لا يحتاجون أحداً من الناس لا في أفكارهم وعلومهم ولا في أموالهم؛ لأنهم مهتدون، والمهتدي لا يحتاج إلى من يهديه، وهم يعملون بوظائفهم الإلهية لا يريدون نفعاً، فهم في غناء تام عن الناس، ورغم ذلك يتحملون مسؤولية إصلاحهم وإرشادهم وتعليمهم، ومثلهم ينبغي أن يحتف بهم ويكرموا ويتبرك بهم لا أن يرجموا ويعذبوا، لكن هذا شأن الأمم الجاهلة، فإنها لا تعرف قيمة علمائها ورسلها والمصلحين فيها، بل تقتلهم وتعذبهم وتتهمهم ولا تدفع عنهم سلطاناً غاشماً.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٦٦؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص٧٣، ح٤٨.

اللطيفة الرابعة: الصدّيقون الثلاثة

قد يقال من أين عرف حبيب النجار أنهم مرسلون مهتدون فدعا الناس إلى اتباعهم؟

وفي الجواب أقوال عديدة:

القول الأول: أنه عرف من المعجزات التي أظهروها فآمن، فقد ورد أن الرسولين الأولين لما قربا من أنطاكية رأيا شيخاً يرعى غنيمات له - وهو حبيب صاحب ياسين- فسلّما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم . نحن نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين. قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله، فأتي بهما إلى منزله، فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى[(١)].

وفي رواية الكافي عن الباقر عليه السلام إنه كان مكنعاً - أي أصابعه متشنجة ويابسة[(٢)] فردوا إليه أصابعه[(٣)]، وقيل: مقطوع اليد[(٤)]، ولا تنافي لتعدد الشواهد على أن الرسل أظهروا معاجز كثيرة في مواطن وأوقات متعددة.

(١) البحار: ج١٤، ص٢٦٥، ح٥٦؛ مجمع البيان:ح٨، ص٢٦٥.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ح٤، ص٢٠٤.
(٣) الكافي: ح٢، ص ٢٥٤، ح١٢.
(٤) الشافي في شرح أصول الكافي: ج٧، ص٣٣٦ هامش (٢).

القول الثاني: أنه استند إلى عقله، فقد كان رجلاً كاملاً فاستدل على صدقهم من قرينتين:

الأولى: أنه سمع مقالتهم، ووجد أنها تتضمن تعاليم عالية فيها صلاح الناس في معاشهم ومعادهم فأثبت وجود المقتضي لاتباعهم؛ لأن العقل يقضي بلزوم اتباع الجاهل للعالم.

ويمكن أنه استند إلى قاعدة تعرف الأشياء بأضدادها، فتعرف صحة دعوى الأنبياء القائمة على ثبوت الحق والعمل بمكارم الأخلاق وفضائل الصفات، بخلاف دعوى الكفار القائمة على عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

الثانية: أنه وجد انعدام المانع من اتباعهم، وهو انعدام الضرر المالي في الاتباع؛ لأنه سألهم عن ذلك وقالوا لا نتقاضى أجراً، والضرر المعنوي؛ لأن القوم كانوا كفاراً فهم واقعون في الضرر العظيم معنوياً، فدعوى الأنبياء مهما كانت لا تضرهم بمقدار ما هم فيه من الضرر، والضرر لا يعدو هذين الضررين، وبهذا - أي بثبوت المقتضي وانعدام المانع - تمت عنده شرائط الحجة عقلاً فأمر باتباعهم[١].

وهذا الاستنتاج والشكل القياسي المركب من الصغرى والكبرى الذي ذكرته الآية وما سيأتي في الآية التالية من الاستدلال يدل على أنه كان على مستوى عال من العلم والمعرفة، وهو ماتؤكده الروايات الشريفة.

---

(١) انظر تفسير نفحات الرحمن : ج٥، ص٢٦١.

فقد قيل: إنه آمن بمحمدﷺ وبينهما ستمائة سنة، وكان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أظهر دينه(١)، وتضافر بطرق الفريقين عن النبي المصطفىﷺ وصفه بالصدّيق، فقد روى الثعلبي في تفسيره: ﴿أن سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفه عين: علي بن أبي طالب وصاحب آل يس ومؤمن آل فرعون، فهم الصديقون، وعلي أفضلهم﴾(٢) ورواه غيره أيضاً(٣).

والسبّاق مبالغة من السبق، ولعله كناية عن أسبقيتهم في الإيمان والكمالات والفضائل كما يشهد له قوله: ﴿لم يكفروا بالله طرفة عين﴾ أو لعله إشارة إلى أنهم يسبقون الأمم في الآخرة، وأهل التوحيد يحشرون مع أئمتهم، وكذا أهل الكفر، فهم أئمة أهل التوحيد.

وفي أمالي الصدوق بسنده عن النبي المصطفىﷺ: ﴿الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس الذي يقول: ﴿**اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾(٤) وحزقيل مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم﴾(٥).

---

(١) بيان السعادة: ح٣، ص٢٨٧.

(٢) تفسير الثعلبي: ج٨، ص١٢٦؛ تفسير البرهان: ح٦، ص٣٩٢-٣٩٣، ح٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٢٩٠؛ تفسير القرطبي: ج١٥، ص٢٠؛ تفسير الآلوسي: ج٢٢، ص٢٢٥.

(٤) سورة يس: الآيتان ٢٠-٢١.

(٥) الأمالي:ص٥٦٣، ح١٨.

وفي رواية جابر بن عبد الله الأنصاري الثلاثة هم: ﴿مؤمن آل يس وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون﴾[١].

والصدّيقون جمع صدّيق وهو صيغة مبالغة في الصدق، ويطلق لمناسبتين:

الأولى: من يصدّق عمله قوله وظاهره باطنه، فهما متطابقان بخلاف الكاذب والمنافق.

الثانية: من يصدّق الحق ويداوم عليه فهو كثير الصدق[٢]، وهي صفة الأنبياء والأولياء، والى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ**﴾[٣] فالصديقون قوم دون الأنبياء في الرتبة والفضيلة، ويأتون بعدهم في الدرجة، ومن خصوصياتهم أنهم حيث صدقوا صدِّقوا فلا يجهلون ولا يخطؤون، ويشهدون الحقائق والأعمال، ويكشفون عن الأسرار والوقائع، وتلازمهم العصمة.

والصدّيق أبلغ من الصدوق، كما أن الصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق الصديقة[٤]، وهي كمال الصدق ومتابعته مع تمام الإخلاص فيه، وهذا ما كان عليه حبيب النجار.

القول الثالث: أنه علم بذلك من جوابهم؛ لأنهم دعوه إلى الإيمان فقال: أتأخذون على ذلك أجراً؟

---

(١) الخصال: ص١٧٤، ج٢٣٠.

(٢) انظر مجمع البحرين: ح٥، ص١٩٩، (صدق).

(٣) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ح٣، ص٤٠٠.

قالوا: لا، فأدرك بقوة بصيرته أن الذي لا يأخذ أجراً على الدعوة إلى الإيمان ويتحمل في سبيل ذلك العذاب ويعرض نفسه للموت لا يمكن أن يكون كاذباً[١]، فإنّ أهل الدنيا لا يتصفون بذلك.

اللطيفة الخامسة: لماذا لا يطلب الأنبياء أجراً؟

رب سائل يسأل: لماذا الأنبياء لا يأخذون أجراً على تبليغ الرسالة؟

والجواب: لأسباب عديدة. سبب ذكرناه سابقاً وهو أنهم عباد الله سبحانه، وعبد الله يفعل بمقتضيات العبودية التي تقوم على المحبة والإخلاص، وذلك كله يتنافى مع التعويض؛ لذا قال آل محمد عليهم السلام لدى إطعام المسكين واليتيم والأسير: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾[٢].

هكذا هم أولياء الله لا يطلبون فيما يقدمونه لله سبحانه أجراً ولا قولاً حتى كلمة شكر.

والآية المباركة هنا تضع علامة للمخلص في عمله، ولعلها من اللطائف القرآنية النادرة، فإن القرآن قلّما يضع العلامة على المقامات المعنوية وإنّما يكتفي بالإشارة، فمثلاً في قبول الأعمال وضع علامة عامة. قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[٣] ولكن من هم المتقون؟

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٩.

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٧.

والجواب: الذين يطيعون الله ولا يعصونه، أو غير ذلك من الصفات التي ذكرتها الآيات، وهذه العلائم هامة لكن توجهها عام، فالإخلاص في العمل الذي هو مخ العمل وروحه وضع له علامة في هذه الآية، وهو أن يكون لوجه الله، فلا يراد من ورائه جزاء ولا حتى كلمة شكر، أي لا تعويض ومكافأة عينية أو نفعية، ولا حتى كلمة شكر للمجاملة.

ولو أدى المؤمن عملاً وخدمة لأحد محبة لله سبحانه ولم يتوقع منه أي نفع ولا كلمة شكر فليعرف أن عمله كان خالصاً، وهذا هو الإكسير الأعظم الذي يرتقي بالعبد إلى المراقي العالية. أما لو قدم العمل وانتظر الجزاء أو حتى الثواب أو توقع المدح والثناء ففي إخلاصه شائبة الأنا، وباختصار أن العبودية تنافي الأجر.

والسبب الثاني أن طلب الأجر ينقض غرض البعثة؛ لأنه يوجب التهمة، ويجعل النبوة مصلحة والإيمان تجارة، بل يكون الأجر مناسباً للمستأجر فيحدده بحدود طلبه وأجره، ويوظفه لغاياته، وبهذا يكون المرسل تابعاً لا متبوعاً.

والسبب الثالث أن مطالبة الأجر أو توقعه على خلاف موازين العقل والحكمة؛ لأن المعنويات لا تثمن بثمن، خصوصاً هداية الناس وتعليمهم، وفي الأحاديث: ﴿لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس﴾[1] أي حينما تطلع الشمس كم يظهر لها من المنافع

---

(١) البحار: ج٣٢، ص٤٤٨؛ مرآة العقول: ج١٨، ص٣٦٦، ح٢؛ نهج السعادة: ج٢، ص١٥٨.

المادية على الحياة برمتها، فكل المخلوقات على الأرض تتقوم بالشمس وتنتفع، ولولاها لانتفت الحياة، إلّا أن هداية شخص واحد إلى الحق خير من كل هذا النفع.

فالمعنويات لا تقدر بثمن أبداً، فقيمة العلم والعالم لا يمكن أن تقدر بالأمور، وقيمة المحبة والإنسانية لا يمكن ان توضع في الميزان المادي، فلذا مهما قدر من أجر مادي للأشياء فإنه قليل، والعاقل لا يرضى بالقليل في مقابل هذا العطاء العظيم.

فأي عاقل يرضى بالأمور الفانية الزائلة في مقابل النعيم الدائم الذي لايفنى ولايزول؟ لذا جميع الأنبياء قالوا: لانسألكم أجراً[(١)]، وإنما ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلّا عَلَى اللّهِ**﴾[(٢)] فلأن العمل لوجهه الكريم فهو الذي يثمنه ويقدره، أما غيره فتقصر كل حسابات البشر عنه إلّا الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله فاق سائر الأنبياء في ذلك، فلم يطلب من أمته أجراً على نفسه، وأنما جعل أجره مودة أهل بيته عليهم السلام فقال: ﴿**قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[(٣)].

فجعل أجره صلوات الله عليه الذي يريده من الأمة التي هداها وعلمها وأوجدها أمّة متحضرة بين الأمم هو مودة أهل بيته، وهذا الأجر ليس له صلوات الله عليه، وليس لعترته، بل هو لأمته لصلاحها وسعادتها؛ لذا قال في آية أخرى: ﴿**مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ**

---

(١) انظر سورة الأنعام: الآية ٩٠؛ سورة هود: الآية ٥١.

(٢) سورة يونس: الآية٧٢.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢٣.

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[(١)] فجعل في قبال دعوته أجرين: أجراً على الناس وللناس هو المودة في القربى، وأجراً له فهو على الله سبحانه وهذا بيان عميق ولطيف ينبه الغافلين.

ما معنى مودة القربى وما هو ثمنها؟

وهنا سؤلان: ماذا تعني مودة القربى؟ وهل هذه المودة تقدر بثمن؟

أما السؤال الأول: فإن المودة مأخوذة من الود، وذهب بعض أهل اللغة إلى أن الود هو ميل الطباع إلى الشيء وتمني حصوله، وبعضهم فسره بالحب، وفسروا قوله تعالى: **﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾**[(٢)(٣)] بالمحبة في قلوب الصالحين[(٤)].

والتحقيق أن الحب والمودة يستعملان بمعنى واحد إذا افترقا، فيقال (أحب فلان) أو (أوده) وهو كثير الوقوع في الاستعمالات الشرعية، ولكن إذا اجتمعا ينبغي أن يتقدم الحب على الود، فيستهجن قول القائل: (أوده وأحبه) ولا يستهجن قوله: (أحبه وأوده) لأن كلمة الود في الأولى تُغني

---

(١) سورة سبأ: الآية٤٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٠، (ودد)؛ وانظر معجم الفروق اللغوية: ص١٧٤، (٦٨٦)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص١٨٤-١٨٥.

(٤) مجمع البحرين: ح٣، ص١٥٩، (ودد).

عن ذكر الحب، بخلاف الثانية، وهذا شاهد وجداني يدل على أن الود أخص من الحب.

فإن الود هو صفو الحب وخالصه كما قال بعض أهل اللغة[1] وصفاؤه يتميز بأمرين:

أحدهما: أنه لايكون إلّا عن معرفة بكمال المحبوب، فهو حب عقلاني بخلاف الحب فإنه قد يكون شهوانياً.

ثانيهما: أن الود يظهر على الجوارح بالقول والعمل بينما الحب قد يكون كامناً في النفس ولا يظهر، وهذا ما يشهدله قوله تعالى في العلاقة الزوجية: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2].

واللام للغاية، ومن إما جنسية أو بعضية، والفرق أن الأولى تفيد أن الزوج مخلوق إنساني مثلكم، والثاني أنه مخلوق منكم، وللكلام تفصيل لسنا بصدده الآن، والذي يهمنا في البحث أن المودة المجهولة هنا هو خلوص الحب الظاهر على الجوارح، وجعلت الرحمة مع الود لأن البشر يتغيرون بمرور العمر، فالشاب يشيخ، والجمال يتغير، والنظارة قد تذهب، والصحة قد تزول، فلا شيء من محاسن البدن يبقى على ما هو، وفي مثلها لا معنى للحب؛ لأن الحب لا يستطيع أن يحفظ العلاقة ويديمها، وإنما الود، وربما المودة أيضاً تزول

(١) بصائر ذوي التمييز: ح٢، ص٤٢١.

(٢) سورة الروم: الآيه٢١.

كما لو أقعد الزوج المرض، أو أقعد الزوجة وصار الواحد منهما يحتاج إلى من يخدمه ويعينه، فإن الرحمة تكون العلة المبقية لهذه العلاقة الإنسانية الرفيعة.

فالحب يمكن أن يكون علة محدثة للعلاقة الزوجية في أيام الشباب، ولكن لا يمكن أن يكون علّة مبقية، فإن الشاب إذا أراد الزواج قد يبهره جمال البنت، و البنت قد يبهرها جمال الشاب أو ماله، إلّا أن هذه الاعتبارات قد تكون سبباً للزواج ولكنها لا تكون سبباً لدوامه، وسبب الدوام يعود إلى المودة، وهي الحب المتبادل الظاهر على الجوارح، فهو يعمل ويكدح ويوفر لزوجته العيش الكريم، وهي تكدح لتدبر أمور بيته وتربية أولاده، وما يلازم ذلك من مشاعر وخدمة.

ولعل هذا الكدح ينتهي خصوصاً في أواخر العمر بالأمراض والعلل والأسقام، أو العوارض التي تصيب الرجل أو المرأة فتقعدهما عن المودة، فهنا يأتي دور الرحمة فتقوم الزوجة بمهام الرجل وتخدمه، ويقوم الرجل بمهامها، وهذه الرحمة شعور إنساني نبيل يتضمن الوفاء والإخلاص للعلاقة القائمة بينهما، ونلاحظ أن الآية المباركة لا تتحدث عن الحب في تكوين العلاقة الزوجية لسببين:

الأول: أن منشأ العلاقة هو الحب أولاً ولكن عبرت عنه الآية بالسكن؛ لأنه أنبل من الحب؛ لأن كل واحد من الزوجين يجد سكنه وسكونته وأطمئنانه الشخصي والاجتماعي عند الآخر.

الثاني: لأن الحب يتغير وربما يزول فلا يصلح سبباً لإدامة العلاقة الزوجية، بخلاف المودة والرحمة.

ونلاحظ أن الآية المباركة عبرت بالمودة دون الحب، وذلك شاهد على أن المودة أخص من الحب، وتتضمن معنى خلوص الحب وظهوره على الجوارح.

ومن جمال التعبير ولطفه أن نصت على أن المودة والرحمة يجعلان من قبل الباري عز وجل ولا اختيار للزوجين فيهما، فيكون من باب الوعد الإلهي الذي لا يتخلف، بل يلازم كل علاقة زوجية، وفي ذلك إشعار من الله سبحانه للبشر جميعاً بأنه سبحانه يحب العلاقة الزوجية ويبارك بها، ويحرم غيرها من العلاقات الشاذة.

ويشهد لهذا ما قد يصيب الزوجين بعض الخلاف وربما ينتهي إلى الشجار والزعل لكن بعد مرور فترة قد تجد أن الشجار انتهى، وعادت العلاقة حميمة من جديد، وكأن شيئاً لم يكن.

ولوكان هذا الشجار بين غير الزوجين لعله وصل إلى القطيعة، لكنه بين الزوجين يتصاعد ثم يهبط ويصل إلى الوئام، ولو راجع كل من الزوجين نفسه في ذلك يجد أن الرحمة والمودة تفور في قلبه تجاه الآخر من لطف الله سبحانه ورحمته، لذا سرعان ما يعودان إلى الود.

وهناك رحمة أخرى جعلها الباري عزّ وجل بين الزوجين وهي الأولاد، فإنها تنشئ علاقة رحمة ورحم لا تنفك بينهما إلى يوم القيامة، وعن بعض المفسرين أن المودة كناية عن الجماع، والرحمة كناية عن الولد[1]، وهو يرجع إلى ما ذكرناه، وفي الآية إشارة إلى حقيقتين هامتين:

---

(١) تفسير النسفي: ج٢، ص٢٧١؛ تفسير البيضاوي: ج٤، ص٣٣٢؛ تفسير نفحات الرحمن: ج٥، ص٩٦.

السكن الزوجي

الحقيقة الأولى: أنها نصت على أن الزواج فيه سكون وسكينة للزوجين ولكن من هو السكن؟

والجواب: أن السكن الزوجي نوعان سكن مادي وسكن معنوي، السكن المادي مهمة الزوج ومسؤوليته وهي من واجباته، والسكن المعنوي هو مهمة الزوجة؛ لذا قالت الآية (لتسكنوا إليها) لأن الزوجة هي مسكن روح الرجل وقلبه وجسده، فكما أن على الرجل أن يكد ويكدح ويعمل لأجل توفير السكنى للزوجة يجب على الزوجة أن تعمل وتجهد نفسها لتتعلم كيف تصنع من نفسها وأخلاقها ودارها سكناً بعيداً عن الاضطراب والتشنج، وكيف تجعل سكن زوجها عندها لا في الشوارع أو في أماكن أخرى، فالبيت الذي يقوم كل من الزوجين بمهامه هو أسعد البيوت، والبيت الذي يشعر أهله أنه أقرب إلى الورشة من شدة الصخب والضجيج والاختلاف فإنه ناشئ من تقصير أو قصور الزوجين في القيام بمهامهما.

والثانية: أن جعل المودة والرحمة يكون للزوجين معاً، فكل منهما يود ويرحم الآخر بجعل من الله سبحانه، وينبغي أن يلتفت إلى أن الجعل هنا بمعنى الإفاضة من الله سبحانه، ولكن الإفاضة وحدها لا تكفي لسعادة الأسرة، بل لا بد من توفير الاستعداد والأجواء المناسبة للإفاضة؛ لأن فاعلية الفاعل تتحدد بحسب قابلية القابل.

فإذا لوحظ انعدام المودة والرحمة في بعض الأسر فإن ذلك ناشئ من فقدان القابلية وانعدام الأجواء المناسبة بسبب قساوة الزوج أو الزوجة أو كليهما.

ومعلوم أن الإنسان إذا خرج بنفسه عن الرحمة - أي بسوء اختياره - فإنه يكون قد صنع شقاءه بنفسه، ولا يمكن أن يسعد إلّا إذا عاد إلى الرحمة وتعامل بالحسنى، فالمودة والرحمة كلاهما مطلوبان لديمومة الحياة الزوجية والأسرية، ولكن الجعل الإلهي متوقف على إرادة الزوجين لذلك، وذلك لايكون إلّا إذا سعيا لهما.

فيتحصل مما تقدم: أن المودة هي خلوص الحب الظاهر على الجوارح، و هو ما أمر به النبي المصطفى صلى الله عليه وآله أمته، وجعله أجراً لتبليغه وتعليمه لأمته؛ إذ قال: ﴿**قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1] وقد اتفقت كلمة المسلمين وتضافرت الشواهد والأدلة على أن القربى هم عترته وأهل بيته عليهم السلام، ولكن ما ينبغي الالتفات إليه أن المأمور به في الآية هي المودة وليست المحبة؛ لأن المطلوب ليس هو إظهار هذه المحبة على الجوارح.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

واجبات المودة

وهذه المودة توجب على الناس ثلاثة تكاليف أخرى بها تتحقق:

الأول: وجوب معرفة عترته وأهل بيته عليهم السلام باشخاصهم وأعيانهم، ومعرفة كمالاتهم وخصوصياتهم؛ لأن الود لا يكون إلّا بذلك.

الثاني: وجوب اتباعهم والانقياد لهم في القول والعمل، والمحبة القلبية وحدها لا تكفي في الأجر، فعلى علماء العامة والمفسرين والفقهاء منهم أن يفسروا المودة حتى يعرفوا هل الواجب هو مجرد الحب؟ وهل أجر الرسالة مجرد حب أهل البيت؟ ولو كان هذا لكان من تحصيل الحاصل؛ لأن كل الناس يحبون الكمال، ويحبون المحسن إليهم والصالح والعالم، فما هي ميزة أهل البيت عليهم السلام على غيرهم؟ فهل قيمة أهل البيت في أجر الرسالة كحب المحسن إليه للمحسن؟ وحب التلميذ لأستاذه؟ أم الواجب فوق ذلك وهو الطاعة والاتباع والتولي؟

الثالث: وجوب معاداة أعدائهم ومناوئيهم والبراءة منهم؛ إذ لا يمكن أن تكون المودة خالصة للنبي وعترته عليهم السلام إلّا بذلك، بل لا يعقل أن يحب المحب النبي صلى الله عليه وآله ويحب عدوه، أو يحب أمير المؤمنين وفاطمة عليهما السلام ويحب من حاربهما وقتلهما. هذا من التناقض.

فالإيمان الخالص الذي تصفو فيه المودة هو أن يكون خالصاً للنبي وأهل بيته عليهم السلام، وأما حبهم وحب عدوهم فهو من التناقض، ونتيجته هو عدم مودة النبي وآله؛ لأن المشاركة في الحب ينفي المودة موضوعاً، والمناطقة يقولون بأن النتيجة تتبع أخس المقدمات.

والحقيقة الثانية: أن الآية أمرت بالمودة (في القربى) وليس (للقربى) فإن في الظرفية تشير إلى أمرين:

أحدهما: وجوب خلوص المودة وتمحيصها لهم عليهم السلام ليكون حبهم وطاعتهم واتباعهم هو محور الحياة العلمية والعملية للمؤمن.

ثانيهما: لبيان أن محبتهم موضوعية وطريقية معاً، أي محبتهم في نفسها واجبة، وإطاعتهم والانقياد إليهم واجب أيضاً، وليست محبتهم طريقية فقط، وهذا ما يقال في مودة القربى.

والسؤال هل هذه المودة تقدربثمن؟

وللإجابة عنه لابد أن نسأل هل أجر الرسول على تبليغ الرسالة يقدر بثمن؟

فإن كان الجواب بنعم فعلى مدّعيه أن يقدره ويضع في مقابله قيمة تذكر، ولانظن أن حساب الدنيا يقوم له، وإن كان لا فإن العمل الذي لا يقدر بثمن فإن أجره المجعول أمامه لا يقدر بثمن مثله، وهنا يقف العقل وينبهر أمام هذا البيان اللطيف للآية، فإنه صلى الله عليه وآله نفى أن يسأل أجراً على تبليغه فقال: ﴿**لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً**﴾[١].

ثم استثنى وقال: ﴿**إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[٢] ومعنى ذلك أن الأجر الوحيد الذي إذا أراد أن تقابله به الأمة على هديه وتعليمه هو أن تتبع قرباه وتأخذ منهم العلم والعمل، فإن لم تفعل فما وفت للنبي صلى الله عليه وآله، بل جحدت

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

حقه، وماشكرت نعمته، فمهما عملت وصنعت فإن مصيرها المخالفة والعصيان وجحود النعمة، وهذه النتيجة توضح مفاد الروايات المتواترة التي جعلت قبول الأعمال والعبادات مرهونة بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام والعترة؛ لأن العبادة المأخوذة من غيرهم لا يرضاها الرسول، و مالا يرضاه الرسول باطل، بل إثم ومعصية؛ لأنه مصداق لمخالفته صلى الله عليه وآله[1].

فإن أعظم نعمة أنعمها الباري عز وجل على العباد بعد معرفته هي الولاية للنبي وأهل بيته عليهم السلام، فكما أن نعمة معرفته لا تقدر بثمن فإن الولاية لا تقدر بثمن.

وهنا سؤال إذا كان الأنبياء لايطلبون أجراً فكيف طلب النبي المصطفى أجراً وهو مودة القربى؟ والجواب يستدعي بيان مقدمة.

وخلاصتها: أن الأجر قسمان: تاره يكون بالمقابلة وتارة يكون بالمكافأة، أجر المقابلة كالشخص الذي تسدي له معروفاً فيسدي لك معروفاً. هذا أجر بالعمل، ومقابلة بالمثل، وهو قد يساوي الأول وقد يزيد عليه وقد ينقص، وتارة يكون أجر المكافأة، والتكافؤ يقتضي التساوي والتوازن بين الأمرين، وهذا لا يقدر على تشخيصه في المعنويات إلّا الله سبحانه، نظير أجرة الأجير مقابل العمل، وهو جزاء العمل بالمكافأة، فإذا كان أقل أو أكثر قيل لا يسوى. هذا في الماديات، ولكن في المعنويات فإنها لا تكافأ

---

(١) غاية المرام: ج٣، ص٥٩، الباب السادس والأربعون، وفيه من طرق العامة ستة عشر حديثاً؛ الجواهر السنية: ص٣١٣.

بثمن، ولذا لا يكافئها إلّا الله سبحانه، وأجر النبيﷺ من باب المقابلة هو المودة المجعولة على الأمة، وأما من حيث المكافأة فلا يكافئها ثمن، ولا يعرفه إلّا الله سبحانه.

وهذا الأجر ليس للنبيﷺ، بل هو للأمة نفسها؛ لأجل أن تكون على نهج مستقيم وهداية ربانية عالية وعلم وعمل يرفع من شأنها بين الأمم، بل يجعلها سيدة على الأمم؛ لذا قال: ﴿**مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ**﴾[(١)] لكن الأمة لم تقابل هذه النعمة العظيمة بالطاعة، فالأجر الذي طلبهﷺ هو أجر مقابلة، وهو للأمة وليس لهﷺ، فإن أجره من حيث المكافأة لايقدره إلّا الله سبحانه، ولو أعطي خير الدنيا وما فيها لا يكافئه، بل إن خير الدنيا لا يقوم لهداية انسان واحد كما مر، فكيف بها هو هادي الأمم أجمع؟

ومن هذا الفهم يتضح لماذا أنبياء الله سبحانه لا يطلبون من الناس أجراً، فإن أجر ما قدموه للبشرية لا تقوم له خيرات الدنيا، فلا يعوضه إلّا الله سبحانه، ويتضح مما تقدم أن الأقوال الثلاثة غير متنافية، فالقول بها بلا مانع. يبقى الكلام في التعاليم المستفادة من الآية المباركة.

---

(١) سورة سبأ: الآية ٤٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين

تضمنت الآيتان تعاليم عديدة نستعرضها على التوالي:

التعليم الأول: القائد الذي يجب اتباعه

أن القائد الذي يستحق الاتباع في كل مجال يجب أن يتصف بصفتين:

الأولى: أن يكون مهتدياً في نفسه بأن يكون عالماً خبيراً فيما يدعو إليه لا جاهلاً أو قاصراً يحتاج إلى من يرشده ويهديه، وهذه النتيجة برهانية ويقضي بها العقل أيضاً، فإن العلم مما ينبغي أن يتبع ويطاع، وفي الآية شاهد آخر على ما يقوله الإمامية من أنّ الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه أعلم الأمة وأتقاها وأزكاها، وهو مهتد بنفسه بخلاف غيره.

الثانية: النزاهة من المصالح والأغراض الفاسدة، ونزاهته وتجرده عن الإنانية تدعوه إلى أمرين:

الأول: أن ينزه أساليبه وأصحابه من المكر والخديعة؛ لأن الغاية عند النزيه لا تبرر الوسيلة.

الثاني: أن يتخلى عن مصالحه لأجل أهدافه وغاياته، بل يبذل من نفسه لأجل الآخرين، ويؤثرهم عليها، وهذه ليست إلّا في رجال الله سبحانه، وقد ورد في هذا عن ابن سنان عن أبي حنيفة سابق الحاج قال: مر بنا المفضل وأنا وختني نتشاجر في ميراث فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا

إلى المنزل، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديهما من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام [(١)].

وفي الرواية دلالة على أنه عليه السلام كان قد خصصه لهذه المهمة لكيلا يفكك الخلاف والنزاع بين الناس، وهذه رؤية عظيمة للقائد تجاه رعيته.

وسابق الحاج لقب كل من يتأخر عن الحاج ثم يعجل بهم بالوصول، وكان منهم أبو حنيفة يبعث بجمعية الحاج من الكوفة ويوصلهم في تسعة أو أربعة عشر يوماً - وهي مدة قصيرة بالقياس إلى المسير الطبيعي، وقد ورد الذم لمنتحل هذه المهنة، ووصف بأنه خاسر الحاج؛ لأنه يتعب البهيمة ويسرع وينقر في الصلاة - لأجل بلوغ المقصد، والختن زوج البنت أو الأخت، وقيل: كل من كان من قبل المرأة[(٢)].

ومنطوق الرواية يدل على الفرق الكبير بين القادة الربانيين وبين غيرهم، فالقائد الرباني يضحي بمصالحه، ويعطي من نفسه من أجل إصلاح الأمور، وأما غيره فيعطي من قوت الناس ومصالحهم لأجل مصالحه، وهذه ضابطة تنطبق في كل زمان ومكان، وتنجي الناس من الخديعة والغرور بالأسماء والعناوين والشعارات.

---

(١) الكافي: ج٢، ص ٢٠٩، ح٤؛ التهذيب: ج٦، ص٣١٢، ح٨٦٣؛ الحدائق: ج٢١، ص٨٤.

(٢) الشافي في شرح أصول الكافي: ج٦، ص٢٨١ هامش (١) و(٢).

التعليم الثاني: وجوب المبادرة لنصرة الحق

أن على المؤمن أن يبادر إلى نصرة الحق أينما وجده، فإن الدفاع واجب، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلّا أن الأساليب قد تختلف من شخص لآخر، ومن حال لآخر، فالوقوف موقف المتفرج على الظلم مع القدرة على رفعه معصية كبيرة، وخروج عن الإنسانية، وضرب الله سبحانه مثلاً لهذا برجلين وصفتهما الروايات بالصديقين هما حبيب النجار مؤمن آل يس وحزقيل مؤمن آل فرعون؛ إذ تحدث القرآن الكريم عن موقفهما في نصرة الرسل والأنبياء، فمؤمن آل ياسين جاء من أقصى المدينة يسعى وتجاهر بإيمانه وحث الناس على اتباع الرسل الذين جاؤوا من قبل عيسى عليه السلام ليدفع عنهم القتل، ومؤمن آل فرعون كذلك جاء من أقصى المدينة لنصرة موسى عليه السلام ليدفع عنه القتل.

والنكتة اللطيفة هنا أن القرآن تحدث عنهما بآيتين اشتركتا في مفردات المنطوق ولكن تفاوتتا في ذكر الرجل، فواحدة ذكرت حالته ثم ذكرته، والأخرى ذكرته ثم ذكرت حالته، ففي حبيب النجار قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾[1] وفي حزقيل قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ**﴾[2].

---

(١) سورة يس: الآية ٢٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٠.

والآيتان تدلان على أمرين اشترك بهما الرجلان:

الأول: أن كلاً منهما كان مؤمناً يكتم إيمانه.

الثاني: كلاهما متصدياً لنصرة الرسل والدفاع عنهم في جو مشحون برقابة السلطة.

أشار إليه الفعل (جاء) فإنه ورد في الآيتين ولم يرد (أتى) مثلاً، مع أن كليهما يدلان على القدوم والإقبال؛ لأن جاء يفترق عن أتى بفوارق عمدتها اثنان:

الأول: أن أتى يستعمل في القدوم بسهولة ويسر بينما جاء يستعمل فيما كان القدوم بمشقة وصعوبة[١].

والثاني: أن المجيء يقال لما كان من مكان بعيد. أما الإتيان فيكون من مكان قريب، وتتبع موارد الاستعمال في الآيات المباركة يشهد لهذه الحقيقة.

والخلاصة: أن الرجلين كانا في أجواء مشحونة بالرعب والرقابة السلطوية تصدياً لمهمة الدفاع عن الحق، فهما بهذا مشتركان، ولكن يتميز حبيب على حزقيل بالمقام والرتبة من وجوه:

الوجه الأول: أنه جاء من أقصى المدينة يسعى واظهر إيمانه في جو قاتم ينتهي به إلى القتل، وقتل كما في رواية الباقر عليه السلام[٢]، بينما حزقيل ظل كاتماً لإيمانه ولم يقتل.

---

(١) انظر دقائق الفروق اللغوية في البيان القراني: ص٢٠٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٥٥، ح١٢؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩٢، ح٢؛ البحار: ج٦٤، ص٢٠١، ح٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج٢٦، ص١٣١، ح٣٤٧.

فانطبق على حبيب عنوان أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، بل نال الشهادة في سبيل الله سبحانه، ويشهد له أن الروايات التي ذكرت الصديقين الثلاثة قدمت ذكر مؤمن آل ياسين على مؤمن آل فرعون.

الوجه الثاني: أن حزقيل كان في قصر فرعون ومن الأسرة الحاكمة، وقيل: إنه ابن عم فرعون(١)، وذكر بعض المفسرين أن علاقته بفرعون كانت وثيقة بحيث يشترك معه في مجالسه(٢)، وعلى هذا فهو صاحب قدرة ونفوذ، بخلاف حبيب فإنه رجل فقير كان يرعى غنيمات له، والتحدي الذي يقوم به صاحب السلطة والنفوذ غير التحدي الذي يقوم به الفقير المحروم وإن كان لحزقيل قوة عظيمة وكمال رباني حتى كان - وهو في بلاط فرعون - يؤمن بموسى وينصره، فإن وجود الإيمان بين السلطة والمال يكشف عن بصيرة عالية ونزاهة وتجرد عن الدنيا ومغرياتها.

الوجه الثالث: مستوى العمل، فإن حبيب النجار خاطب الناس وحرضهم على الإيمان، فحركته أشبه بحركة جماعية عامة، ويتعامل مع الجاهلين والقاصرين من الناس، ومستوى همته وطموحه كان هداية هؤلاء جميعاً، وهي مشقة كبيرة، بخلاف حزقيل فإنه كان يحمل خبراً خاصاً لموسى عليه السلام وهو أكمل أهل الأرض في وقته.

وبذلك يعرف أن السبب في تقديم الرجل في الآية الثانية على الأول قد يعود لنكتتين:

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٨، ص١٣١؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص١٦.

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج ١٢، ص١٥٢.

الأولى: أن حزقيل كان يقطن قصر فرعون وبيوت الملوك والسلاطين لا تكون في مركز المدينة عادة، بل في أقاصيها؛ لصفاء هوائها وجمالها وابتعادها من صخب المدن، فمجيء حزقيل كان من القصر بعد أن عرف أن القوم يتآمرون بموسى ليقتلوه. أما حبيب فمجيئه كان من مكان ناء؛ وليس سكنه هناك، بل لأنه كان هناك لأداء عمل كرعي الغنم الذي يكون في خارج المدينة.

والثانية: لأن الغاية في آية حزقيل هو إيصال الخبر لموسى عليه السلام وهو مهمة المخبر، بخلاف آية حبيب فإن الغاية هو إنقاذ الأنبياء من القتل، وهذه المهمة تتحق بالمجيء بغض النظر عن الناصر من هو.

التعليم الثالث: الإشارات العلمية للآيتين

تتضمن الآيتان الكريمتان إشارات إلى بعض الأحكام الأصولية والفقهية والمنطقية هي مدار بحث ونقض وإبرام:

الأول: أن خبر الواحد حجة على السامع. يستفاد ذلك من قول حبيب النجار (ياقوم اتبعوا المرسلين) فإنها جملة إنشائية في مقام الإخبار، وظاهر الآية أنها في مقام المدح لإخباره وذم القوم الذين كذبوه، فيدل على أن تصديق خبر المخبر واجب، ومن تنكير (رجل) يستفاد أن خبر مجهول الحال معتبر، وأن الأصل في إخبارات المخبرين هو التصديق إلّا إذا قامت القرينة على الكذب، وهذه نتيجة هامة قامت عليها سيرة العقلاء، فإن المعروف من طريقتهم أنهم يصدقون خبر المخبر ما لم يعلموه بالكذب أو يتهموه بذلك.

وعلى هذا الأساس قال جماعة من الأصوليين بأصالة الصدق في المخبرين، ولازم ذلك أن يكون التضعيف يحتاج إلى دليل لا التوثيق، وهذه نتيجة هامة لو تمت تتغير بعض الطرق العلمية في التوثيق والتضعيف.

الثاني: جواز شهادة الشاهد بما يعلم عن حس أوحدس، وهذه نتيجة فقهية هامة في باب الشهادات، فإن حبيب النجار لا يخلو إما علم بصدق المرسلين بالآيات التي أقاموها أو توصل إلى ذلك باستدلاله العقلي كما بيناه، وعلى التقديرين ارتضى الباري عز وجل شهادته، وجعلها من علائم إيمانه وكمال رجولته.

نعم يجب أن تكون الشهادة بما يعلم لا بما وقع؛ لأن ما وقع لا يعلمه وإنما يعلم صدق الأنبياء فيشهد لصدقهم، ومثل ذلك يقال في قضية ذي الشهادتين الذي شهد للرسول المصطفى ﷺ أن الجمل الذي ادعاه رجل عليه هو للنبي ﷺ ولما سأله النبي ﷺ عن سبب شهادته ولم يحضر الواقعة قال: نحن نصدقك فيما تخبر عن عالم الغيب فكيف لا نصدقك فيما تخبر عن عالم الدنيا الزائفة؟ فإنها تتضمن إقرار النبي ﷺ للشهادة بالعلم وللشهادة بالحدس.

بل قررنا في الفقه جواز شهادة الشاهد بما علم ولو من طريق العلم التعبدي، نظير الشهادة على الوقف، فإنه يصح الاعتماد على الشياع والاستفاضة، أو إقرار صاحب اليد، أو الأوراق الثبوتية للشهادة بالوقفية، كما تصح الشهادة على ملكية الشخص للدار استناداً إلى الاستصحاب، وكذا الشهادة على الزوجية إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة، وقد وردت في

بعض الروايات المعتبرة[1]، وقد خالف في ذلك بعض الفقهاء إلّا أن مخالفتهم غير سديدة، ويعزز عدم السداد شهادة حبيب النجار للرسل، فإنها مستندة إلى الحس أو الحدس وقد أقرها الباري عزّ وجل.

الثالث: جواز تقاضي الأجر مقابل الأعمال المعنوية بما فيها العبادات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعليم والتبليغ والارشاد ونحوها؛ لقولة تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً**﴾[2].

فإنه في مقام بيان فضل الأنبياء على الإنسان، فيدل على أن العمل في نفسه مما يستحق الأجر لكنهم لا يطلبونه، وإلّا لم يكن فضلاً ولا من موجبات المدح، وتحديد مقدار الأجر فيما كان من الأمور الحقية بيد أهل الخبرة، وفي غيره بيد العرف، إلّا أن من محاسن العامل خصوصاً فيما يتعلق بعمل الآخرة أن لا يطلب أجراً على عمله، ولكن يجب على من استعمله أن يعطيه الأجر لأنه من حقوقه.

الرابع: جواز الاستدلال بالبرهان المنطقي على النتيجة بتكوين صغرى وكبرى ونتيجة كما استدل بذلك حبيب النجار.

---

(١) انظر فقه القضاء والمحاكم: ج٢، ص٣٩٦.

(٢) سورة يس: الآية ٢١.

وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

يس/ ٢٢

تضمنت الآية المباركة أبحاثاً مهمة نستعرضها على التوالي:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَمَا لِيَ﴾

لا كلام في أن الواو عاطفة أو استئنافية، وعلى كلا التقديرين المعنى واحد كما لا كلام في أن ﴿مَا﴾ استفهامية، وإنما الكلام الواقع بين المفسرين في أن قوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ هل استفهام تقريري أم استنكاري؟

وتقدير الأول لماذا لا أعبد الذي فطرني؟ كناية عن استحقاق العبادة فينبغي أن أعبده.

وتقدير الثاني ولمَِ لا أعبد الذي فطرني وهداني فلو قدّر أن لا أعبده فإني في ضلال، والظهور يؤيد الثاني، وعليه الأكثر[1]، ولا ثمرة بين الصيغتين لرجوع الاستنكاري إلى التقريري لأنه غايته.

المفردة الثانية: ﴿لاَ أَعْبُدُ﴾

لا نافية، وأعبد فعل مضارع يفيد دوام العبادة، والمراد بالعبادة الطاعة والخضوع والتذلل لمن له غاية الأفضال[2] ولذا لا تصلح إلّا لله سبحانه

---

(١) انظر البيان: ج٨، ص٣٤٢؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٨؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص٧٧.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٤٩، (١٣٩٦)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩٢، (عبد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٦٥، (عبد).

فهي أخص من الطاعة، وهي تعريض بموقف القوم الذين خاطبهم حبيب النجار عليه السلام؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام من دون الله تعالى.

المفردة الثالثة: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾

الذي اسم موصول يراد به الفاطر، أي الخالق بالابتداع، وقوله: ﴿فَطَرَنِي﴾ أشار إلى أمرين:

أحدهما: أن الذي يستحق العبادة هو الخالق الذي يوجد المخلوق لا على مثال سابق، ولا يستعين بشيء عليه، وهذه قضية بديهية تعود إلى أصل التكوين؛ ولذا ورد في الأخبار تعريف الفطرة بالمعرفة، وأن الله سبحانه فطر العباد على معرفته[(١)].

ثانيهما: أن عبادة الأصنام مخالفة للبديهة ومناقضة لحكم العقل والفطرة؛ لأنها ليست فاعلة ولا خالقة لا ابتداءً ولا دواماً واستمراراً، وليست نافعة لمن يعبدها بشيء من النعم.

المفردة الرابعة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ومرجع الضمير هو الفاطر، ولم يسمه لأنه أراد إثبات القاعدة التي ينبغي أن يستند إليها في المعرفة والعبادة قبل تعيين المصداق، ومفادها أن الخالق هو الذي يستحق العبادة لا غير، وهذه حقيقة كانوا يدركونها بوجدانهم؛ لأن الآلهة التي يعبدونها ليست خالقة، ولو كان يعيّن لهم

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٣٠٢، (فطر).

المصداق لاستفزّ عداءهم وعنادهم، وبقوله: ﴿**تُرْجَعُونَ**﴾ بضم التاء يلفتهم ويحذرهم بلطف، أنّهم سيرجعون إليه ويحاسبون على جحودهم وعنادهم، فليس رجوعهم إليه باختيارهم حتى يفكروا بالهرب منه، ومن كان الرجوع إليه حتمياً وقهرياً ينبغي أن يحذر منه.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أسباب الاستفهام

إن صيغة الاستفهام لا تكون جزافية، بل لابد لها من سبب، ويدور بين ثلاثة:

الأول: الجهل، فيستفهم الجاهل لأجل الوصول إلى العلم، كمن لا يعلم بحلول الليل فيسأل هل حل الليل؟

الثاني: إظهار فضل المسؤول عنه؛ اذ يكون العلم موجوداً ويستفهم لأجل بيان فضل ما يسأل عنه بسؤال العارف، نظير قوله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾[1].

وهذه الآية تتضمن العجائب؛ لأنّ الباري هو السائل العالم بكل شيء فلماذا سأل موسى عليه السلام ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى**﴾ ولا شك في أن سؤاله ليس للاستعلام، بل لبيان خصوصيات وآثار العصا التي بيمينه، ولولا هذا السؤال لم تكن تتميز عن باقي العصي، ولم يعرف الناس آثارها وبركاتها

(١) سورة طه: الآيتان ١٧ – ١٨.

التي بها تفجرت الصخور أنهاراً، وانشق البحر لموسى، والتهمت أفاعي السحرة، ومن هذا القبيل تكون الأسئلة التي سألها أمير المؤمنين عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر الأئمة عليهم السلام من بعضهم.

واللطف الفائق ورد في جواب موسى عليه السلام، حيث أخذ يفصل فيه للسائل العالم فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ نسبها لنفسه ولم ينسبها لربه لبيان مزيد الاختصاص، وللإشارة إلى أن هذه آيته ومعجزته، وأنّها عصا موسى عليه السلام الربانية التي ستصنع العجائب، وليست كعصي سائر الناس.

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ ولا يراد به توكؤ البدن فقط؛ لوضوح أن العصا يتوكأ عليها، فحصر المعنى به يكون من توضيح الواضح، فلابد وأن يراد به أيضاً توكؤ المقام والرسالة، فإنّ حجة موسى عليه السلام وبرهانه يقوم على هذه العصا، وقد تقدم البحث في أن أحد وجوه الجمع بين النصين الظاهر والباطن هو ملاحظة وحدة الأثر، أو التوسعة في المفهوم والجهة.

و: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾[1] ويطلق الغنم اصطلاحاً على الحيوان الخاص، ولا يبعد أن يراد المعنى اللغوي، وهو كل ما فيه الغنيمة فيشمل المعنيين، فيكون مفاد الآية هو أنه عليه السلام بهذه العصا يجمع سائر حججه وآياته ويقدمها للفراعنة المتكبرين لأجل أن يؤمنوا، فإنّ طغيانهم لا تكفيه آية واحدة، بل آيات كثيرة، فكما أن موسى عليه السلام يهش بعصاه ويهز بها الأشجار لتسقط أوراقها فتأكلها أغنامه وتحيا بها الحياة البدنية فإنّه

---

(١) سورة طه: الآية ١٨.

يهزّها لتخرج منها الحجج والآيات الإلهية لتحيا بها العقول والأرواح، وللكلام تفصيل ليس هنا مجاله.

والأعجب من ذلك قول موسى عليه السلام لربه تبارك وتعالى: ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾[(١)] هذا الإجمال والإبهام لماذا؟ وعلى من يبهمه؟ على العالم المحيط بكل شيء؟ وهذا أيضاً له أسرار ولطائف نوكله لمحله.

ونلاحظ أن سؤال الباري عزّ وجل من موسى عليه السلام لم يكن استفهام استعلام، بل سؤالاً غايته بيان فضل العصا وبيان خصوصياتها وآثارها.

الثالث: تحصيل الإقرار الجزمي، فيكون الاستفهام ناشئا من وجود الظن أو الشك في المسؤول عنه، ويراد به الانتقال من الظن والشك إلى اليقين، والوصول إلى الإقرار، كقوله تعالى: ﴿**أَأَنتَ فَعَلْتَ هذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ**﴾[(٢)] مع أنّهم أي نمرود وأتباعه كانوا يظنون أنّ الذي فعله هو إبراهيم؛ لأنّ هناك من أخبرهم بأنّ الذي فعله هو إبراهيم عليه السلام كما أخبر تعالى عن ذلك في قوله: ﴿**قَالُوا مَن فَعَلَ هذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**﴾[(٣)] والإخبار هنا كان جماعياً بقرينة الجمع في قوله: ﴿**قَالُوا**﴾ وهو يفيد الاستفاضة في النقل التي عادة تفيد الظن القوي، إلّا أنّ المخبر لم يخبر بأصل الفعل، بل أخبر عن ذكر

---

(١) سورة طه: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٢.

(٣) سورة الانبياء: الآيتان ٥٩-٦٠.

إبراهيم عليه السلام للآلهة بسوء وكشف عيوبها، وهذا صار قرينة أوجبت التهمة، والتهمة ظنية خاصة وأنّ الخبر سماعي، فهم ظنوا أنه فعل ذلك اعتماداً على القرينة، فسألوا ليرتقي ظنهم إلى اليقين وانتزاع الإقرار منه.

وهذا النحو من السؤال يرد في مواطن الاستدلال والاستنتاج، فإن البحث العلمي يجب أن يتصدر بسؤال، ثم يتم البحث لأجل الوصول إلى الجواب الشافي فيه، وقد تعوهد في الأبحاث والدراسات والرسائل الجامعية وغيرها أن كل بحث يجب أن يتصدر سؤالاً أصلياً وجملة أسئلة فرعية يدور البحث عن الإجابة عنها.

ميزة البحث العلمي عن غيره

وهذه ميزة البحث العلمي عن التأليف والجمع في الكتابة، ولذا يسمّى بحثاً؛ بداهة أن البحث يتضمن معنى التحرّي والفحص والاستقصاء، والمباحثة يقال لها مباحثة لأنّها تتضمن جملة من الأسئلة والاستفهامات يراد الوصول إليها بالحوار، وهذا النهج اتبعه حبيب النجار عليه السلام، فابتدأ أولاً بالإخبار عن صدق الأنبياء، ثم الشهادة لهم، وحثّ الناس على اتباعهم، فجاء من أقصى المدينة يسعى. قال: ﴿**قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾(١) ولكن الشهادة لا تكفي في مقام الاحتجاج في الأبحاث الفكرية والعقدية لأسباب ثلاثة:

---

(١) سورة يس: الآيتان ٢٠-٢١.

الأول: لأنّ البحث الفكري يقوم على العلم، والشهادة تفيد الظن.

الثاني: لأنّ الشهادة تتوقف على وثاقة الشاهد وصدقه وهذا مفقود في محاورات الكفار مع المؤمنين.

الثالث: لأنّ الشهادة تقوم على الحس، والفكر يقوم على الحدس والاستدلال فالشهادة لا تفي بالغرض ولا الإخبار يكفي، وعلى هذا الاساس انتقل حبيب من الخبر والشهادة إلى الاستدلال والاستنتاج لإثبات أمور:

أحدها: أنّ ما يقوله الأنبياء صحيح ويقضي به العقل السليم والفطرة، وبالنتيجة هو موافق للوجدان.

ثانيها: أنّ شهادته في حقهم لم تكن سطحية أو عن جهل، بل عن علم ومعرفة.

ثالثها: أنّ ما يدعوهم إليه هو ما يؤمن به ويعمل بمقتضاه.

وبذلك يكون قد انتقل بهم من الشهادة التي هي ظنية إلى الاستدلال العلمي الذي يفيد العلم فيقودهم إلى الإيمان في ذلك لحكمة كبيرة.

فلذا انتقل هذه الانتقالة من قوله: ﴿**اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**....﴾(١) إلى قوله: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٢) ثم ختم قوله بقوله: ﴿**إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾(٣) بعد طي هذه المراحل وهذه النتائج تؤكد ما

---

(١) سورة يس: الآية ٢٠.

(٢) سورة يس: الآية ٢٢.

(٣) سورة يس: الآية ٢٥.

ذكرناه في الأبحاث السابقة من أن تنكير (رجل) في قوله: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**﴾ لأجل تعظيم الرجل وبيان كمال رجوليته في العلم والعمل، فإن سياق كلامه دال على سعة علمه وطول باعه في موازين الاستدلال الصحيح.

اللطيفة الثانية: لماذا استفهم حبيب؟

إنّ الغاية من الاستفهام في قوله: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ تعود لأمرين:

أحدهما: إثبات المقتضي لعبادة الفاطر لأنه الخالق المبدئ بالإيجاد، وهذه نعمة عظيمة تستحق الشكر، وشكرها يتم بعبادته.

ثانيهما: إثبات عدم وجود المانع في العبادة؛ إذ لا يوجد ضرر مادي أو معنوي يمنع من عبادته.

وإذا تم المقتضي للعبادة وارتفع المانع وجبت العبادة بمقتضى حكم العقل والفطرة ولا ينكر ذلك إلّا مكابر ومتمرد يستحق العقوبة، ولذا نبههم وحذرهم من المخالفة وقال: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ وواضح أنّ حكم الأمثال واحد فاذا كان من يعبده حبيب هو الذي فطره فانه أيضاً فطر القوم، فعقولهم وفطرهم تدعوهم إلى عبادته، وإذا تخلفوا يحكمان باستحقاقهم العقوبة، وذلك يكون في يوم يرجعون فيه إليه، ولذا قال: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ ولم يقل: (وإليه أرجع) لأن من يعمل بمقتضى عقله وفطرته ويؤدي حق المنعم لا يخاف من عقوبته وإن الذي ينبغي أن يخاف هو المخالف، وفي قوله: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ نكتتان:

الأولى: أنها وردت بصيغة المجهول فتدل على الرجوع القهري إليه، لينبههم إن كان إيمانكم وكفركم بالاختيار فإن الرجوع إليه والجزاء على الأعمال بالقهر.

والثانية: تنبيه للكفار في أنكم إذا عذبتمونا وقتلتمونا فإنكم ستعودون إلى ربنا فيعاقبكم وينتقم منكم، وبهذا يكون قد أتم الحجة في التعليم والتحذير، فبيّن أن من يعبده يستحق العبادة والشكر لأنه منعم الوجود، وأن في مخالفة ذلك العقوبة على عدم الإيمان وعلى تعذيب المؤمنين.

وهذه قضية تحاكي وجدان الإنسان؛ لأن البشر بطبعه يطيع من يحب أو من يرهب ويخاف، ولكن لو دار الأمر بين الحب والخوف قدم الخوف؛ لأن دفع الضرر عنده أهم؛ لرجوعه إلى الألم، وهذا النحو من الاستدلال لا يقدر عليه إنسان عادي، لا يعرف المنطق وأساليب الاستدلال .

اللطيفة الثالثة: مقام حبيب النجار العلمي

إنّ حبيباً النجار عليه السلام استدل بأركان الحجة التامة في مقام المحاورة، وهذا شاهد على علو مقامه في العلم.

وتوضيح ذلك: أن الاستدلال في مقام الاحتجاج حتى يكون تاماً وملزماً للخصم يجب أن يقوم على ركنين:

الأول: إقامة الدليل على المدعى.

والثاني: إقامة الدليل على بطلان دعوى الغير.

ومن دون ذلك تكون الحجة ناقصة؛ لأن إقامة الدليل على صحة

المدعى ما دام لا تنفي صحة مدعى الغير لا تثبت الحجية على الغير، لأن إثبات الشيء لا ينفي ماعداه.

مثلاً في باب الإمامة حينما يستدل على صحة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وإثبات خلافته للنبي صلى الله عليه وآله فإن في مقابل هذه الدعوى هناك دعوى مقابلة تدعي إمامة بعض الصحابة وخلافتهم، وحتى تتضح صحة أحد القولين على كل طرف أن يثبت دليله على قوله، ويقيم الدليل على بطلان قول الغير، والامامية أقاموا أدلة الإثبات وهي كثيرة، وقد جمع العلامة الحلي قدس سره وحده ألفي دليل على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه الألفين. فيه ألف دليل عقلي وألف دليل نقلي، وفي عين الحال ذكر طائفة كثيرة من الأدلة على بطلان إمامة الصحابة وخلافتهم، وكذا سائر أعلامنا فعلوا ذلك في أبحاثهم، وقد جمعنا جملة من ذلك في كتابنا الحقائق والدقائق(١).

لماذا؟ لأن إقامة دليل الإثبات وحده لا يكفي في إتمام الحجة ما لم يقم دليل على النفي، ومن هنا عرّف البرهان بإظهار صحة المعنى وإفساد نقيضه(٢).

ولهذا نطالب علماء العامة أن يقيموا أدلة على صحة إمامة الصحابة وخلافتهم للنبي صلى الله عليه وآله، ويقيموا الأدلة على نفي إمامة علي عليه السلام والأئمة عليهم السلام، وهذا ما يتعذر عليهم إقامته منذ سالف الأزمان، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً لذلك ولم يفلح، بخلاف أدلة الإمامية إثباتاً ونفياً، والذي يراجع

(١) انظر الحقائق والدقائق: ج٥، ص١٥٣.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٥٠١، (بين).

الكتب والأبحاث المختصة بهذا البحث يجد العجز والقصور الكبير لدى القوم في ذلك، وللمسألة تفاصيل نوكلها لمحلها.

والخلاصة: أن الحجة في مقام الاحتجاج لا تكون تامة بإقامة دليل الإثبات وحده مالم يقم دليل النفي.

وهذا النهج عميق علمياً، وتقتضيه قواعد المنطق، وهو الذي سلكه حبيب النجار عليه السلام في الاستدلال إذ ابتدأ أولاً بدليل الإثبات فقال: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(١) فأثبت المبدأ والمعاد في جملة واحدة، واستدل على المبدأ بدليل العقل والفطرة، ثم عزّزه بدليل النفي فقال: ﴿**ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ**﴾(٢) وقد استند في ذلك إلى الوجدان، فإنّ كل عاقل ملتفت يدرك بوجدانه أنه موجود حادث، ولم يكن وجوده من نفسه ولا من اختياره، فلابد وأن يكون هناك من أوجده وخلقه، والذي أوجده هو الذي يستحق المحبة والطاعة؛ لأنه منعم، والعقل يقضي بوجوب شكر المنعم.

وأما الأصنام فلا تستحق شيئاً من ذلك؛ لأنها أحجار قاصرة عاجزة، وإذا التفت إلى دقة وجوده وخلقه ومدى التناسق والانسجام في تكوين الجسد والعقل والروح أدرك بأن الذي خلقه في غاية العلم والحكمة والإتقان والقدرة، وعلم بوجوب وجود معاد يكتمل فيه الخلق، وينتصف

---

(١) سورة يس: الآية ٢٢.

(٢) سورة يس: الآية ٢٣.

فيه الناس، وإلّا كان الخلق والإيجاد عبثاً؛ لذا ذكر المبدأ والمعاد معاً، والدقة المتناهية في التعبير أنه عبرّ عن الخلق (بالفطر) لوجود لطائف ونكات يدل عليها الفطر دون الخلق:

مزايا الخلق والفطر

الأولى: أن الخلق يطلق على مطلق الصنع سواء كان عن إبداع أو عن غير إبداع، وأما الفطر فيطلق على صنع الشيء ابتداعاً[١]، فالفطر إيجاد عن إبداع، أي لا عن مثال سابق، بخلاف الخلق، ولذا عيسى عليه السلام قال: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**﴾[٢] لأن هيئة الطير ليست من إبداعه، بل هو تقليد لخلق الله سبحانه، وكل شيء مفطور هو مبتدع، فمثلاً الإنسان كل فرد من أفراده مخلوق لا على مثال سابق؛ لأنّه يتميز عن غيره بمزايا خاصة كالصورة وسمات الوجه والصوت والخط والمشي، فكل شخص يتميّز بمزاياه لا يماثله فيها أحد. نعم قد يشابهه أولاده مثلاً ولكن لا يماثلونه؛ لأنّ خلقه إبداعي ليس له مثال سابق.

الثانية: أنّ الفطر يشير إلى الفطرة، والفطرة لو كانت سليمة تقود كل مفطور إلى فاطره وخالقه، ولذا ورد في الأخبار أنّ الله سبحانه فطر الناس على المعرفة بأنّ الله خالقهم ومبدعهم[٣].

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٨، (فطر).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٣) انظر تفسير البرهان: ج٣، تفسير الآية: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

كما ورد أن كل مولود يولد على الفطرة، إلّا أنّ أبويه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجسّانه، فنوع الدين يرجع إلى التعليم. أما أصل الدين والإيمان بالخالق فهو فطري[١]، وحبيب النجار عليه السلام كان في مقام الإرشاد إلى الخالق وعبادته، ولو آمنوا علّمهم الدين والشريعة؛ لأن الجاهل يرجع إلى العالم؛ لذا اكتفى بالفطرة.

الثالثة: أن دليل الفطرة بديهي يحسه الإنسان بوجدانه فلا يحتاج إلى دراسة مسبقة أو قدرة عقلية كبيرة، وبهذا يكون أعم وأسهل دليل يوصل جميع الناس على مختلف مستوياتهم إلى الإيمان، والعقل والفطرة كلاهما حاكمان في الإنسان.

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٩، (فطر).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: فرق الفطرة عن العقل

إن الفطرة تختلف عن العقل بأمور:

الأول: أن الفطرة لا تتغير ولا تشتبه في الاستدلال؛ لأنّها من الجعل التكويني؛ لذا قال سبحانه: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1] أي الدين القيم الذي لا عوج فيه ولا خلل[2] هو الفطرة، والفطر هنا على معرفته وحجيته وتوحيده وعبادته. هذه الحقيقة في جميع النفوس مودعة. نعم قد تحتجب الفطرة بالشبهات ولكنها لا تشتبه في الاستدلال، بخلاف العقل فإنه يخضع لعوامل التربية والمؤثرات، واستدلاله يتوقف على ترتيب مقدمات تصورية وتصديقية حتى يتوصل إلى النتيجة، ولو اختلت إحدى مقدماته اختلت النتيجة، ولذا يدرس أهل المعقول المنطق؛ لأن القواعد المنطقية إذا روعيت تصون العقل عن الخطأ في الفكر، ولو اختلت هذه القواعد فنتائج الفكر تكون خاطئة.

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص١٤٢-١٤٣، (قوم).

مثلاً إذا أراد الإنسان أن يستدل على وجود الخالق فإنه يرتب مقدمتين إحداهما صغرى والأخرى كبرى حتى يصل إلى النتيجة، فيقول مثلاً: العالم متغيِّر وهذه صغرى يدركها بالوجدان، فإن العالم خاضع للكون والفساد فهو في تغير دائم، والكبرى كل متغيّر حادث، وهي أيضاً وجدانية؛ لأنه مسبوق بالعدم ويتعاقب عليه الوجود والعدم فهو حادث، أي لم يكن ثم كان، والنتيجة أن العالم حادث وهي صحيحة؛ لأن المقدمات التي رتبها العقل تامة وصحيحة.

ولكن إذا اشتبه المستدل في إحدى المقدمتين تكون النتيجة مغلوطة، كما لو قال كما يقول بعض الماديين:

العالم حدث صدفة، وكل ما حدث صدفة لا علة له، فالعالم لا علة له، وواضح أن هذه النتيجة خاطئة ناشئة من خطأ الصغرى والكبرى؛ لأن الصدفة مستحيلة الحصول، فمثل من يقول بالصدفة كمن يقول إن موسوعة كتاب البحار بكل ما فيها من نظم ونسق وجدت صدفة. هذا أمر لا يعقله عاقل، فقوله: كل ما يحدث صدفة لا علة له غير صحيح، وعلى فرض امكان حصولها فإن ما يحدث صدفة لا يمنع أن يكون وراءه عوامل عديدة ساهمت في تكوينه.

ونلاحظ في ذلك أن العقل حتى يوصل الإنسان إلى المطلوب لابد وأن يستند إلى مقدمات صحيحة أثبتها من قبل بالوجدان أو بالدراسة والعلم، وإلّا أخطأ في الاستدلال.

ولذا نقول للذين يعتمدون على العقل وحده فيما يعتقدون في أمور الغيب إنكم على خطأ علمي كبير؛ لأن العقل وحده لا يمكن أن يضمن لكم الصواب دائماً، خصوصاً في الأمور غير المادية والحقائق المعرفية؛ لأن العقل ما لم يدرك الشيء لا يتعقله، والمغيّبات لا يدركها العقل فكيف يحكم عليها، فلابد من أخذها والإذعان لما يقول الدين فيها؛ لأن الدين يخبر عن عالم الغيب، وهو عالم به ومطلع عليه.

وبهذا يتضح أن المعرفة الدينية في المبدأ والمعاد يجب أن تنطلق من الفطرة أولاً لا من العقل. نعم الفطرة تثبت أصل الوجود، وأما تفاصيل هذا الوجود وصفاته وخصوصياته يدركها العقل بالاستعانة بالدين؛ لأن حكم العقل قد يتبدل ويتغير بحسب المقدمات والقدرة على الاستدلال، ولذا قال سبحانه: ﴿**ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1] لأنّ الفطرة لا تختلف فتكون قيّمة، أي متقومة معتدلة، بخلاف العقل فإنه قد يختلف فلا يكون قيّماً، والشاهد عليه ما نجده من اختلاف المناطقة والحكماء وأهل المعقول في أبحاثهم على أنهم جميعاً يستندون إلى العقل.

وأما الفطرة فيتفق فيها الجميع حتى فلاسفة الغرب يقرون لها، ويعدون الدليل الفطري من أهم الأدلة على إثبات وجود الخالق سبحانه، ولكن عبّروا عنه بدليل الإجماع العام، وأسموه بذلك لأنه يعتمد على ركنين:

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.

أحدهما: الإقرار بأنّ الإيمان قضية مغروزة في النفوس لذا يشترك فيه جميع البشر وحتى الذين ينكرونه في الظاهر فإنهم يؤمنون به في الواقع. نعم قد يختلفون في تسميته أو في أوصافه، فالخلاف ليس في أصل الوجود، بل في تفاصيله.

ثانيهما: أن ما يشترك فيه جميع البشر مطابق للواقع وصحيح؛ إذ لو كان ما يقره جميع البشر خطأ لم يستقر حجر على حجر في العلوم والمعارف، ولم تبق قضية صحيحة مسلَّم بها، وانسد باب العلم، ووقع الجميع في السفسطة(١).

ونلاحظ أن جميع أهل المعقول يسلّمون لدليل الفطرة، ويقرون بثباته وصحة نتائجه في الوقت الذي يختلفون في الأدلة العقلية كثيراً، وهذه ميزة للفطرة على العقل.

الثاني: أن الفطرة يشترك فيها الإنسان وغير الإنسان، فالحيوانات مثلاً تعبد الله سبحانه بفطرتها وإن كانت عديمة العقل بناء على صحة هذا القول أو ضعيفة؛ لذا قال سبحانه: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾(٢) بخلاف العقل فإنه يختص بالإنسان.

الثالث: أن العلم الحاصل من الفطرة حضوري، وأما الحاصل من العقل حصولي، والحضوري أقوى وأتم من الحصولي، وبهذه المزايا استدل

---

(١) انظر الكلام الإسلامي المعاصر: ج١، ص٨٠ -٩٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

حبيب النجار وتوصل إلى الحقيقة، والنكتة اللطيفة أنه لم يستدل على ثبوت الحق تعالى، ولم يستدل على وجود الفاطر ووحدانيته، وإنّما استدل على استحقاقه للعبادة، وهذا يدل على أنّه تجاوز مرحلة أصل الوجود ووحدانيته، كما أنّ القوم لم يكونوا على نكران لذلك، بل كانوا يؤمنون، وإنّما كفرهم كان عبادياً فكانوا مشركين يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى؛ لذا استدل لهم بأنّ الفاطر الذي أنعم بالوجود يستحق العبادة لا الصنم الذي لا يضر ولا ينفع ولم يفطركم في الخلق.

التعليم الثاني: الفطر يقود إلى العبوديّة

أن الفطر له معنيان:

الأول: الإيجاد من العدم لا على مثال سابق، وهذا يدركه العقل بملاحظة الفقر الذاتي في الإنسان وحاجته إلى الغنى الذاتي.

الثاني: إيجاد الميل والجذب إلى وجود المعبود وعبادته، وهذا الجذب ذاتي مودع في النفوس، والأول يتوقف على استدلال عقلي والتفات من قبل العاقل إلى قضايا عديدة حتى يدرك الحقيقة:

الأولى: أنه لم يكن مفطوراً ثم فطر.

الثانية: أنّ هناك من فطره وأوجده وأنعم عليه بنعمة الوجود.

الثالثة: أنّ كل نعمة عظيمة كنعمة الإيجاد تستحق الشكر.

الرابعة: أنّ شكر النعمة يتم بمحبة المنعم وطاعته، والمحبة وحدها لا تكفي؛ لأنها تكون للمنعم ولغير المنعم. أما الطاعة فتختص بالمنعم.

الخامسة: أنّ الطاعة تكون بالطريق الذي يرتضيه المنعم ولا يمكن أن تكون ابتكارية أو ابتداعية.

هذه المقدمات الخمسة يشكلها العقل فيحكم بوجوب إطاعة المنعم بالطريق الذي قرّره وشرعه، وهذه المقدمات استنتاجية عقلية قد تحتاج إلى التفات، بينما الثاني فانجذابه إلى العبادة لا يتوقف على مقدمات عقلية، بل هي رغبة ذاتية جامحة لعبادة المنعم، ولكن في تفصيل كيفية العبادة وطريقها لابد من اللجوء إلى المقدمات العقلية المذكورة.

فالفطر بمعنييه كلاهما يقودان العبد إلى عبادة الفاطر إما من جهة حكم العقل بوجوب شكر المنعم، أو من جهة الانجذاب الذاتي للفاطر، وهذا أمر يشترك فيه جميع البشر، ولا يفترق فيه عالم وجاهل، أو حاكم ومحكوم، ومتحضر أو غير متحضر؛ لذلك استعجب حبيب النجار عليه السلام بقوله: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[١] لأنّ الفطرة بمعنييها تقتضي عبادة الفاطر، فإذا خرجوا عن هذا الميزان وعبدوا غير الفاطر سواء كان بالأصنام أو المال والسلطة كان من دواعي العجب والاستنكار.

التعليم الثالث: أعلى مراتب العبادة

أنّ إيمان حبيب النجار كان إيماناً فطرياً يستند إلى الانجذاب الذاتي المقترن بشكر النعمة، وهذا أعلى مراتب العبادة، وهي عبادة الاستحقاق، وتكون لمن يستحق العبادة وهو الفاطر المنعم، لا عبادة التجار الذين

---

(١) سورة يس: الآية ٢٢.

يعبدون لأجل الثواب ودخول الجنة، ولا عبادة العبيد الذين يعبدون خوفاً من النار والضرر، بل هي عبادة الأحرار الذين تحرروا من غريزتي اللذة والألم، ونظروا إلى كمال المنعم وما يستحقه على العبد، وهو ما تضافرت به الأخبار في تصنيف العباد والعبادة[1].

ومن بلغ مقام عبادة الأحرار لا يطمع في يوم يرجع فيه إلى الله سبحانه، ولا يخاف من ذلك اليوم، بل لأنّ كل ما يريده هو أداء الواجب والوظيفة تجاه ربه، وهو عبادته في أي حال يكون؛ لذا نسب العبادة لنفسه فقال: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

وأما المعاد والرجوع فيه إليه فنسبه إلى القوم؛ لأنهم يخافون من ذلك اليوم الذي يحاسبون فيه، أو يطمعون فيه، وهذا شاهد آخر على عمق مستوى حبيب عليه السلام وعلو شأنه، وبه يعرف السبب في جعله من الصديقين، ولماذا سبق الأمم في الكمال والمعرفة والعبادة، ولعل المستفاد من الروايات المتقدمة أنه من الرجال الذين يأتون بعد الأئمة المعصومين عليهم السلام.

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٥٣، الرقم ٢٣٧؛ تحف العقول: ص٢٤٦.

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ
الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ

يس/ ٢٣

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ﴾

الهمزة للاستفهام وتتضمن التنبيه، والاتخاذ الاعتماد على الشيء في إعداده لأمر(1)، والضمير في من دونه أي غير الفاطر، وتتضمن الإشارة إلى أن كل من يتخذ مهما بلغ من القوة والعظمة فهو دون الخالق الفاطر، بل فقير محتاج إليه.

والغالية منه بيان أن الاعتماد على غيره منافية للعقل ولا توصل إلى المطلوب.

والاستفهام فيها استنكاري يراد به نفي استحقاق الآلهة للعبادة.

المفردة الثانية: ﴿آلِهَةً﴾

وتسميتها اعتبارية جعلية وليست حقيقية، فإن الآلهة جمع إله وهي اصطلاحاً تطلق على الأصنام. سُمّوا بذلك لاعتقاد الناس آنذاك أن العبادة تحق لهم، والإله المعبود، وفي الأصل يطلق على الله لكن المشركين استعاروه لما عبدوا من دونه(2)، والجمع يدل على التعدد، وسبب التعدد ناشئ من

---

(1) مجمع البحرين: ج٣، ص١٢٢، (أخذ).

(2) مجمع البحرين: ج٦، ص٥٨٢، (أله)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٤، (أله)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٦٨، (أله).

اختيار الناس، فإن كل قوم يتخذون لأنفسهم إلهاً يعبدونه، وكان لكل قبيلة من العرب آلهة خاصة.

والقول بتعدد الآلهة فضلاً عن عبادتها من السفه العقلي؛ لاستلزامه التناقض، بل الظلم الفظيع؛ لأن الآلهة من صنع البشر، فهي مفتقرة إليهم، ولم تسد لهم خيراً ولا نفعاً، بل هم المنعمون عليها بالإيجاد ويعبدونها، وفي عين الحال لا يعبدون من أنعم عليهم بالوجود، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وهذا ظلم مضاعف. ظلم للمنعم الحقيقي، وظلم للآلهة التي اتخذوها؛ لأن واقع حالها ينفي عنها هذا المقام، ولو قدر لها أن تتكلم وتفصح عن حالها لأبدت نقمتها؛ لأنها هي في نفسها تعبد الله سبحانه، وتقر له بالوحدانية ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[١] فبقرينة (أأتخذ) و(جمع الآلهة) يدل على أنها لا تستحق العبادة، والإله الحقيقي الذي يستحق العبادة هو (الذي فطرني) لأنه الخالق المنعم.

ونلاحظ دقة التعبير في قوله: ﴿**مَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾[٢] إذ قال: (أعبد) بصيغة المضارع الذي يدل على وقوع العبادة واستمرارها للدلالة على أن عبادته فطرية، بخلاف الآلهة قال (أأتخذ) للدلالة على أنها اختيارية جعلية ناشئة من الاتخاذ.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) سورة يس: الآية ٢٢.

المفردة الثالثة: ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾

أي وساطتهم في الإنقاذ مأخوذة من شفع الشيء شفعاً أي ضم مثله إليه، وتتخذ في العلاقات والروابط للتوسيط والتوسل لبلوغ الغايات، ولا تكون إلّا إذا كان الشفيع ذا وجاهة عند المشفوع لديه، وقال: ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ بضمير العاقل؛ لأن المشركين كانوا يعتقدون بها كذلك فحاكاهم على مستوى عقولهم تجنباً لاستفزازهم وترغيباًلسماعهم ليدركوا أنها لا تضر ولا تنفع، فإن الآلهة حتى تستحق هذا المقام لابد وأن تتصف بصفتين:

الأولى: القدرة على الفعل.

الثانية: الرحمة والمحبة؛ إذ لولا الرحمة والمحبة لم تُرد الفعل، ولولا القدرة لا يقع الفعل وإن كانت تريد وقوعه.

وبهذا البيان يثبت حبيب النجار عليه السلام للقوم ولكل كافر وملحد وعابد للصنم - سواء صنم الحجر أو المال أو الشهرة - أن هذه التي تعبدونها من دون الله عاجزة وقاصرة، ولا تتمتع بشيء من عناصر الألوهية، فقال: ﴿**إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ**﴾(١) أما شفاعتهم لا تغني فلأن الشفاعة تقوم بالمحبوبية والرحمة بين الشافع والمشفوع عنده، وهذه الآلهة لا تحظى بمحبوبية ولا رحمة حتى تصلح للشفاعة، فالقضية من السالبة بانتفاء الموضوع، وبذلك ينفي عنها جزء التأثير والشرك فيه.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٣.

وأما ﴿وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ فلأنّ الإنقاذ يتوقف على القدرة المستقلة، وهي عاجزة قاصرة، فالآلهة التي يعبدونها لا تقدر على فعل شيء لا مستقلة ولا مشتركة مع غيرها، فحق له أن يتعجب ويستنكر من قوم يعبدون آلهة عاجزة ولا تستطيع فعل شيء لا بنفسها ولا بواسطة الشفاعة، وهذه الضابطة نفسها تقال في المال والسلطة والشهرة، وكل جيوش العالم لو أراد الرحمن أن ينزل عذاباً على أهل الارض لا تقدر أن ترده أو تمنع منه.

فيحق للعاقل أن يتعجب من عالم اليوم يركنون إلى التسلح ويصنعون أخطر الأسلحة ويدفعون المليارات لتكديسها، ويفككون العالم، ويصنعون الحروب والنزاعات الداخلية لأجل إضعاف المسلمين ونهب خيراتهم، ولو صحت هذه النظرية وهي أنهم يريدون أن يحولوا دون الانتصار الإلهي عليهم في آخر الزمان بظهور حجة الله ووليه الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف فإن ذلك يدل على سذاجة وبساطة في التفكير؛ لأن ما يريده الخالق العظيم لا يمنعه مانع، ولا يحول دونه حائل، وكل أسلحتهم وأساليبهم وحيلهم ومكرهم وجمعهم يصير بدداً.

ولو كانوا يلجؤون إلى مواكبة هذه الحقيقة الإلهية والإذعان لها والإعداد للتضامن معها فإن ذلك أسلم لهم وللعالم أجمع، ولما احتاجوا إلى المكر والكذب والتحايل على الشعوب لاستعمارها، فإن الباري عز وجل يقول: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(١) وقال سبحانه بأن

---

(١) سورة هود: الآية ٨١.

الأرض سيرثها عباده الصالحون، وأما ما نراه في العالم اليوم من استغلال الأرض من قبل الظلمة والطواغيت فهذه مهلة يعطيها الباري لهم لينظر كيف يعملون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ونلاحظ أن حبيباً النجار يبطل هذه النظريات والأفكار التي يقوم عليها الكفر والشرك، فهم يعبدون ما لا يقدر أن ينقذهم من نفسه ولا ينجيهم بشفاعته فكيف يعبدونه؟

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أنه قال: ﴿**ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً**﴾[1] والضمير يعود على الفاطر، وإفراده يدل على أنه واحد لا متعدد، وأنه الوحيد الذي يفطر الخلق، وبه تبطل نظرية الشرك التي كان القوم يعتقدون بها، ويثبت توحيد الذات والفعل والعبادة.

اللطيفة الثانية: أنه قال: ﴿**إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ**﴾[2] ولم يقل: (إن يرد الرحمن أن يضرني) أو: (يرد الرحمن الإضرار بي) أو: (إن أراد الرحمن ضري) فنسب نفسه لإرادة الرحمن وليس للضر، وفي ذلك لطف في البيان، فإن الإضافة إلى إرادة الرحمن تفيد أنه تام العبودية وواقع تحت إرادة ربه، ولو نزل به ضر منه فهو من الضر الإيجابي الذي وراءه نفع ومصلحة تقتضيها الحكمة والعدل والرحمة، بخلاف المعايير الأخر فإنها تفيد الإضرار السلبي فيدل على الظلم والعبثية.

و﴿**إن**﴾ صورتها شرطية ولكن لا يراد بها الشرط بل الزمان (أي حين يريدني الرحمن بضر) ويعبر عنها بالشرطية المسوقة لتحقق الموضوع،

---

(١) سورة يس: الآية٢٣.

(٢) سورة يس: الآية ٢٣.

والإرادة في مفهومها تسبق الفعل لأنها علته، والعلة سابقة على المعلول إلّا أن الإرادة التكوينية تلازم الإرادة والمراد، ولا ينفكان ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾(١) وعبَّر بالمضارع للإشارة إلى أن القضية احتمالية أي في المستقبل لو أراد الرحمن ذلك فمن يدفع عنّي الضر؟

وصيغة المضارع مع إن الشرطية الحينية تفيد عدم إرادة ذلك، وإنما القضية مجرد فرضية احتمالية؛ لأن الرحمن لا يريد الضر بالعبد فينزهه من الظلم والعدوان، ونلاحظ أنه قال: ﴿**يُرِدْنِ**﴾ فنسبت الإرادة إلى الذات وليس إلى الصفة أو الفعل، فلم يقل: (يريد أن يهلكني أو يضرني أو يمرضني)، وذلك لسببين:

السبب الأول: لبيان أن العبد في مقام العبودية لا شأن له ولا رأي ولا اختيار، بل يقلبه ربه كيف يشاء، وهذا مقام التسليم والرضا، وهو من أعظم المقامات المعنوية.

السبب الثاني: أن عند العبد لا يفترق الحال بين أن يصيبه بذاته أو يصيبه بأفعاله أو بصفاته، فإن الجميع واحد لاتحاد الذات بها وإن تغايرت مفهوماً.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

اللطيفة الثالثة: ما هي حكمة الأضرار والأمراض؟

أنه قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾[1] فهو أقر بأن هناك رحمن فوق الآلهة هو القادر على أن يصيب العبد بشيء والآلهة عاجزة عن فعل شيء، ويبدو أن القوم كانوا يقرون بذلك؛ لذلك لم يعترضوا عليه، وهذا يؤكد أن كفرهم كان كفر عبادة لا عقيدة، فهم مشركون في العبادة لا في الخلق والإيجاد.

والسؤال أنه قال يردني الرحمن بضر هل الرحمن يريد الضر بالعبد؟ ولماذا قال الرحمن لا الرحيم؟ والجواب لسببين:

السبب الأول: للإشارة إلى أنّ الضر حتى وإن أريد نزوله فهو ليس للإضرار، بل للعقوبة والتأديب، أو ارتقاء الدرجات، فهو ضر نافع، ويعود إلى مصلحة العبد وهو من مراتب الرحمة.

السبب الثاني: للإشارة إلى عدم وقوع الضرر حقيقة؛ لأنّ الرحمن صفة الذات الإلهية، والرحيم صفة الفعل، وإرجاع الضرر إلى صفة الذات لا يلازم الفعل، بخلاف إرجاعه إلى صفة الفعل فإن الفعل لا يختلف عن الإرادة، ولذا قال: رحمن ولم يقل: رحيم، وبذلك يتأكد أن ما قاله حبيب عليه السلام كان مجرد فرض لأجل إثبات حقيقة لهم، ولا يريد به الوقوع، وفي عين الحال فيه تنبيه وتعليم في أن ما يصيب الإنسان من المكاره والابتلاءات على قسمين:

---

(١) سورة يس: الآية ٢٣.

قسم يكون من الإنسان نفسه، أي هو الذي يوقع نفسه في المصائب والآلام، وقسم آخر يكون من الله سبحانه، والذي يصيبه من نفسه هو المسؤول عنه، ويتحمل ضرره، وفي الغالب يكون جزاء لأعماله ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ**﴾[1] كالشخص الذي لا يراعي شرائط الصحة فيمرض، أو الذي لا يراعي شرائط العمل والرزق الحلال فيفتقر، فهذا يضره ولكن من نفسه.

وأما إذا أدى الإنسان ما عليه والتزم بالشرائط العقلية والشرعية في الكسب ولم ينفتح له باب الرزق أو مرض وكان ذلك من الله فهو وإن تصوره ضرراً لكن بما أنه من الله فلا ضرر فيه؛ لأن ما يترتب عليه من مصالح وآثار أكثر نفعاً؛ لأن الله سبحانه سيعوضه في الدنيا وفي الآخرة.

فلو قتّر عليه رزقه في الدنيا فإنه يغلق عليه باب المرض، أو يعوضه بالأولاد الصالحين، أو الزوجة الصالحة، أو يدفع عنه المكاره وميتة السوء ونحو ذلك، فإن كل ما يأتي من الله سبحانه وليس للعبد اختيار فيه يقابله التعويض الأفضل في الدنيا، وكذا يعوضه عن الألم والأذى في الآخرة.

ولو سأل سائل أن ولدي ولد معوّقاً وهو مقعد، وهذا جعلنا ندخل في جميع أوقاتنا في إنذار؛ لأنه يتطلب خدمة ورعاية دائمة، فقسم من العناء دخل على والدته وقسم على الوالد والباقي على جميع الأسرة فهل هذا من الرحمة أو العذاب؟

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: قد يكون ابتلاء الولد نتيجة لأخطاء وأعمال أبويه أو أجداده، فإن الإنسان قد يتصور أن أعماله ليس لها آثار باقية، بل الآثار باقية وليس بالضرورة يكون الخطأ من الأب والأم، بل حتى الأجداد يؤثرون في مصير الأولاد، وقانون الوراثة الجيني وإن أثبت نقل الخصوصيات الوراثية الجسدية في الغالب إلّا أن حقائق الدين تثبت أن الصفات الروحية أيضاً تتوارث؛ لذا في الغالب ولد الشجاع يخرج شجاعاً، وولد الكريم يخرج كريماً، وطهارة الأصلاب والأرحام تؤثر في الأولاد، فليلتفت الإنسان إلى أنّ ما يعمل من شر أو خير إذا لا ينعكس على حياته المباشرة فإنه سيؤثر على أولاده وأحفاده.

الوجه الثاني: وعلى فرض أن ذلك كان من الله سبحانه ولا دخل للإنسان فيه فإن ذلك ما تقتضيه حكمة الباري ورحمته. أما حكمته فلأنه جعل الدنيا دار امتحان واختبار، وبهذا الاختبار والامتحان يتميز البشر في مقاماتهم ودرجاتهم المعنوية عند الله في الآخرة، فالحياة الأخروية نتيجة طبيعية لحالة الإنسان في الدنيا، فما يكون عليه الإنسان في الدنيا يكون في الآخرة.

قال تبارك وتعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿**لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[2] وفي ثالثة: ﴿**لِنَنْظُرَ كَيْفَ**

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٧.

تَعْمَلُونَ﴾[١] فما يصيب الإنسان من شر وما يناله من خير سواء في المال أو الأولاد أو السمعة أو السلطة والمقام كل هذه لأجل ابتلائه، فهو مفتون مختبر، والغاية منه هو الرجوع إلى الله سبحانه ليجزي كلاً بعمله، ولولا الاختبار والابتلاء لم يتميز المؤمن من غيره، ولا المؤمن الصابر من غيره، ولا الصابر المخلص من غيره، فصفات الناس وحقائقهم لا تظهر إلّا بالابتلاء والاختبار، فالصديق الطيب من غيره يعرف بالاختبار، والطالب المتفوق من غيره يعرف بالاختبار، وعموماً حقائق الناس وواقعهم يظهر بالاختبار، وهذا الاختبار له لوازم، ومن لوازمه أن يمر الإنسان بفترات ضيق وشدة ورخاء ويسر يتقلب الإنسان فيها من حال إلى حال ليظهر جوهره، وينال استحقاقه في الآخرة.

ولذا لا يدوم شيء للإنسان، فكل شيء يتغير حتى يتميز ويظهر جوهره الحقيقي، وإلّا كيف يتميز المجاهد عن القاعد، والمؤمن العادل من المؤمن غير العادل، والصالح من الطالح؟ لذا يقول تبارك وتعالى: **﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾**[٢] ثم يقول: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وإِنّا إليه رَاجِعُونَ ۞ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**[٣].

---

(١) سورة يونس: الآية ١٤.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٥٥.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١٥٥ – ١٥٧.

والحق أن قول المؤمن: ﴿إِنَّا لِلهِ وإِنّا إليه رَاجِعُونَ﴾ يسلِّي خاطره في جميع المصائب، ويعطيه طاقة عالية على الصبر والتحمل، وقد ورد في بعض الأحاديث أنّها من خواص هذه الأمة(١)، فما يصيب الناس من الأضرار بعضه من أيديهم، وبعضه ابتلاء من الله سبحانه حتى يتميز الصابرون من غيرهم، ويجزي الصابرين على صبرهم بالصلاة عليهم والرحمة لهم وهدايتهم. هذا في الدنيا ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾(٢) والصلاة القرب والصلة والعطاء الدائم، والرحمة أعم من النعمة المادية والمعنوية.

وأما في الآخرة فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣) ولذا قال سيد الشهداءعليه السلام وهو في أشد حالات البلاء: ﴿نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين﴾(٤).

ومن حكمة هذا البلاء أن أولياءه وأنبياءه أشد الناس فيه، بل كلما ازداد العبد قرباً من ربه ابتلاه، وفي الأخبار: ﴿إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه﴾(٥) فالبلاء على درجة الحب؛ لأن المحب يريد أن يظهر جوهر الحبيب وينقيه ويخلّصه حتى يصفو ويزكو ويرتقي وينال بذلك الدرجات العالية، ولهذا كلام مفصل نوكله لمحله.

---

(١) مواهب الرحمن: ج٢، ص١٧٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٧.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٤) البحار: ج٤٤، ص٣٦٧؛ موسوعة كلمات الإمام الحسينعليه السلام: ص٣٩٧، ح٣٤٩.

(٥) كتاب التمحيص: ص٥٦، ح١١١؛ البحار: ج٩٠، ص٣٧١، ح١٣.

وأما في الآخرة فإنّ الباري عزّ وجل سيعوّض من ابتلاه في الدنيا بما يتمنى أنه قد ابتلاه بالأشد، فيعوض الولد الذي أقعده لاختبار العباد به، ويعوض الوالدين وكل من تألم بسبب إقعاده، ومن أبسط ما يعطيه أنه يغفر ذنوبه[١].

وفي الحديث النبوي الشريف: ﴿إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع - أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون - فيقول الله تعالى: إبنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد﴾[٢].

ومن هذا نعرف أن الاختبار والامتحان ليس شراً بل نفعاً، والشر أن يفشل الإنسان فيهما وينحط، ولذا لم يقل أحد إن اختبار الطلاب شر، بل هو خير لهم، والذي يعده شراً هو الفاشل فيه، أما الناجحون فهو خير لهم، يتميّز به العاملون العالمون من غيرهم، وينال كل واحد من الطلاب ثمرة جهوده، فمن كد وتعب ينجح ويرتقي، ومن لم يتعب يفشل.

فالضر الذي ينزل بالإنسان إن كان من الله سبحانه ووراءه حكمة عظيمة، بل وراء الحكمة رحمة عظيمة؛ لأن نتيجته ارتقاء الإنسان وتعويضه

---

(١) مواهب الرحمن : ج٢، ص١٧٨.

(٢) مسكن الفوائد: ص٣٦؛ مواهب الرحمن : ج٢، ص١٦٩؛ وانظر البحار: ج٧٩، ص١١٩، ح١١.

بالأحسن، ولذا قال حبيبعَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾[1] ولم يأتِ بغيره من الأسماء الإلهية المباركة.

فعلى الإنسان أن يتأدب في محضر الله سبحانه، ويرتقي بعقله ونفسه، وفي كل شدة أو بلاء يمر به عليه أن يتأمل، فإن كان من يده هو فهو يستحقه، وهوماجنته يداه، وإن كان من الله سبحانه فذلك لا يكون إلّا عن حكمة ورحمة. مثله مثل الاب الذي يدفع ولده للطبيب ليجري له عملية جراحية، فإنها وإن كانت تؤلم الولد ولكن وراءها حكمة ورحمة عظيمة.

اللطيفة الرابعة: فرق الضُر عن الضَر

أنه قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ بضم الضاد ولم يقل بضر بفتح الضاد؛ لأن الضر بالفتح خلاف النفع، وهو كل ضرر ينزل بالشيء مادياً كان أو معنوياً، فهو يشمل الضرر البدني والروحي.

أما الضر فهو اسم جامع لكل ما يصيب البدن مثل الفقر والهُزال وسوء الحال[2]، وهو كذلك في الاستعمال القرآني، ولذا في قضية أيوبعَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3] وقد أصيب أيوب في بدنه وهو ما يقضي به العقل؛ لأن الأنبياء أكمل خلق الله وأرقاهم لا يصابون بأرواحهم بالعلل والأسقام؛ لأن علل الروح من نواقص

---

(١) سورة يس: الآية ٢٣.

(٢) انظر الصحاح: ج٢، ص٧٢٠.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

النفوس وفعل الشيطان، وكذلك حبيب النجار لم يعبِّر بالضر لأنه يشمل الإضرار الروحي، وهو منزَّه عنه، وإنّ ما يصيبه من الرحمن على فرض وقوعه يصيب بدنه، وهو أمر يقع، ويؤكده أن الضمة على الضاد والشدة فوق الراء يشعران بنزوله من علو وقهر، بخلاف الفتحة فإنه يشمل ما ينزل من جهة الاختيار ومن المماثل كإضرار الإنسان لنفسه بسبب فعله أو بسبب غيره، وبهذا يتضح وجه الدقة في التعبير الذي ورد، وأنه ناظر إلى الضرر المادي فقط؛ لاستحالة عروض الضرر الروحي على الانبياء والصديقين ومن ماثلهم في المقام.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿**لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ**﴾[١] ونلاحظ أنه ذكر الأصنام بضمير المخاطب العاقل ﴿**شَفَاعَتُهُمْ**﴾ و﴿**لاَ يُنقِذُونِ**﴾ وذلك محاكاة لعقول القوم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن أصنامهم تسمع وتعقل، وهذا من لطف الحوار ومرونته.

وقدم الشفاعة على الإنقاذ لسببين:

أحدهما: مواكبة للطريقة التي يتبعها الكبار وأصحاب القدرة، فإنهم إذا أرادوا دفع ضرر عن شخص فإنهم لا يتدخلون مباشرة لإنقاذه ترفقاً أو نظماً، بل يراعون المراتب وما يليق بشأنهم، فيشفعون أولاً له عند المعنيين وإن كانوا تحت إمرتهم، فإن لم ينفع تدخلوا وأنقذوه بأنفسهم بالأوامر الفوقية. هذه هي العقلية والأسلوب الذي يتبعه الزعماء والقادة وأصحاب

---

(١) سورة يس: الآية ٢٣.

القدرة والنفوذ، وبمستوى فهمهم وأسلوبهم كلمهم حبيب فقال: إنّ ما تعبدون من دون الله قاصر عن الشفاعة.

وثانيهما: أنّهم كانوا يعتقدون أن ما يعبدون يقربهم من الله؛ لأنها مقربة لديه، وبسبب قربها يدفع الله عنهم العذاب، وبهذا البيان أثبت عجزها عن الشفاعة والتوسيط، ونفى عنها القدرة على الإنقاذ، فهي لا ذات نفوذ فتؤثر بنفوذها، ولا بصاحبة قدرة فتؤثر بقدرتها، والنتيجة أنها غير قادرة لا في نفسها ولا بالواسطة فكيف تعبدونها؟

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الاستدلال الصحيح يقوم على الوجدان

إن الاستدلال الصحيح يجب أن يقوم على الوجدان؛ لأن الوجدان هو الحجة على الإنسان، وهو ما يعبّر عنه الأصوليون بالقطع، ويعبّر عنه غيرهم بالعلم، ويكفي عند الفقهاء مرتبة الاطمئنان النفسي، فإن العلم يتميز بميزتين:

الأولى: أنه يكشف الواقع فيكون العالم عارفاً بالحقيقة.

الثانية: أن العلم حجة على العالم ولا يمكن أن يخالف الإنسان علمه، بل العقل يوجب عليه العمل به، وإذا خالفه يعلم بأنه ارتكب خطأً، والشرع يعتمد هذه القاعدة في الحجج أيضاً ولا يخالفها، فيوجب على الإنسان أن يعمل بعلمه ويوجب عليه أن يتعلم إن لم يكن يعلم، فإن كان قادراً على التعلم يتعلم، وقد ورد عن النبيﷺ الأمر بطلب العلم وإن استلزم خوض اللجج وبذل المهج، فعن الصادقعليه السلام: ﴿ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال﴾[1] أي يتعلموا الدين وأحكامه،

---

(١) البحار: ج١، ص٢١٣، ح١٢؛ الرسائل الفقهية: ص٤، المقدمة.

وإن لم يكونوا قادرين أوجب عليهم اتباع العالم، وهذه واحدة من وجوه وجوب التقليد للفقهاء العدول واتباعهم في الأحكام والمعارف الدينية.

ولذا قال علماء المنطق: إن الأدلة يجب أن تعود إلى النفس والوجدان، ومالم تعود إلى ذلك لا يمكن الاعتقاد بها، فالإيمان والاعتقاد ينطلقان من الوجدان، ويعودان إلى الوجدان، وعلى هذا الأساس أمرتنا النصوص الشرعية وأقرته الأبحاث العلمية والحكمية بلزوم تطهير النفس من الرذائل، وتصفية القلب من ظلمات الذنوب والقبائح؛ لأن الرذائل النفسية والظلمات القلبية يمنعان الإنسان من الإيمان الحق والتكامل الروحي ويضللانه؛ لأن الهداية نور إلهي يشرق على نفس الإنسان وقلبه، فاذا كانت النفس والقلب محجوبين بالظلمات فإن النور لا يشرق، ولذا تعاليم الأنبياء تضم برنامجين: برنامجاً عملياً يتضمن الأحكام وبرنامجاً روحياً يتضمن تنقية الباطن والأخلاق؛ وبذلك يكتمل الإنسان عقلاً وروحاً وعملاً، وهذا النهج اتبعه حبيب النجار بقوله: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ إذ التجأ إلى نفسه وفطرته السليمة، وبتأمل وصل إلى الحقيقة وصار من الصديقين، فقد اعتمد في استدلاله على ركنين:

أحدهما: الانطلاق من الوجدان للمعرفة والإيمان.

ثانيهما: التفكير في نفسه أنه لم يكن ثم كان، فلابد له من مكوّن، وهذا أسرع طريق يوصل الإنسان إلى الحقيقة، وهي حقيقة فطرية يقر بها الجميع حتى الملاحدة وإن حصل اختلاف فهو في التفاصيل.

ويتميز هذا النحو من الاستدلال بميزتين هامتين:

الأولى: أنه ينطلق من ضمير الإنسان، فهو منزه عن التدليس والخداع، فإن الإنسان على نفسه بصيرة[١]، وقال: بصيرة لبيان أنه مطلع على سره وعلانيته وظاهره وباطنه، ولو قال: (بصر) لدل على أنه مطلع على ظاهره فقط دون باطنه، وبذلك وردت بعض الأخبار الشريفة[٢].

الثانية: أنه لايحمّل الآخرين الاستدلال ولا نتيجته، بل يكشف المستدل عما يدور في نفسه وما هو يعتقد به ليكون بذلك نهجاً تعليمياً للغير في أسلوب الاستدلال، وفي عين الحال لا يشعره بالفرض والقهر على ذلك بل، يتمتع بغاية المرونة والهدوء، فإن الفرض والإكراه ينفر ولا يجذب.

وبذلك يتضح أن الذي يسلك سبيل الوجدان في الاستدلال يتوصل إلى النتائج الصحيحة لسببين:

الأول: لأن الوجدان يصدق صاحبه ولا يخدعه.

الثاني: لأن الباري عز وجل إذا رأى صدق العبد وتوجهه للحق لابد وأن يهديه إلى الصواب ولا يخذله، وهذا ما يقوله بعض أهل الحكمة من أن تصفية الباطن تكون سبباً للإفاضات الإلهية.

---

(١) انظر سورة القيامة: الآية ١٤.

(٢) انظر نفحات الرحمن : ج٦، ص٣٨٠، تفسير الآية المزبورة.

التعليم الثاني: أقسام الملاحدة وخطأ المنهج

أن الاستدلال الصحيح والطريق الموافق للنهج القويم الذي يوصل إلى اليقين ويقوم بالإثبات والنفي فلا يكفي أحدهما كما تقدم تفصيله في استدلال حبيب النجار، وبهذا يظهر أن الطريق الذي سلكه الملاحدة والمشككون في وجود الخالق لا يتوافق مع النهج المنطقي للاستدلال؛ لأنه يقوم على أحد الطرفين وليس بالجمع بينهما، بل لا يقوم على أي منهما.

وتوضيح ذلك: أن التتبع والتحقيق في كلماتهم وآرائهم يدل على أنهم فئات عديدة عمدتها:

الفئة الأولى: تنفي وجود الخالق ولا تثبت شيئاً آخر وراء العالم، وهم القائلون بالصدفة.

الفئة الثانية: تنفي وجود الخالق وتدعي وجود أصل للوجود تسميه بأصل الأنواع منه تفرعت الأنواع وتقررت. كانت خلية بسيطة ثم تقسمت وتشعبت وتعقدت بطرو العوامل والمتغيرات.

الفئة الثالثة: لا تنفي وجود الخالق ولا تثبت وجود أصل للأنواع، فهي لا تنفي ولا تثبت، بل بلا موقف، وكل ما تؤمن به هو أنها لا تدري ما هو الحق، ويعبر عنها بلا أدريين.

الفئة الرابعة: لا تنفي وجود الخالق بل تؤمن بوجوده، ولكن تنفي الدين والتدين، وتدعي أنه من صنع البشر.

وهناك فئات دون هذه الفئة نشأت بسبب عوامل سياسية أو ظروف اجتماعية خاصة.

ولدى مقارنة الفئات وملاحظة أقوالها نجد أن الفئة الرابعة ليست ملحدة بالمعنى الدقيق للكلمة؛ لأنها تقر بوجود الخالق وإنما تنفي الدين أو التدين، وهي في الغالب ناشئة من صدمات نفسية من سلوك بعض المتدينين جعلهم ينفرون من الدين، أو وجود رغبة للتخلص من التزامات الدين، وحيث إنهم لم يفهموا الدين ولم يتعلموا تعاليمه ولم يطلعوا على غاياته وفلسفته وأحكامه ولم يحضروا عند العلماء ويميزوا الصحيح من الخطأ وقعوا في هذه الشبهة، وهذا نهج خاطئ ينم عن قصور في المعرفة؛ لأن الأشخاص لا يمثلون الدين، وفي المتدينين الكثير من العظام الذين لهم تأثير مشرق في الحياة الإنسانية والحضارية فلماذا لم ينظروا إليهم؟

وأما الفئة الثالثة فهي لا تقوم على أساس علمي، وحصول الشك عندها لا يلحقها بالإلحاد. نعم لو أرادت سلوك النهج العلمي فمن السهولة التوصل إلى أدلة الإثبات، لكن عليها أن تبحث في أدلة الإثبات، ولو انطلقت من الوجدان لوصلت إلى الحقيقة، وعلى فرض أنها لم تقتنع فيها عليها أن تبطلها، وما دامت لا تبطلها فإن العقل يفرض عليها الإيمان؛ لأنه ينفي عنها الضرر.

والفئة الثانية والأولى مآلهما واحد، وهو الاقرار بوجود الصدفة؛ لأن القول بوجود أصل الأنواع منه تكثرت الحياة وتطورت يتفرع عنه سؤال، وهو كيف وجد هذا الأصل؟

والجواب: لا يخلو من فرضين:

الأول: أن يقال وجد من نفسه وهو إقرار بالصدفة.

الثاني: أن يقال أوجده الغير، وهذا إقرار بوجود خالق وخروج عن الإلحاد، فلم يبق في نظرية الإلحاد إلّا قول واحد هو الصدفة، وحيث إن الصدفة محالة يظهر بطلان النظرية برمتها، وبطلان الصدفة بديهي لأدلة كثيرة أذكر ثلاثة منها:

أدلة بطلان الصدفة

الدليل الأول: ما نشهده بالوجدان الحسي - وهو من الأدلة التي تقوم عليها نظرية الإلحاد - أنها لم تتكرر، فهل يعقل أن الصدفة حدثت مرة واحدة فقط في عالم الوجود؟ وجدت بها الخلية الأصل وانتهت؟ هذا غير معقول؛ لأن ما أمكن وجوده مرة أمكن وجوده مرات، فلماذا لم يتكرر هذا الوجود؟ وعدم التكرر ينبغي أن يكشف عن عدم الوجود، وهذا استدلال من باب الإلزام؛ لأن أصحاب هذا المنهج يستدلون من عدم الوجدان على عدم الوجود، وعلى هذا الأساس نفى بعضهم وجود الخالق، فنقول: إن ذات الدليل الذي تمسكتم به يبطل قولكم أيضاً؛ لأن الصدفة لم تتكرر ولم تحدث فدل على عدم وجودها، وإذا انتفت الصدفة ثبت وجود السبب الخالق وهو ما يقوله الدين.

الدليل الثاني: ما نشهده بالوجدان من قيام الأشياء في الوجود على نظام السببية والعلية وأن كل شيء يعود إلى سبب، فلابد وأن تكون الخلية الأولى كذلك لها سبب؛ لأن الأمثال حكمها واحد، ونفي ذلك يتوقف على بيان

سبب هذا الاستثناء، وكيف أن الوجود الأول حدث بلا سبب؟ وكل العلوم تتفق على استحالة الصدفة وامتناع حدوث الأشياء بلا سبب.

هذا فضلاً عن استبطانها الخلف؛ لأن الصدفة إن حدثت في وجود الشيء بلا سبب أصلاً كان متناقضاً؛ لاستلزامه صدور الوجود من العدم، وهو صدور شيء من نقيضه وهو ممتنع، وإن حدثت بسبب عوامل معينة اجتمعت كانت العوامل هي السبب، وبطلت الصدفة.

الدليل الثالث: أن النظم والإتقان والتناسق الموجود في الموجودات بحيث يشترك أعضاء كل كائن في تناسق تام وتؤدي وظائف متكاملة دون تعدٍ ولا خلل ولا تصادم دليل على وجود فهم وشعور وغايات وراءها خصوصاً الكائنات الحية، وهذا النظم - خصوصاً الحياة فيه - يستحيل أن يكون صدفة، فلابد وأن يكون وراءه سبب قادر حي عالم حكيم أوجده وقرره. هذا ما يقضي به العقل والوجدان السليم، والذي ينكر ذلك يكون قد أنكره بقوله، وأيقن به في وجدانه؛ لذا قال كل أهل الحكمة بما فيهم حكماء الغرب المعاصرين: إن الملحد ينكر بلسانه ويقر بوجدانه(١)، وللبحث في هذا تفاصيل لا يسعنا المجال بيانها.

تبقى هناك فئة خامسة قد لا تكون ملحدة في نفسها لكنها تدعو إلى الإلحاد لأغراض سياسية، فيستغلون جهل الناس، ويحطمون القيم في نفوسهم ويشككون بالدين وبالعلماء تمريراً لمشاريع سياسية وأغراض استعمارية. هؤلاء موجودون في كل زمان ومكان.

---

(١) انظر فقه القرآن: ج٢، ص٣٨٤؛ الينابيع الفقهية: ج٢٣، ص١٨٨.

فعلى الإنسان العاقل أن يلتفت إلى ذلك، ولا يصدق مثل هذه الدعاوى التي ترفع هذا الشعار وتحليه في أنظارهم باسم تحضر وثقافة وتطور في الفكر البشري وأمثال هذه الشعارات، وهي تستبطن دواعي تحطيم المجتمع والبلاد لأجل السيطرة عليهم.

والخلاصة: أن الإلحاد لا يقوم على نهج منطقي؛ لأنه فاقد لدليل الإثبات على مدعاه، ولا دليل له على بطلان نظرية التوحيد، فهو وهم لا أكثر، وكل استدلال لا يقوم على هذين الركنين لا يمكن الوثوق به؛ لأنه ناقص وعليه فإن كان المستدل قارداً عليهما فليسلكه للوصول إلى الحقيقة، وألّا فليحضر عند العلماء العارفين ليتعلم منهم ذلك.

وهذه النتيجة لا تختص بجماعة دون أخرى، بل كل من أراد معرفة الحقيقة فإن هذا هو السبيل الصحيح لإيصاله، ولذا قلنا ان العامة أيضاً لا يمكنهم الاستدلال على صحة ما يعتقدون به؛ لأن أدلة الإثبات وحدها لا تكفي فضلاً عن أدلتهم نفسها لا تنهض كأدلة، بل هي قرائن واستحسانات، وسيكون ذلك حجة عليهم، فإن الالتزام بالعقيدة يجب أن يكون عن مقارنة وإثبات ونفي، وإلّا كان في ضلال مبين عن المنهج العلمي القويم.

التعاليم الثالث: أن المسالمة والمنطقية في الأمور هو السبيل الذي يوصل إلى الأهداف، فإن المظلوم الذي يتبع أسلوباً هادئاً مسالماً في بيان ظلامته والمطالبة بحقوقه غالباً ما يصل إلى أهدافه حتى وإن قتل أو شرّد في برهة؛ لأنّ البشرية بوجدانها الإنساني تحب المظلوم وتتعاطف معه بشرط أن

لا يضيع حقه ومظلوميته بالعنف والمواجهة غير الهادئة؛ لأن الفورات قد تلازم الهياج والارتجال في المواقف، وقد تسبب أضراراً غير محسوبة تنقلب فيها الموازين، ويصبح فيها المظلوم ظالماً، وهذا ما يعمل عليه الظالمون عادة فإنهم يضغطون على المظلومين لكي يبدر منهم رد فعل عنيف أو غير مدروس فيتخذ ذريعة لضربهم ومصادرة حقوقهم.

التعليم الرابع: في محاورة حبيب النجار مع قومه دعاهم إلى الإيمان بقوله من جهتين كلاهما يناغمان الدافع الذاتي في نفوس العقلاء:

الأولى: الإشارة إلى أن من يستحق العبادة هو المنعم الفاطر بقوله: ﴿**أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً**﴾ فإن كل عاقل يرى أن المحسن يجب أن يقابل بحسن العمل.

الثانية: الإشارة إلى أن من يستحق العبادة هو الحامي الذي يسد حاجة الإنسان إذا لجأ إليه، فإذا لم يكن منعماً ولا حامياً فلا يوجد مبرر لعبادته، وهكذا هي العلاقات الإنسانية بين القادة والأتباع، فإنه ليس من المنطقي أن يتبع الناس قائداً لا ينفعهم ولا يحميهم، وقد أكدت الروايات على أن الذين يتبعهم المخالفون أوقعوهم في ضلالات وفتن فقدوا بها دينهم ودنياهم، بينما أولياء الله سبحانه ورسله ينفعون مَن يتبعهم في دينهم بالهداية والإيمان والعلم والمعرفة وتهذيب الملكات الإنسانية، وفي الآخرة يقودونهم إلى الجنة إما بما تعلموه منهم أو بشفاعتهم، وهذه حقائق وجدانية وبرهانية من يملكها ينبغي أن يظهرها بالأسلوب اللين والحوار الهادئ ليقبلها العقلاء، ولا يخفي بريقها ونورها بالعنف والخشونة.

إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ

يس/ ٢٤

هذا جواب لاستفهامه، فهو المستفهم وهو المجيب كناية عن حركة الفكر في داخله وما يدور في خلده من أفكار، فانتقل بها من الاستعجاب من عدم عبادة الفاطر إلى الاستعجاب من اتخاذ الآلهة معبودات، وفي مقام الرد قال لو تركت عبادة الفاطر وعبدت الآلهة أكون إذاً في ضلال مبين.

وتفصيل البحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿إِنِّي إِذاً﴾

إني تتضمن الضمير العائد على المتكلم، وإذا تحدث المتكلم عن نفسه بمثل هذا الضمير دل على مزيد الخصوصية والثقة والإكبار لنفسه، وتنزيهها من النواقص، وقد قاله حبيب لإرشادهم إلى أن العاقل اللبيب لا يعبد من لا ينفع ولا يضر، ولا يشرك بمن فطر الوجود والموجود، وأفاض عليه نعمه، وأقام وجوده، ودفع عنه الأضرار والآفات فإن ذلك ظلم عظيم، والظلم تأباه العقول لما فيه من بخس للحق وعدوان، وتأباه العقلاء لذات السبب، ولذا يذمون فاعله، ويحكمون باستحقاقه العقوبة.

وإذاً حرف يقع في صدر الكلام معناه الجواب والجزاء لكلام سابق. يقال: سأكرمك فيجيب إذن أحبك، فكلامك جواب لقوله أكرمك وجزاء لفعله[1] والسؤال لماذا قال إني إذاً؟ فما فائدة إذاً هنا؟

والجواب: فائدتها بيان النتيجة المترتبة على مقدماتها، وعمدة مقدماتها اثنتان:

الأولى: عدم عبادة الفاطر.

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص١١، (إذ).

والثانية: عبادة الآلهة، فمن يتخلّى عن عبادة من يستحق ويعبد من لا يستحق يكون بهذا النهج على ضلال، ولو قلب الأمر بأن عبد من يستحق وترك عبادة من لا يستحق كان على هدى، وهذا هو نهج الأنبياء عليهم السلام، والأول نهج المشركين. كل هذا تفيده كلمة (إذاً) الحالية.

ولو لم يذكرها كانت الجملة خاطئة، ومفادها (أني في ضلال مبين) فيكون إقراراً على نفسه بأنه في ضلال مبين، والحال هو مهتد وليس بضال، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن الاستنتاجات العقلية لو بنيت على مقدمات خاطئة في نفسها أو في ترتيبها تكون النتيجة خاطئة.

المفردة الثانية: ﴿ضَلاَلٍ﴾[1]

الضلال: الضياع، وهو ضد الرشاد[2]، وتقابله الهداية، ويطلق على كل عدول عن المنهج القويم ضلال عمداً كان أو سهواً، وعلى هذا فإن ترك المنهج القويم ضلال سواء في الماديات أو المعنويات؛ لذا قلن نساء مصر لزليخا: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[3] لأنها عدلت عن الطريق المستقيم للعفاف والأمانة الزوجية فخانت زوجها، وغررت بيوسف في مشاعرها ونواياها وعملها وقد وصف الحب هنا بالشغف لأنه منازل يتدرج بها، فإذا

---

(١) سورة يس: الآية ٢٤.
(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٠٩، (ضل).
(٣) سورة يوسف: الآية ٣٠.

أحاط الحب بالقلب وعزله عن رؤية الناس وحبهم ولا تهتم لمعايبه يسمى بالشغاف، وهو الغشاء الرقيق الذي يستر القلب[١].

والنكتة اللطيفة أن النسوة قلن: ﴿**إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[٢] ولم يقلن (إنّها في ضلال) والفرق أنّ الأولى أرجعت الحكم إلى نظرهن وليس إلى الواقع، بخلاف الثانية، والسبب أنهنّ تظاهرن بإضلالها على خلاف وأقعهنّ النفسي؛ لأنهنّ كنّ يكتمن في داخلهن سرَّين: سراً أنهنّ كن يردن فضيحة زليخا لكسر كبريائها وغرورها، وهذا من شأن أصحاب السلطة وسراً آخر كن يتمنين إخراج يوسف عليه السلام من القصر لكي تنفرد كل واحدة منهن به، فقولهنّ لم يكن للفضيلة والتعصب للحق، بل لمطلب كن يردن الوصول إليه من يوسف؛ لذا لما علمت زليخا بذلك جمعتهن وأخرجت عليهن يوسف فقطعن أيديهن وهن انفضحن أيضاً، والقرآن وصف ذلك بالمكر، قال: ﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ**﴾[٣] فإنّ المكر يقال لستر شيء خلف شيء وفضحهنّ؛ لأنّ (ما عيَّر أحدٌ أخاه بذنب إلّا فضحه الله بمثله)[٤] لأن الله يحب الساترين.

والخلاصة: أنهن وصفن فعل زليخا بالضلال لأنه خروج عن النهج القويم مادياً وروحياً.

---

(١) نفحات الرحمن: ج٣، ص٣٨٩.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣٠.

(٣) سورة يوسف: الآية ٣١.

(٤) روح البيان: ج٤، ص٢٤٥.

المفردة الثالثة: ﴿مُبِينٍ﴾[(١)]

اسم فاعل مأخوذ من بان الشيء أي ظهر، والمبين الظاهر في نفسه والذي يظهر غيره، والضلال المبين الذي فساده ظاهر، ومنشأ ظهوره يعود إلى أمرين:

الأول: حكم الفطرة؛ لأنّها تحكم على أنّ الذي لا يعبد الفاطر الذي يستحق العبادة ويعبد غيره يكون قد ظلم، والظلم قبيح بحكم الفطرة، ولا يختلف عليه اثنان من الناس، والعقلاء بمركوزاتهم النفسية يدركون فساده ونتائجه الوخيمة؛ لأن تعدد الآلهة يستلزم تعدد العبادة واختلافها، وهي توجب اختلاف الناس، وهو الآخر يؤدي إلى الفوضى واختلال نظام المعيشة والأمن العام؛ لأنّه من التعدد السلبي لا التعدد الإيجابي، ويقوم على تعدد المبادئ والغايات والأساليب، ومثله يقود إلى الصراع وانهدام النظام، كما نلاحظ في الصراع الدائر في العالم اليوم، فإنه بسبب تعدد أقطابه واختلافهم في المبادئ والغايات والأساليب فإن الحروب والدمار هي النتيجة.

وأما التعدد الإيجابي الذي يتضمن اشتراكاً في المبادئ والغايات وتعدداً في الأساليب فنتائجه مثله، وهو نهج الصالحين من عباد الله؛ لذا لا نجد صراعاً في الرسالات السماوية، ولا اختلافاً بين الأنبياء والرسل، بل بينهما تكامل وتسديد وتوافق دائم؛ لأنّ وحدة المبادئ والغايات يوجبان التكامل.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٤.

وأما اختلاف الأساليب فراجع إلى اختلاف الظروف والأحوال، وذات القضية نجدها في سيرة النبي والأئمة عليهم السلام والعلماء الربانيين ومن هم على شاكلتهم، فهم يتعددون ويختلفون في الأساليب ولكن يتفقون في المبادى والغايات ومتى ما لاحظنا صراعاً وحرباً بين طرفين فلابد وأن يكون ذلك راجعاً إلى اختلاف المبادئ والغايات، والكلام له تفصيل نوكله لمحله.

ويتحصل: أن الفطرة تقضي بأن عبادة غير الفاطر تقود إلى الضياع والدمار والخروج عن المنهج القويم، وهو ضلال مبين.

الثاني: العقل، فإن العقل يحكم بأن الفاطر يستحق الشكر، وشكره يتم بعبادته وطاعته لا بشيء آخر؛ لأن نعمته عظيمة، والنعمة العظيمة لا تشكر باللفظ والكلمة، بل بالعمل، فالذي يترك عبادة من يستحق الشكر يكون قد ظلمه وتعدى على حقه من جهة، وخدع نفسه وأضلها من جهة أخرى، فيقع في الخروج عن النهج القويم مرتين، ومثله يكون في ضلال مبين.

والخلاصة: أن حبيباً وصف الذي يترك عبادة الفاطر ويعبد الآلهة المتعددة يكون في ضلال مبين؛ لأنه يخرج عن نهج الفطرة والعقل، وهو ضياع تأباه الفطرة والعقل والنفوس السليمة.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أنّ الضلال في العلوم يقع على نحوين: ضلال في العلوم النظرية كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة والإمامة، وضلال في العلوم العملية كالخطأ في العبادة والمعاملة والأخلاق وأدائها على غير نهجها الصحيح[1]، وبهذا الاعتبار يقال للشرك والكفر والنفاق والانحراف الفكري ضلال، كما يقال للفسق والفجور ضلال؛ لأن مرجع الاثنين هو العدول عن المنهج القويم.

اللطيفة الثانية: عبر حبيب النجار عن مخالفة العقل والفطرة بالضلال المؤكد بلام التأكيد؛ لأن مقابلة الإحسان بالإساءة مما يستقبحه كل عاقل؛ ولذا لم يرد عليه قومه؛ ولم يناقشوا ما قاله مع أن العادة قاضية بأن المنكر المعاند لا يتوقف عن الجواب في مثله، والسبب في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: أنّ حبيباً اخترق قلوبهم بالحوار الهادئ الوجداني الذي يناغم فطرهم وبديهة عقولهم.

---

(١) نفحات الرحمن: ج٣، ص٣٨٩.

ثانيهما: أنهم أدركوا أنه صادق في قوله، ولا يريد لهم إلّا الخير والمحبة، وهنا تظهر فائدة عظيمة لأصحاب الرسالات وحملة الأفكار إذا نادوا بها بالأسلوب الهادئ والحوار المنطقي الخالي من المصالح والأطماع .

اللطيفة الثالثة: لماذا نسب الضلال لنفسه؟

إن الضلال يطلق على معان:

منها: العدول عن الطريق المستقيم، وتضاده الهداية[١]، وبهذا الاعتبار يسمى العدول عن العقيدة الحقة أو اتباع العقيدة الفاسدة ضلالاً.

ومنها: سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب، ويعود إلى الأول؛ لأن الطريق المستقيم هو الموصل أما غيره فلا.

ومنها: فساد العمل وبطلانه، ومنه قولهم: ضل عمله أي بطل وفسد[٢] والملفت أن حبيباً النجار نسب الضلال لنفسه وليس لعمله؛ للإشارة إلّا أن ضلال العمل والمناهج يعود إلى ضلال الفكر والمعتقد، بداهة أن فاقد الشيء لا يعطيه، وبذلك يكون قد عرّض بموقف قومه بأسلوب مؤدب رفيع بلّغهم فيه أن عبادة من لا يستحق العبادة والجحود بمستحق العبادة هو ضلال كبير يبتلى به الإنسان إذا غطت فطرته وبديهة عقله رواسب العناد والمكابرة.

---

(١) مفردات الراغب: ص٤٦٦، (ضل).

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٥٤٣، (ضل).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ترابط الحس والعقل والقلب

في هذه الآية والآيتين السابقتين عليها إشارة لطيفة إلى الربط بين ثلاثة عناصر يقوم عليها الاستدلال هي: الحس والعقل والقلب، فالإنسان يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة، فيرى ويشم ويسمع ويذوق ويلمس، وهذا شأن الحس، كما يدرك ما وراءها وعلاقتها، فينظر من المعلول إلى العلة، ومن العلة إلى المعلول، ويقارن بين شيء وشيء ويميزها ويرجح أحدهما على الآخر، وهذا شأن العقل، وأول خطوة في طريق الإدراك العقلي هو إثارة الاستفهام والسؤال، فإذا ذكر السؤال تحفز العقل للتفكير، وأخذ يبحث عن الجواب.

هذه قضية مركوزة في كل عقل، ولذا كثر في هذه الآيات الاستفهام، فإذا أدرك العقل صحة الشيء وحقانيته بعد التحري والفحص إرسله إلى القلب ليستقر فيه، ويصبح عقيدة، وعلى هذا الأساس يكون الحس والعقل كلاهما مقومان للنتائج الاعتقادية القلبية، فالعقل هو آلة الفكر والتفكير وليس محل العقيدة والاعتقاد، وبهذا يتضح أن القرآن لماذا في كل استدلالاته يبدأ من الحس ثم إلى العقل ثم إلى القلب؛ لأن هذا هو النهج

الصحيح للاعتقاد، وكل عقيدة تبدأ هكذا من الحس ثم العقل ثم القلب، واذا استقرت في القلب صارت عقيدة، وأدركها الإنسان بوجدانه فلا تضعف ولا تتبدل، وتؤثر في سلوكه حتى يكون عمله مطابقاً لقلبه.

هذا النهج أشارت إليه الآيات بلسان حبيب النجار عليه السلام؛ إذ قال: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾[1] هذا أمر يدركه بوجدانه، ثم قال: ﴿**ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ**﴾[2] وهذا استدلال عقلي، ثم حكم بالقطع واليقين أن من يعمل هذا يكون ﴿**فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾ ومفاد ذلك أن من يعبد الذي فطره ويترك عبادة من سواه يكون على هدى وصلاح.

التعليم الثاني: أن الإقرار بالحقيقة يوصل إلى المطلوب، ويريح الضمير، ويجذب القلب للتصديق، بخلاف المكابرة والعناد والإصرار على الخطأ فإنه يفوّت المصالح الواقعية، وينفّر القلوب، ويوجب عذاب الضمير.

التعليم الثالث: أنّ العاقل هو الذي يفكر في عواقب أمره فلا يفعل ما يوجب نقصه أو ضرره، لاسيما الضرر الأخروي؛ لأن الحقيقة هي القيمة الصادقة والباقية والتي تترتب عليها الآثار النافعة، فمهما كابر الإنسان وتجبر في مقابلها فإن التكبر يفنى ويزول أثره، ولا يقر في نهاية الأمر إلّا الصحيح، وهذا هو النهج الذي سلكه حبيب للوصول إلى الغاية.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٢.

(٢) سورة يس: الآية ٢٣.

الفهرس

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إلى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ٩

المبحث الأول: في مفردات الآية.......................... ١١

المفردة الأولى: (الأغلال)........................ ١١

المفردة الثانية: ﴿الْأَذْقَانِ﴾......................... ١٢

المفردة الثالثة: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾........................ ١٢

المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................... ١٥

اللطيفة الأولى:.. ١٥

اللطيفة الثانية: ١٥

اللطيفة الثالثة: ١٧

المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................... ١٩

التعليم الأول: سر نجاح العلاقات الأسريّة.................. ١٩

التعليم الثاني: الترفّع عن الجاهلين ٢٤

التعليم الثالث: قاعدة تجسّم الأعمال والملكات ٢٦

التعليم الرابع: التعصب للحزب والجماعة من الأغلال ٣١

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ إِيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ
.... ٣٥

المبحث الأول: في مفردات الآية.......................... ٣٩

المفردة الأولى: (السد)........................... ٣٩

المفردة الثانية: (الغشية للبصر)........................ ٣٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٤٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٤٩
التعليم الأول: على العاقل أن يبصر ماضيه ومستقبله ٤٩
التعليم الثاني: التخلص من سجون النفس ٥١
التعليم الثالث:... ٥١
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٣
المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ٥٥
المفردة الأولى: ﴿سَوَاءٌ﴾................................. ٥٥
المفردة الثانية:(الإنذار).................................. ٥٥
المفردة الثالثة: ﴿أَمْ لَمْ﴾ ٥٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٥٧
اللطيفة الأولى: منهج الإيمان ومنهج الإلحاد................... ٥٧
اللطيفة الثانية: الجاهلية المعاصرة والعودة إلى الله ٦٦
اللطيفة الثالثة: لماذا أنذر من لا يستجيب؟ ٧٣
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٧٧
التعليم الأول: قواعد تنظيم السلوك الإجتماعي................. ٧٧
التعليم الثاني: لا يأس مع الإيمان.......................... ٧٩
التعليم الثالث: الحق ينتصر................................. ٧٩
إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ
.... ٨١

المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ٨٥
المفردة الأولى: ﴿الذِّكْرَ﴾ ٨٥
المفردة الثانية: (الخشية).............................. ٨٧
المفردة الثالثة: ﴿الْغَيْبِ﴾............................ ٨٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية......................... ٩١
اللطيفة الأولى: مراتب الذكر ٩١
اللطيفة الثانية: ما هي مهمة الأنبياء؟.................. ٩٢
اللطيفة الثالثة: لماذا يستغفر المعصومون وما أثره؟ ٩٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية......................... ٩٩
التعليم الأول: القرآن والمعصوم والحضارة.................. ٩٩
التعليم الثاني: إصلاح النفوس قبل إصلاح الدول ١٠٣
التعليم الثالث: مراتب التقوى.............................١٠٥
التعليم الرابع: أركان المعرفة الإلهية ١٠٦
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ..١١١
المبحث الأول: في مفردات الآية..........................١١٥
المفردة الأولى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾..............................١١٥
المفردة الثانية: ﴿نَكْتُبُ﴾ ١١٦
المفردة الثالثة: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ ١١٩
المفردة الرابعة: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ١٢١
المفردة الخامسة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾...........................١٢٤

المفردة السادسة: ﴿أحْصَيْنَاهُ﴾..................١٢٥
المفردة السابعة: ﴿إِمَامٍ مُبِينٍ﴾..................١٢٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية..................١٣٣
اللطيفة الأولى: أقسام الحياة والموت..................١٣٣
اللطيفة الثانية: بماذا تحيا الأرواح؟ ١٣٥
اللطيفة الثالثة: صحيفة أعمال الأمة ١٤٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..................١٤٧
التعليم الأول: ضوابط التوفيق الدلالي بين الآيات والروايات .١٤٧
التعليم الثاني: هل تناقض القرآن مع الإمام المبين؟ ١٥٧
التعليم الثالث: حياة كل شيء وبقاؤه بالإمام عليه السلام..................١٦٨
التعليم الرابع: الموت الحقيقي والحكمي ١٧٨
التعليم الخامس:..................١٧٨
التعليم السادس:..................١٧٨
التعليم السابع:..................١٧٩
التعليم الثامن: حقائق معرفيّة..................١٧٩
وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إذ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٨٣
المبحث الأول: في مفردات الآيتين ١٨٥
المفردة الأولى: ﴿وَاضْرِبْ﴾..................١٨٥
المفردة الثانية: ﴿الْقَرْيَةِ﴾..................١٨٦
المفردة الثالثة: قوله: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ١٨٧

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين ١٩١
اللطيفة الأولى: لماذا يُكذِّبون الأنبياء؟ ١٩١
اللطيفة الثانية: ما علاقة قريش بأهل القرية؟........................ ١٩٦
اللطيفة الثالثة: لماذا عززهم بثالث؟........................ ١٩٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين........................ ٢٠١
التعليم الأول: ثلاثة عناصر لنجاح الأفراد والدول ٢٠١
التعليم الثاني: بالإقناع يتم الإيمان........................ ٢٠٣
التعليم الثالث: أثر التعزيز بثالث ٢٠٧
التعليم الرابع: مبادئ الإدارة والقيادة........................ ٢١٠
التعليم الخامس: التعزيز بثالث ودلالته الاصولية ٢١١
التعليم السادس: بصائر للمبلغين والمصلحين........................ ٢١٢
التعليم السابع: علائم المنتحلين والدجالين والسحرة........................ ٢١٣
قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ٢١٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٢١٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٢٢٣
اللطيفة الأولى: ما هي أسباب تكذيب الرسل؟........................ ٢٢٣
اللطيفة الثانية: هل العقل يغني عن النبوة؟........................ ٢٢٧
اللطيفة الثالثة: القياس من أسباب إنكار النبوات........................ ٢٣٢
اللطيفة الرابعة: لماذا نسبوا الإنزال للرحمن؟ ٢٣٦
اللطيفة الخامسة: لماذا كذبوا الرسل وأقروا بصلاحهم؟ ٢٤٠

المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................٢٤٣
التعليم الأول: التعصب علامة الجهل.....................٢٤٣
التعليم الثاني: هفوة الحداثوية والإلحاد....................٢٤٥
التعليم الثالث: إرشاد للمعلمين والمربين...................٢٤٦
التعليم الرابع: لماذا لم يبعث الله النساء؟ ٢٤٧
قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ..........٢٦١
المبحث الأول: في مفردات الآيتين ٢٦٣
المفردة الأولى: ﴿رَبُّنَا﴾ ٢٦٣
المفردة الثانية: ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾ ٢٦٣
المفردة الثالثة: ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾...........................٢٦٤
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين ٢٦٩
اللطيفة الأولى: لماذا القسم لمن لا يؤمن بالله؟...............٢٦٩
اللطيفة الثانية: لماذا قسموا بالربوبية والعلم؟...............٢٧٣
اللطيفة الثالثة: لماذا ذكروا العلم؟..........................٢٧٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين.........................٢٧٥
التعليم الأول: فن الإقناع...................................٢٧٥
التعليم الثاني: المصلحون الإلهيّون ٢٧٦
التعليم الثالث: تمامية الحجة بشرطين؟....................٢٧٦
التعليم الرابع:..٢٧٧
التعليم الخامس: لماذا يحكم على المرتد بالقتل؟...............٢٧٨
الجمع بين لا إكراه في الدين وقتل المرتد.....................٢٩٣

أربع فئات تنتقد الدين جهلاً ٢٩٤
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. ٢٩٧
المبحث الأول: في مفردات الآية................................ ٣٠١
المفردة الأولى: ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ ٣٠١
المفردة الثانية: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾.................................... ٣٠٥
المفردة الثالثة: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ ٣٠٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية................................ ٣٠٩
اللطيفة الأولى: ثلاث عقوبات يستعملها الجبابرة............. ٣٠٩
اللطيفة الثانية: لماذا لم يسجنوا الرسل؟ ٣١٢
اللطيفة الثالثة: ٣١٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................ ٣١٣
التعليم الأول: ما يجب توفره في النهضات الإصلاحية ٣١٣
التعليم الثاني: للزعماء والقادة..................................... ٣١٤
التعليم الثالث: للمحاورين ٣١٥
التعليم الرابع: التشاؤم والتفاؤل فقهياً ونفسياً.................... ٣٢٥
قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ........... ٣٢٩
المبحث الأول: في مفردات الآية................................ ٣٣٣
المفردة الأولى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾................................ ٣٣٣
المفردة الثانية: ﴿أَئِنْ﴾... ٣٣٤
المفردة الثالثة: ﴿ذُكِّرْتُم﴾.. ٣٣٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية................................ ٣٣٧

اللطيفة الأولى: الإسراف والمسرفون.......................٣٣٧
اللطيفة الثانية: الإسراف الجماعي..........................٣٤٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.............................٣٤١
التعليم الأول: الجبابرة يعادون المصلحين....................٣٤١
التعليم الثاني: أثر الأعمال على حاضر الإنسان ومستقبله.......٣٤٤
التعليم الثالث: الإنسان يصنع سعادته........................٣٤٨
طريقان يوصلانك للسعادة...................................٣٥١
وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ..٣٦١
المبحث الأول: في مفردات الآيتين...........................٣٦٣
المفردة الأولى: ﴿وَجَاءَ﴾....................................٣٦٣
المفردة الثانية: ﴿اتَّبِعُوا﴾..................................٣٦٤
المفردة الثالثة: ﴿أَجْراً﴾....................................٣٦٤
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين...........................٣٦٩
اللطيفة الأولى:رجولة حبيب النجار..........................٣٦٩
اللطيفة الثانية:..٣٧٢
اللطيفة الثالثة: لماذا ذكر الأجر لا الهداية؟.................٣٧٣
اللطيفة الرابعة: الصدّيقون الثلاثة..........................٣٧٦
اللطيفة الخامسة: لماذا لا يطلب الأنبياء أجراً؟...............٣٨٠
ما معنى مودة القربى وما هو ثمنها؟..........................٣٨٣
السكن الزوجي..٣٨٧

واجبات المودة ٣٨٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين..٣٩٣
التعليم الأول: القائد الذي يجب اتباعه..٣٩٣
التعليم الثاني: وجوب المبادرة لنصرة الحق ٣٩٥
التعليم الثالث: الإشارات العلمية للآيتين ٣٩٨
وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٤٠١
المبحث الأول: في مفردات الآية..٤٠٣
المفردة الأولى: ﴿وَمَا لِيَ﴾..٤٠٣
المفردة الثانية: ﴿لاَ أَعْبُدُ﴾ ٤٠٣
المفردة الثالثة: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾..٤٠٤
المفردة الرابعة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٤٠٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية..٤٠٧
اللطيفة الأولى: أسباب الاستفهام..٤٠٧
ميزة البحث العلمي عن غيره..٤١٠
اللطيفة الثانية: لماذا استفهم حبيب؟..٤١٢
اللطيفة الثالثة: مقام حبيب النجار العلمي ٤١٣
مزايا الخلق والفطر..٤١٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..٤١٩
التعليم الأول: فرق الفطرة عن العقل..٤١٩
التعليم الثاني: الفطر يقود إلى العبوديّة..٤٢٣
التعليم الثالث: أعلى مراتب العبادة..٤٢٤

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ.. ٤٢٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٤٢٩
المفردة الأولى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ﴾ ٤٢٩
المفردة الثانية: ﴿آلِهَةً﴾ ٤٢٩
المفردة الثالثة: ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾........................ ٤٣١
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٤٣٥
اللطيفة الأولى:........................ ٤٣٥
اللطيفة الثانية: ٤٣٥
اللطيفة الثالثة: ما هي حكمة الأضرار والأمراض؟ ٤٣٧
اللطيفة الرابعة: فرق الضُر عن الضَر........................ ٤٤٣
اللطيفة الخامسة:........................ ٤٤٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٤٤٧
التعليم الأول: الاستدلال الصحيح يقوم على الوجدان ٤٤٧
التعليم الثاني: أقسام الملاحدة وخطأ المنهج........................ ٤٥٠
أدلة بطلان الصدفة........................ ٤٥٢
التعاليم الثالث:........................ ٤٥٤
التعليم الرابع:........................ ٤٥٥
إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ........................ ٤٥٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٤٥٩
المفردة الأولى: ﴿إِنِّي إِذاً﴾........................ ٤٥٩

المفردة الثانية: ﴿ضَلَالٍ﴾.. ٤٦٠
المفردة الثالثة: ﴿مُبِينٍ﴾ ٤٦٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية................................... ٤٦٥
اللطيفة الأولى:... ٤٦٥
اللطيفة الثانية: ٤٦٥
اللطيفة الثالثة: لماذا نسب الضلال لنفسه؟.......................... ٤٦٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................... ٤٦٧
التعليم الأول: ترابط الحس والعقل والقلب ٤٦٧
التعليم الثاني:.. ٤٦٨
التعليم الثالث:... ٤٦٨
الفهرس.. ٤٦٩